

# أسماء المرابط

القرآن والنساء: قراءة للتحري

ترجمة : محمد الفران

2010

## التقديم

### عن أي تحرر نتحدث

لقد ظلت إشكالية المرأة المسلمة - منذ أمد طويل - رهينة رؤيتين اثنتين على طرفي نقيض : الأولى مقارنة إسلامية محافظة متصلبة. والثانية مقارنة غربية اثنية عرقية معادية للإسلام.

وما من شك في أن هاتين الرؤيتين تصارعان فيما بينهما، غير أن هناك قاسم مشترك يجمعهما، وهو وقوفهما معاً أمام طريق مسدود. إذ من المستحيل تقريباً أن تتصور في هذا السياق ولو نقاشاً تمهيداً أولياً من شأنه أن يوضح وجهات نظر أصحاب هذا الاتجاه أو ذاك اللذين أغمهما قناعاتهما الذاتية.

إن المرأة المسلمة ضحية بامتياز، لاختيارات تمت طيلة قرون من الجمود والانحطاط. وما زالت إلى اليوم تعيش في ظل نظام اجتماعي يطيل باسم الدين وبدرجات متفاوتة أمد التعسف والجور الذي تزرع تحته. وهذه الحقيقة بالتأكيد نادراً ما تقبل في أرض الإسلام حيث غالباً ما يتم تجريم (الأخر) بدعوى أنه يريد أن يزرع النسيج الاجتماعي للقيم الأخلاقية الإسلامية، والذي تمثل فيه المرأة الساهر والضامن لاستمراره.

"الإسلام أعطى للنساء كل حقوقهن ... لقد شرف النساء ... لقد حماهن...". هذا هو الخطاب المفضل لدى كثير من المسلمين الذين رغم صدق إيمانهم بهذه الآراء، تبقى أدلتهم وحججهم ضعيفة لا تقوم دليلاً على ما يذهبون إليه. هذا الخطاب المكرور يبقى دائماً ذو

طبيعة دفاعية تفقد قوتها مع مرور الزمن، وتؤدي نظرا لضعف حجتها إلى اضطراب عميق وهلهلة واضحة. وبالفعل نلاحظ مفارقة تكمن بين الخطاب وبين الواقع المعيش، حيث يريد هذا الخطاب أن يعطي لنفسه كما يصرح بذلك، صورة المحترم للقيم الإسلامية، من خلال تبريره لكل أنواع الميز ضد النساء ... وجرائم الشرف الناتجة عن أنواع الزواج القسري، مروراً بالفقه الذي تراجع كثيراً في أحكامه وفتاويه إلى حد أن وضع النساء في درجة القاصر مدى الحياة. وتطول لائحة أشكال العقاب والتي تبقى مع الأسف مقبولة تزكيتها بعض القراءات الإسلام.

وبالإضافة إلى ذلك، لا يخفى على أحد أن وضعية المرأة على حد ما هو معروف و متداول اليوم في القراءة التقليدية السائدة في كل أرجاء العالم الإسلامي، تبقى المنفذ الوحيد الذي من خلاله، تسعى باستمرار الهيمنة الغربية للتدخل من أجل تسفيه النسق الفكري الإسلامي بأكمله . إن ما يكمن وراء هذا الخطاب الدائر حول المسلمة المحجبة المنطوية والمنهارة نفسياً ما هو إلا إنتاج يستنسخ النظرة الاستشراقية والاستعمارية الشائعة والمنتشرة في الكتابات والدراسات المعاصرة ما بعد الاستعمارية.

إن هذا الخطاب الذي لا يحمل من تجريم النسق الفكري الإسلامي، يستخدم على الخصوص وسيلة لكل الأهداف السياسية التي تروم الاحتواء الثقافي عن طريق دعم التحليل الذي يقوم على ثنائية تقابل بين النموذج الكوبي للمرأة الغربية المتحررة والطبيعية في هذا العالم، وبين المرأة المسلمة التي تحتاج إلى أن تتحرر مما هي عليه ... إن تقابل هذين

النموذجين يجعل المرأة المسلمة في وضعية حرجة، تفرض عليها مكانة المواطنة من الدرجة الثانية، ومن ثم تقدم أو تعرض باعتبارها صورة للمرأة المحيطة حين النظر إليها في علاقتها مع الحداثة والحضارة والحرية. وإنه لمن المضحك حقا أن نقف، عن طريق مجموعة من الخطابات الغربية - التي تدعي التحرر وتنسب نفسها للكونية على اللغة التي يستعملها هؤلاء والتي تحمل إشارات ضمنية تعبر غرضهم المتمثل في احتواء الآخر والسيطرة عليه، ناهيك عن نبرة الحجر الأبوي التي تبدو واضحة. إن هذه اللثة تبرز أن أصحاب هذا الخطاب لم يستطيعوا بحد، أن يقطعوا مع الخطاب الاستعماري والمهمة التي يدعي لنفسه حقا أو باطلا الاضطلاع بها على الدوام والتي في نشر الحضارة بالنسبة للشعوب المستعمرة. إن هذا الخطاب لا يريد أن يحرر المرأة المسلمة لذاتها بل يريد على الأرجح إعطاء قيمة للتحرر الغربي، والإبقاء تبعا لذلك على موضعه القوي الذي سيساعده دوما على السيطرة على الآخر أكثر فأكثر. ولا نريد هنا أن فهم أننا نجعل من الغرب شيطاننا ماردا ونرمي عليه كل عللنا وعيوبنا لأننا نعي كل الوعي أن مكانة القيم الغربية على طول مسار تحديث العالم حقيقة لا غبار عليها . إن النقد الذي نبسطه في هذا الصدد، نوجهه إلى بعض التيارات الفكرية التي باسم تصوراتها وراها للكونية تسعى إلى إحكام قبضتها على الحداثة والحقيقة والاضطلاع بمهمة الناطق الرسمي باسمها. كما أنه في نفس السياق لا يتعلق الأمر بأي حال من الأحوال بادعاء انتقاء وجود ثقافة تركز دونية المرأة في أرض الإسلام فهذا أمر لا يحتاج إلى نقاش، ولكن نسعى أولا وقبل كل شيء إلى التنديد بما تسعى

إليه بعض الرؤى الغربية السائدة من ربط أساس الثقافة الإسلامية بالغلو والتطرف. إن النظرة التربوية تضع المرأة المسلمة إذن، في خانة ذات قد واحد، وحبسها بالتالي في سجن بعد أن تغلق أبوابه بعناية وإحكام، ثم تعلي فيما بعد من شأن المعايير والقيم الغربية وتعتبرها وحدها القادرة على تحرير هؤلاء النساء المسلمات الضعيفات.

وتبقى المرأة المسلمة عالقة بين هاتين النظريتين المتقابلتين بشكل قطعي، وتجد نفسها في نهاية المطاف سجيناً - رغم نفسها لخطاب هؤلاء واولئك والذي يغيب ويقفز على كينونتها وآمالها وإرادتها أيضا ... فبين فكر إسلامي متحجر ومتصلب اتجاه المشاكل النسائية وإيديولوجيا غربية تجد لذة خاصة في الإساءة للدين الإسلامي ولا تجد حرجا في تشويه صورته عن طريق هذه المشاكل النسائية نفسها، يصعب علينا تصور تيار ثالث يسعى لأن يخرج المرأة المسلمة من هذه الطريق الإيديولوجية المسدودة.

إن الحصيلة المستخلصة من خلال مقابلة النساء مع ما يعتبر وضما طن في الإسلام ثقيلة جدا ويصعب على أي أحد أن ينفیها. ولكن أين نحن بالتحديد ؟ هل هذا بالفعل يدخل في الدين الحق بوصفه سقا من القيم التي تركز لدونية المرأة، أو أن الأمر لا يعدو أن يكون واقعا اجتماعيا وجماعيا يريد أن يحتوي الدين ويعمل على إعادة بنائه ليبقي على الهرمية الاجتماعية التي توائم وتساعد في الآن ذاته على إحكام سيطرته وتأكيد سلطته بصورة أفضل.

فمن المؤكد أن العمل الديني عندما يندرج في إطار نظام اجتماعي ما، ويكون هذا النظام قد حدد سلفا مكانة كل جنس على حدة، قد يسبب دون أن يقصد في الخلط بينه وبين هذا النظام الاجتماعي.

ومن البديهي أيضا أن يكون لنا كل الحق في أن نطرح بعض الأسئلة التي تقض مضجعنا وتسقطنا في حيرة وتردد كبيرين والمتعلقة بالتناقض الصارخ القائم بين الرسالة الروحية للقرآن الكريم والواقع الذي يعيشه المسلمون. فمن جهة نعرف أن الإسلام دين يحمل - شأنه في ذلك شأن الديانات التوحيدية الأخرى - رسالة تدعو للسلم والحب والعدل ، هذه الرسالة التي أنزلها الله تعالى خالق هذه الكائنات البشرية ذكرانا وإنانا لا فرق بينهما إذ جعلهما معا أحرارا وسواسية وكرمهما تكريما ... ومن جهة أخرى نجد التأويل التقليدي لهذا الدين نفسه حيث يساهم بشكل أو بآخر في رجحان كفة الرجل في ميزان الواقع الاجتماعي المعيش، وهو ما يجعله يظهر من هذا المنطلق بوصفه أحد المساهمين الأساسيين في التهميش والميز الذي يلحق النساء. ونجد في جزء كبير من القراءات التأويلية للقرآن مجموعة من المظاهر والصور الكلاسيكية لأنواع سيطرة الذكور حيث يتم إبعاد النساء وتهميشهن تماما باسم الدين . ويمكن أن نتفهم أن الاختلافات التأويلية الدينية يمكن أن تأتي نتيجة السياقات الجيوسياسية التي نشأت فيها، وكذا الأوساط السوسيوثقافية التي أنتجتها، غير أن ما يصعب علينا فهمه هو كيف أصبحت هذه التأويلات ذاتها عبر توالي الأيام وتعاقب الستين جامدة ومنغلقة تتمتع عن أي تفكير نقدي. إن هذه التأويلات التي استتبطت

المعني العميق للرسالة القرآنية، أصبحت مع الزمن حواجز كأداء، أمام كل الذين يريدون الرجوع إلى الحركة الأولى للنص، من أجل إيجاد أجوبة لكل ما أصبحت تفرضه علينا المرحلة المعاصرة. إن مثل هذا التداخل والخلط أصبح من العسير معهما التمييز بين ما هو راجع للنص القرآني ذاته، وبين ما هو ليس كذلك، والذي يرجع لنظام التأويل الذاتي البشري. غير أن الملاحظ أنه بين الروح الإنسانية التي نجدها في القرآن والتي تلي من شأن الكائن البشري (نيسان) أكان ذكرا أم أنثى، وبين بعض التأويلات القديمة التي تغط النساء حقهن وتقلل من قيمتهن نجد اختلافا كبيرا جعل الواقع الذي يعيشه المسلمون اليوم متقهقر كثيرا بالمقارنة مع مرجعياتهم الدينية.

إن الرسالة الروحية على حد ما يصفها لنا القرآن في الكثير من الآيات بمثابة تذكير أو ما سماه القرآن نفسه بالذكر، وتخلص وظيفته في كونها توقظ في الكائن البشري الجانب النبيل في ذاكرته ووعيه، من أجل أن يظل في قرب شديد بربه واتصال دائم مع خالقه. ومن خلال هذا الذكر يحصل الاطمئنان الباطني بالعدل الإلهي... من هذا المنظور فليس هناك أي شيء في النص القرآني يمكن أن يبرر أو يدافع عن أي نوع من أنواع الميز ضد النساء. إن هذه هي القناعة التي لا يمكن إلا أن تتبع من الإيمان العميق، لكنها تجد صعوبات جمة في أن تترجم إلى تطبيق فعلي على أرض الواقع الإسلامي المعيش، حيث ما زال الأمر يحتاج إلى إعادة صياغتها من أجل إدماجها ونشرها في الحياة اليومية للناس في المجتمع.

في هذا المجال بالذات يجب تطوير الفكر الإسلامي من أجل إعادة بنائه وتشكيله من جديد، وإعادة التفكير فيه بصورة تم معها معرفة الفرق بين الرسالة القرآنية وبين التأويلات التي أدت إلى تحجر النص وقتلت فيه روح الحوار.

هذا ما صار يحقق في العالم الإسلامي شيئاً فشيئاً إن شاء الله، حيث بدأت تلوح في الأفق إرهاصات تفكير مدروس بروم تغير هذا الواقع بتؤدة وأناة...

ورغم الواقع المزري للغاية في مجموع العالم الإسلامي يمكن أن تبين بوضوح نشوء - وإن في استحياء خطاب جديد يحاول إصلاح الفكر الديني الذي أصبح يعاني من فقر فكري صارخ حيث انصرف كلية نحو الجانب الوعظي لا غير.

وبالفعل فإن مما يدعم ملاحظتنا هذه ما أصبحنا نشاهده اليوم من ظهور فكر إسلامي - رغم قلة أصحابه بالتأكيد - يحاول جاهدا المساهمة في إعادة رسم خريطة هذا الفكر وكذا خلق مجالات جديدة له حيث تساعد النقاش الديني على أن يتطور وينتفش دون أن يفقد روحه الأصلية والأصيلة.

وفي داخل هذه الأوساط الفكرية نجد من يهتم اهتماما كبيرا بوضعية المرأة في الإسلام ويعمل بفكر جدي وعميق حيث بدأ يأخذ خطابه منحى واضحا ويفرض نفسه يوما بعد يوم. إن مسألة المرأة في الإسلام كانت دائما في قلب النقاش بل كانت حاضرة في كل المطارحات والمناظرات في العالم الإسلامي برمته، ومع ذلك فإن الجديد اليوم أنه في غمار هذه الحركية الفكرية الجديدة أبدت نساء مسلمات استعدادهن للمشاركة في هذا النقاش



وحاولت أخذ الكلمة من أجل استرجاع ما كان دائما في يد الرجل يتحكم فيه دون منازع وبالتحديد قدرها ومصيرها.

وبالفعل استطاعت اليوم الكثير من المثقفات المسلمات اللواتي يعشن في المجتمعات الإسلامية وأيضا في الدول الغربية، من خلال أبحاثهن الأكاديمية في علم الاجتماع والفقهِ الإسلامي وبالخصوص من خلال عقيدتهن الدينية الإسلامية الراسخة، أن تعدن النظر في الكثير من الأحكام المسبقة المتعلقة بوضع المرأة في الخطاب الديني التقليدي المتحجر. لقد عارضن بالخصوص تلك التحاليل القديمة التي تزكي كل أشكال اللامساواة بين الرجل والمرأة وما يترتب عنها من إجراءات تمييزية تعتبر عند أصحاب هذه التحاليل جزءا متضمنا في النص القرآن الكريم. كما يحاولن إبراز أن هذه الأمور ما هي إلا مختلفات القراءات المغرضة التي لا توجهها إلا الأعراف والتقاليد ذات سلطة أبوية واضحة حيث تعطى الشرعية الكاملة التمييز بين الرجل والمرأة.

ومن المفيد أن نشير في هذا الصدد بأن هذه المقاومة التي اتخذت أشكالا جديدة وإيجابية تنحصر في واقع الأمر على المسلمات دون غيرهن. إنهن يحافظن على نظرتهن النقدية لبعض القراءات الدينية في نفس الوقت الذي يتشبثن فيه بإيمانهن الراسخ وممارستهن للشعائر. وانطلاقا من عقيدتهن هاته بطالين بحقهن في إبداء رأيين وتقديم تصورهن. انهن من هذا المنطلق يضمن مسافة بينهن وبين الحركة النسائية التي تطالب بتغيير وضعية المرأة من خلال الابتعاد عن كل ما له مرجعية بالدين أو يمت إليه بصلة. إن هذه الرغبة

والإرادة التي تبديها هؤلاء النساء من خلال فرض أنفسهن في إطار غير الإطار الديني تستوجب الاحترام لا شك، غير أنه من المؤسف أن نلاحظ أن هؤلاء المسلمات اللواتي ينتفضن ضد ما يعتبرنه دكتاتورية الدين تفتح لمن أبواب الإعلام ووسائل الاتصال على مصراعها كما أن كلامهن يجد الأذان الصاخية في كل بقاع الدنيا ... وهذا في حد ذاته لا يبعث على الدهشة على كل حال لأن النقد المقبول والمرحب به بصورة كبيرة في الأوساط التربوية اليوم هو ذلك النقد الذي يعمل على النيل والإساءة إلى التقاليد الإسلامية<sup>1</sup>.

وبالفعل إن الذي يميز الشكل الجديد للمعارضة النسائية من داخل الإسلام وليس من خارجه - كما أكدنا على ذلك في السابق - أنه يلقي نوعا من اللامبالاة وعدم الاكتراث من طرف الأوساط الغربية لكنه في الوقت ذاته يلقي ترحيبا وتشجيعا في الداخل مادام لا يخرج عن دائرة الإسلام ... إن هناك نساء مسلمات انخرطن في هذا النضال انطلاقا من قناعتهم الراسخة بضرورة سلوك طريق تسمح لهن بطرح التساؤلات وإعادة النظر في بعض القراءات المعادية للإسلام، وكذا الرد على القراءات التي تعطي الشرعية لكل ما من شأنه أن يكرس دونية المرأة وتبعيتها في المجتمعات الإسلامية ... وهذا ما أصبح البعض يطلق عليه عارضات الداخل. وبالفعل، فإن الأمر يتعلق بمشروع ضمني للدراسات القرآنية والذي يصرح

---

<sup>1</sup> - يمكن أن نستشهد في هذا الصدد بالنجاح الكبير الذي حققته دور النشر الفرنسية سواء من خلال شهادات بعض المسلمات أو عناوين الكتب المنشورة والتي تقدم المسلمات وإصرار شديد و كأن ضحايا الإسلام ويمكن أن نذكر على سبيل المثال :

Brulée vive de Souad ; Marie de force de Leila ; Mutilée de Khady; La femme lapidée de Freidoune Sabebjam ; Défigurée de Rania el Baz; Je suis née au Harem de Chaoga Regina...

وكل هذه الكتب صدرت تقريبا سنة 2005.

علانية وباسم هذه الدراسات تشكيل أو خلق تقاليد جديدة للمساواة بين الرجال والنساء. وفي قلب هذه النقاشات وهذه التطورات الفكرية تطرح قضية أساسية تتمثل في ضرورة كسب رهان القراءة الجديدة للنص القرآني الكريم ... قراءة تتسجم مع سياق الواقع الإنساني الذي نحيا بين ظهرانيه ولا يتوقف عن التقدم والتطور. هذه القراءة تريد أن تكون أمينة مع مبدأ أساس في الإسلام والذي ينظر للقرآن بوصفه نصا صالحا لكل زمان ولكل السياقات.

وبعد كل هذا، كيف يمكن أن نكتفي بتفسير لجمع وتراكم منذ قرون، اعتمد فيما يخص المرأة التفسير الحربي المباشر؟ ولماذا نبقى دائما متعلقين بقراءات تقليدية عفا عليها الزمان، ونترك المنهج الذي أكد عليه النص ذاته من خلال مبادئه الأساس الكبرى التي تدعو للاجتهاد وإعادة القراءة ليتمكن التوفيق بين الواقع الاجتماعي وبين النص ذاته، بل إن هذا المنهج سيجعل أي واقع اجتماعي يجد نفسه في النص بسهولة ويسر؟ كيف يمكن أن نبقى مكتوفي الأيدي نجتز التعاليق والشروح القديمة ونهمل المقاصد الحقيقية للنص والتي تعطي لكل سياق معنى يتلاءم ويتوافق مع حياتنا الإنسانية على ظهر هذه الأرض؟ إنه لمن المحزن جدا أن نلاحظ أنه عوض أن نظل أوفياء لأهداف ومرامي الرسالة الإلهية بقينا على عكس ذلك أوفياء للتأويلات والتفسيرات والقراءات البشرية التي ساهمت طوعا أو كرها في نشوء وذبوع ثقافة التنقيص من شأن النساء وأفضت في نهاية المطاف إلى تلغيم مجتمعاتنا الإسلامية.

وانطلاقاً من هذا المنظور يبدو لنا أن إعادة قراءة النص القرآني من خلال البعد الإنساني سيجد أهميته الكبرى، وسيساعد على خلق دينامية حقيقية من أجل تحرر نسائي تابع من داخل المنظومة الإسلامية هدفه الأساس إعادة الاعتبار إلى المرأة المسلمة وإعطائها القيمة التي تستحق.

هذه القراءة التحررية ستمكن من إعطاء المرأة استقلالها الحقيقي وهويتها الإسلامية الأصيلة سواء فيما يخص حقوقها أو في ما يخص المسؤوليات المنوطة بها . كما ستمكن في النهاية من الاعتراف للمرأة بحقوقها والنظر إليها بوصفها شريكا فعالا في مسلسل الإصلاح وإعادة التأويل الديني الذي يعرفه عالمنا الإسلامي في الآونة الأخيرة. لأنه من الممكن باعتبارنا مؤمنين مساءلة الزعم القائل بأن الرجال وحدهم من يمتلكون سلطة تأويل و تفسير ما قاله الله تعالى في كتابه. فكيف يعقل أن لا نجد، عبر كل عصور تاريخ الإسلام، ولو تفسيرا قرآنيا واحدا وضعته امرأة مسلمة ؟

إن الأمر هنا لا يتعلق بتشجيع كتابة تفسيرية نسائية خاصة، تتفصل وتقطع مع أربعة عشر قرنا من تقاليد التفسير القديم. لأن هذا الأخير رغم كل ذلك، بشكل تراثا غنيا جدا بالنسبة للذاكرة الإسلامية، كما أن مساهمته تعتبر أساسية بالنسبة لكل دراسة معمقة للنص القرآني، فالمسألة في واقع الأمر لا تتعلق بإلغاء المساهمة المهمة لعلم التفسير في فهم النص القرآني الكريم. بقدر ما تتعلق بضرورة إعادة النظر وتصحيح بعض الأحكام التاريخية المسبقة التي تركزت للمساواة بين الجنسين معتمداها في ذلك فهم بشري غير

مكتمل للنص القرآني. إن إعادة بناء هذا النموذج الأبوي أو الذكوري الذي يهيمن على هذه القراءة التي وضعت المرأة في زاوية مخبأة من التاريخ الإسلامي من شأنه أن يعيد لها جزءاً ذاكرتها التي تترت منها منذ زمان بعيد.

ولا يتعلق الأمر هنا - بطبيعة الحال بحركة نسائية هدفها الأساس وضع تقابل بين الرجال والنساء والنظر إليهما بوصفهما كائنين متصارعين على الدوام... بل إن المنظور النسائي الجديد يحاول أن يفند الرأي المزعوم بعلو مكانة الرجال على النساء، وذلك في إطار إعادة النظر والقراءة وليس في إطار الصراع أو المواجهة. إنها نظرة جديدة لا يمكن أن تكون إلا غنية ومثمرة، لأنها تأخذ بعين الاعتبار التجربة الروحية للنساء، واللواتي غيبن كثيراً عن المرجعيات الإسلامية، ومن المؤكد أن الجانب الروحاني لا جنس له، لكن طريقة عيشه والإحساس به يختلف بين الرجال والنساء. من هنا يصبح ما ستقدمه التجربة النسائية إضافة نوعية للتجربة الروحية الإنسانية على وجه العموم... وإضافة إلى ذلك فإن النبي صلى الله عليه وسلم حضنا منذ البداية على أن تعيش اختلافنا (المرأة الرجل في إطار الأخوة في الله التي تجعلنا معا سواسية أمام خالقنا... لذا نجد تبا لكل ذلك وفي إطار المشروع الإصلاح الإسلامي، أن مجموعة مهمة من المسلمين الرجال انخرطوا منذ مدة طويلة في مسار يسعى إلى إعادة النظر والقراءة في قضية تحرر المرأة على ضوء المبادئ الإسلامية. وهذا العمل الذي يقومون به تابع بالدرجة الأولى من قناعاتهم العميقة بالعدل الإلهي، والضرورة الملحة لرفع أي تمييز أو لا مساواة بين الجنسين البشريين الذكر والأنثى.

هذه القناعة خلقت عند المؤمنين والمؤمنات يقظة وفكرا نقديا اتجاه كل أشكال وأنواع الخضوع والاستعباد.

إن رفض وشجب الخضوع والخنوع الذي ظلت المرأة المسلمة ضحية له على مر التاريخ يعد بمثابة عبادة وإيمان وإخلاص لرب العالمين.

هذا إذن هو التحرر الذي نقصده.

إنه تحرر نسائي يطالب بالاستمداد الروحي من القرآن الكريم كلام الله السرمدي والمصدر الذي لا ينضب من مدنا بالقوة والحرية والأمل...

إنه تحرر يفضل أولا وقبل كل شيء الأصالة وصفاء الطوية والاستقامة.

إنه تحرر بربط علاقة خاصة مع الله تعالى علاقة تساعد على التحرر من كل شيء ومن كل أنواع الخنوع والخضوع ...

إنه تحرر نسائي لا يريد لنفسه أن يكون مطابقا أو مستنسخا عن أي نموذج جاهز كثير الرواج والشيوع. فلا يريد أن يكون بالضرورة صورة النموذج الغربي ولا صورة للنموذج الشرقي بل يريد أن يكون نموذجا مستقلا عن باقي النماذج الأخرى...

إنه تحرر نسائي يطمح لأن يكون حرا في اختياراته، ويعيد كتابة تاريخه، وتحدد فضاءات الحرية الخاصة به.

إنه تحرر متجذر في ارتباطاته الروحية، يسعى لأن يكون منفتحا على كل الغني  
الإنساني ومستعدا تمام الاستعداد ليشارك بمعية الآخرين دون استثناء، القيم الكونية الحقيقية  
القائمة على العدل والإنصاف.

## بادئ ذي بدء

يجب أن تعود بادئ ذي بدء إلى قصة الخلق البشري ... لقد عرف التاريخ البشري وكذا الخيال الشعبي فكرة ترسخت في الأذهان ترسخا كبيرا فصارت قناعة تجدرت في الذاكرة عبر العصور سواء في المجال الثقافي أو في المعتقدات الدينية وكذا في تاريخ الحضارات ... هذه القناعة تعتبر أن آدم باعتباره رجلا هو من المخلوق الأول الذي خلقه الله وأن حواء المرأة خلقت بعد ذلك من ضلع من ضلع آدم.

ومن ثم أصبحت هذه الحقيقة مصدرا لكل ما يشاع حول دونية المرأة مقارنة مع الرجل، وما ترتب عن ذلك من مفاهيم وأفكار كانت لها آثار مدمرة على مر العصور التي عرفتها الإنسانية جمعا.

وما من شك أيضا أن مسألة دونية المرأة في علاقتها أو مقارنتها بالرجل و أصولها كذلك في بعض الأحكام الفقهية التي ترسخت بشكل كبير في العقليات. وهذا الأمر : يقتصر على الأحكام الإسلامية فحسب، بل نجده أيضا ينطبق على الثقافات والتقاليد اليهودية والمسيحية في أرض الإسلام. ودون أن ندخل في التفاصيل الميتافيزيقية فإن هذه الأحكام الكبرى الأساس نجدها تقريبا وباختلافات طفيفة أيضا في كل النصوص التأويلية أو التفسيرية وفي كل الشعائر الدينية للأديان الموحدة الثلاث، ويمكن أن نلخص خطوطها الكبرى من خلال ثلاث ملاحظات تتكرر باستمرار في التاريخ الديني للبشرية.



بداية نجد فكرة مفادها أن المرأة خلقت من ضلع آدم، وهذا يؤدي إلى القول بأن خلق المرأة جاء تابعا بالضرورة لخلق الرجل، وبالتالي فإن آدم الرجل اعتبر هو الأس أو النموذج المثالي البشري.

الملاحظة الثانية وهي تلك التي ترى أن حواء هي السبب الرئيس في طرد آدم من الجنة بوصفها - حسب الرؤية الشعبية الشائعة هي التي دفعت آدم لعصيان ربه عندما أكل من الشجرة التي نهاه الله عن الاقتراب منها. لقد صارت هذه الرؤية منتشرة وشائعة وأصبحت هذه القصة الحقيقية لخطيئة الإنسان الأولى.

والمسلمة الأخيرة أو الملاحظة الثالثة هي أن المرأة لم تخلق فقط من ضلع آدم، ولكن خلقت خصيصا له، وتكمن في هذا الكلام إشارة كبيرة، يبدو أنها أصل كل ما شاع من الممارسات التي تكرس ثقافة خضوع المرأة في المجتمع، وقد وجدت هذه الثقافة شرعيتها الكاملة في بعض الخطابات الدينية. ونجد في فترتنا المعاصرة أغلب المفسرين المسيحيين يعتبرون قصة آدم وحواء بمثابة قصة رمزية ليس إلا، لذلك تجد كثيرا من علماء الدين قدموا قراءات القصة الخلق تختلف عن التأويلات التقليدية المعروفة والذائعة الصيت. لقد اعترفوا من خلال أعمالهم هذه بوجود الكثير من التناقضات في الإنجيل ومن ثم دحضوا مجموعة من التأويلات والتفاسير القديمة واعتبروها حرفية لا تعكس المعاني الحقيقية.

أما في ما يخص الإسلام أو بالأحرى النص القرآني نفسه، فلا نجد فيه هذه الصورة التي تجعل حواء خلقت من ضلع من ضلع آدم. إن ما يثير انتباهنا في هذا السياق هو

المدى الذي وصلت إليه مختلف التفاسير والكتب الدينية - علاوة على البصمات التي تركتها في المخيال الإسلامي - في هذه المسألة حيث تأثرت تأثيرا كبيرا بالصور التقليدية اليهودي/ المسيحي.

وفي القرآن الكريم نجد آيات متعددة تقدم لنا تصورا يختلف كثيرا عن ما هو شائع بين المسلمين اليوم. وهكذا ففي سورة النساء نجد أية مركزية بهذا الخصوص تقول: "يأياها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء"<sup>1</sup> ويبدو أن الألفاظ أو المصطلحات المستعملة في النص القرآني والتي تتعلق بالخلق، من المهم جدا إعادة تحديد معناها والوقوف المتأنى أمامها ، لأن الكلمات المفاتيح في هذه الآية يمكن أن تفسرها وتؤول في أغلب الحالات تبعا لخطاظة قديمة تقوم على سلمية في الحلق البشري. وهكذا نجد في التفاسير القرائية القديمة مصطلح النفس الواحدة التي تعني آدم بوصفه كائنا ذكرا والزوج كناية عن زوجته.

غير أن دراسة مفصلة ودقيقة ستبين لنا أن لفظ النفس (وهو لفظ مؤنث في العربية) يعني مجموعة من المفاهيم التي يعبر عنها حسب سياقات النص بألفاظ من نحو: الشخص، الفرد، الروح، الجوهر المادة، نفخ فيه من روح...

أما بالنسبة لفظ الزوج فيقصد به الزوجة والشريك، وغالبا ما يستعمل في سياق الكلام عن المرأة أو بعلمها. ورغم أن اللفظ من الناحية النحوية يحيل على المذكر فقط، فإنه يطلق

---

<sup>1</sup> - سورة النساء، الآية 1.

أيضا على الرجل كما يطلق على المرأة (زوجة زوجها)<sup>1</sup>. وغالبا ما يستعمل هذا اللفظ في القرآن الإحالة على المرأة وبعلمها، يستوي في ذلك الإنسان والحيوان والنبات. وهذا ما نجده بوضوح في الآية القرآنية التي تقول: ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون<sup>2</sup>.

ومع ذلك، فإن عددا كبيرا من العلماء يؤولون مصطلح النفس ب "آدم" باعتباره رجلا أو ذكرا، ويؤولون مصطلح الزوج بالزوجة . وهذا المنطق يؤيد ويدعم فكرة التجسيد القديمة المرتبطة بقصة الخلق الأول للإنسان. وبما أن آدم هو ذكر فإن لفظ الزوج المستعمل في هذه الآية القرآنية يجسد المطابق الأنثوي الذي هو حواء . إن التفاسير الإسلامية الأولى التي اعتمدت كثيرا في استنباط تأويلاتها على التراث الديني الذي كان قبل الإسلام، أخذت ضمن ما أخذت قصة خلق حواء من ضلع آدم، هذه القصة التي تكررت ثم تقررت على نطاق واسع، مما جعل العلماء المسلمين يتبنونها بدورهم دون إعادة نظر أو رد.

وانطلاقا من هذه المسلمة واعتمادا على بعض الأحاديث النبوية فإن المفسرين

القدماء استنتجوا أن حواء خلقت من ضلع آدم<sup>3</sup>.

---

<sup>1</sup> - إن مصطلح زوج يستعمل في القرآن مرة للإحالة على الذكر مثل قوله تعالى: "والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشرا". سورة البقرة، الآية 234، وكذلك قوله تعالى: "قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله... سورة المجادلة، الآية 1، ومرة يحيل على المؤنث كما في قوله تعالى: "يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء" سورة النساء، الآية 1 ، وكذلك قوله عز وجل: "فيتعلمون بينهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه". سورة البقرة، الآية 102.

<sup>2</sup> - سورة الذاريات، الآية 49.

<sup>3</sup> - هناك حديث عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذي جاره واستوصوا بالنساء خيرا فإن خلقن من ضلع وإن أعوج شيء في الضلع أعلاه فإن ذهب تقيمه كسرته وإن تركته لم يزل أعوج فاستوصوا بالنساء خيرا". صحيح البخاري (المترجم).

غير أننا نلاحظ بادئ ذي بدء، أن القرآن لا يذكر حواء بالاسم. وهكذا فإن لفظ زوج أو الصاحبة يختلف باختلاف الآية وسياق معناها ، وهكذا فحسب تناسب معنى الآية واتجاه دلالتها يحيل لفظ الزوج مرة على الرجل، ومرة على المرأة وأحيانا كما هو الحال في الآية التي سبق ذكرها ، يبقى المعنى مطلقا مجرد الجنسين معا.

وبالإضافة إلى ذلك لا يوجد في القرآن الكريم أي كلام واضح الدلالة على أن آدم الذي هو أصل المخلوقات البشرية، كان ذكرا ، كما لا يوجد أي دليل في القرآن على أن حواء خلقت من إحدى ضلوع آدم! وهناك بعض العلماء المسلمين القدماء والمعاصرين أيضا ، يشككون بل ويدحضون هذا النوع من التأويلات والتفسيرات التي تبدو في نظرهم متأثرة أشد ما يكون التأثير بالنصوص والمخطوطات القديمة.

هؤلاء المفكرون يعتبرون أولا أن لفظ آدم استعمل في القرآن كثيرا في معنى عام وهو الكائن البشري أو النوع البشري. وهذا ما حاول الوقوف عليه الشيخ محمد عبده في مختلف كتاباته حيث يؤيد الفكرة التي تقول إن آدم عندما يذكر في القرآن يقصد به أحيانا الإنسان أو البشر على وجه العموم. ويبدو أن لفظ آدم على حد ما تم ذكره بوضوح في الآية القرآنية يقصد به البشرية بمجموعها وهذا ما يدفعنا للقول إنه خلق آدم خلق الله تعالى الجنس البشري في صورته الأولى التي تجمع بين الذكر والأنثى معا.

إن هذه القراءة التي نطلق عليها القراءة الإصلاحية لتمييزها عن القراءة القديمة، تتبنى إذن الأصل الواحد للبشر. بعبارة أخرى إنها ترجع البشرية إلى مادة واحدة وأصل واحد.

ودائماً تبا لهذه الرؤية الإصلاحية، فإن الهدف من الآية التي تصف لنا الخلق هو التأكيد على أن المساواة الإنسانية تمت على جميع المستويات. وبخلاف القراءة القديمة فإن لفظ النفس يعني (الإنسان أو ادم ولفظ الزوج يعني حواء أو المرأة الأولى، ولفظ النفس الواحدة يعني هنا من وجهة نظر هؤلاء الإصلاحيين أن المادة الأولى جعل الله من جنسها زوجا يساويه في الإنسانية، وهذا ما يؤكد على فكرة المساواة الإنسانية الكلية والتامة بمعزل عن أي اعتبارات للنوع أو الجنس. فالبشرية قد تكون خلقت إذن انطلاقاً من هذه المادة الأولى أو الحقيقة الأولى حسب ما يستفاد من التحليل الذي قدمه الإمام محمد عبده والذي من خلال تأويله الفريد هذا، تميز عن باقي المفسرين القدماء.

وبالفعل فإن الإمام محمد عبده<sup>1</sup> وقف على رأيين يتقاربان حول مفهوم النفس الواحدة الرأي الأول يعتبر أن المادة الأولى شاملة تحتوي الجنسين ما الذكر والأنثى. وهذه المادة هي التي ستتطور في المرحلة الثانية لتعطي الزوجين الذكر والأنثى، وبالتالي كل الرجال وكل النساء. القول الثاني يرى أن القرآن الكريم لا يوجد فيه ما ينفي أو يكذب الفكرة القائلة إن هذه النفس الأولى ترجع في أصلها الأول إلى جوهر نسائي، وما يدعم هذا الرأي هو أن كلمة النفس هي لفظ مؤنث، وأن لفظ الزوج لفظ مذكر، بمعنى أنه يستتضمّر صاحب أو البعل، ويؤكد ذلك ما جاء في آيات قرآنية أخرى كقوله تعالى: "هو الذي خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليكن إليها"<sup>2</sup>.

<sup>1</sup> - محمد رشيد رضا، تفسير المنار، دار الكتاب العالمية ج4 ص 265 لبنان 1999.

<sup>2</sup> - سورة الأعراف، الآية 189.

إن الإمام محمد عبده اعتمد على هذا التحليل ليستدل على أنه هو السبب الذي جعل  
السورة التي تضم هذه الآية يطلق عليها سورة النساء. وهذا كما ترون نموذج رائع للقراءة  
النسائية للقران.

ويبدو من الواضح - وعلى ضوء ما اعتمده بعض المفسرين المعاصرين وأيضاً دون  
أن تغفل الجانب الغيبي الذي يميز كل النصوص المقدسة أن نذهب بعيداً شيئاً ما، ودون  
أي مغامرة فكرية يمكن أن نقول إن النص القرآني تحدث عن الخلق البشري دون أن يحدده  
بنوع أو جنس، "إن القران يستعمل دون تمييز المصطلحات والصور في المؤنث والمذكر،  
حتى يصف الخلق انطلاقاً من أصل واحد ومن مادة واحدة، ويفهم من عدد كبير من الآيات  
القرآنية بأن الخلق الأول جعله الله خلقاً لا هو بالذكر ولا هو بالأنثى"<sup>1</sup>.

ويبدو إذن أن الله خلق الرجل والمرأة في آن واحد ومن مادة واحدة، وهذان المخلوقان  
سيشكلان المكونين الشقيقتين المنبثقتين عن نفس الحقيقة. إن هذا القول يتناسب فعلاً مع  
مفهوم ثنائية الخلق التي ترد مراراً وتكراراً في النص القرآني "ومن كل شيء خلقنا زوجين  
لعلكم تذكرون"<sup>2</sup>.

وبالفعل فإن الرجل والمرأة بوصفهما زوجاً، سيؤكدان على المبدأ الأساس في القرآن  
وهو أن الخالق واحد بخلاف باقي المخلوقات التي خلقت "أزواج". ولا يمكن أن نتحدث عن

---

<sup>1</sup> - مقال لرفعت حسن بعنوان :

L'égalité entre hommes et femmes ; université de Louisville ; Kentucky; [www.études-musulmanes.com](http://www.études-musulmanes.com)

<sup>2</sup> - سورة الذاريات، الآية 49

"الزوج" دون أن تتحدث عن المساواة من خلال كافة جهات النظر. إن هذه القراءة التجديدية للخلق البشري تبدو أنها الأقرب للرسالة القرآنية التي تعلي من شأن المساواة والإنصاف بين البشر. ونلاحظ أيضا أن كل النصوص التي وردت في القرآن بخصوص الخلق البشري تدور حول مفهوم أكبر هو التوحيد والذي يشكل المادة الأساس للجانب الروحي في الإسلام. ومع ذلك فإن هناك مجموعة من قدماء المفسرين يستشهدون بعض الأحاديث التي تتحدث عن المرأة بصفة عامة، وذلك ليفرضوا فهمهم الخاصة على معنى النص القرآني خصوصا تلك التي تتعلق بقضية الخلق، ومن تم سيستخلصون مفهومهم الخاص والذي تمثل أساسا في التأكيد على أن خلق المرأة جاء بعد خلق الرجل ومن خلاله، وهو ما سيترتب عنه مع الأسف إضفاء الشرعية الدينية على نوع من الأقوال التي تزكي الدونية البنيوية للمرأة.

وفيما يخص الحديث الذي يؤخذ في هذا السياق دليلا على تأويل الآية القرآنية للخلق والتي سبق ذكرها، يبدو أننا أمام ثلاث روايات تتشابه تقريبا فيما بينها، وكلها تقول إن الرسول الكريم تحدث عن النساء بوصفهن قد : خلقت من ضلع أعوج وإن أعوج شيء في الضلع أعلاه فإن ذهبت تقيمه كسرته<sup>1</sup>.

---

<sup>1</sup> - الحديث رواه أبو هريرة وورد في الصحيحين البخاري ومسلم. أما الروايات المذكورة في هذا الصدد فهناك رواية صحيحة رواها ابن كثير عن الرسول الكريم قال: " إن المرأة خلقت من ضلع وإن أعوج شيء في الضلع أعلاه فإن ذهبت تقيمه كسرته وإن استمعت به استمعت بما وفيها عوج". وروى أبو هريرة عن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه قال: من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذي جاره واستوصوا بالنساء خيرا، فإن خلقت من ضلع، وإن أعوج شيء في الضلع أعلاه، فإن ذهبت تقيمه كسرته، وأن تركته لم يزل أعوج، فاستوصوا بالنساء خيرا". رواه البخاري بسند صحيح في الجامع الصحيح. وهناك رواية أخرى: "استوصوا بالنساء، فإن المرأة خلقت من ضلع، وإن أعوج شيء في الضلع أعلاه، فإن ذهبت

إن دراسة هذا الحديث النبوي ستبين لنا أن الرسول صلى الله عليه وسلم ذكره في سياق مجموعة كبيرة من الوصايا المرتبطة بالعلاقات التي يجب أن تجمع الرجل والمرأة والتي بمقتضاها كان الرسول صلى الله عليه وسلم يحض الرجال على إكرام زوجاتهم والإحسان إليهن ومعاملتهم برفق. إن التشابه بين هذه الأحاديث وبين ما ذكر عن تاريخ آدم وحواء في تقاليد الإنجيل، هي التي جعلت بعض العلماء يحاولون الربط بين هذين الروايتين (الإسلامية/المسيحية) وبالتالي الذهاب إلى القول إن حواء خلقت من ضلع من ضلع آدم. ونلاحظ بهذا الخصوص أن هذه الأحاديث لا تذكر آدم لا من قريب ولا من بعيد. وهذا التأويل يوجد باطراد في عدد كبير من مصنفات التفسير في حين وكما رأينا من خلال الفقرات السابقة لا يوجد في القرآن الكريم ما يؤكد هذا الفهم.

ولا يمكن إلا أن نستغرب من هذا التقارب أو التقريب الذي يحاول البعض القيام به بين السنة النبوية الشريفة وبين الأسطورة اليهودية المسيحية. إن الحديث المذكور قاله الرسول صلى الله عليه وسلم في إطار الوعظ والإرشاد الذي ظل عليه الصلاة والسلام يوجهه إلى أصحابه حتى في خطبة حجة الوداع التي أوصى فيها الرجال بحسن معاملة النساء. وفي نهاية الحديث يأتي الأمر الموجه إلى جميع المؤمنين<sup>1</sup> : أوصيكم بالنساء خيرا.

---

تقييمه كسرتة، وإن تركته لم يزل أعوج، فاستوصوا بالنساء". رواه البخاري بسند صحيح في الجامع الصحيح. وروى الإمام مسلم في المسند الصحيح عن أبي هريرة عن الرسول صلى الله عليه وسلم: "من كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فإذا شهد أمرا فلينكلم بخير أو ليسكت. واستوصوا بالنساء . فإن المرأة خلقت من ضلع. وإن أعوج شيء في الضلع أعلاه. إن ذهب تقييمه كسرتة. وإن تركته لم يزل أعوج. استوصوا بالنساء خيرا".

<sup>1</sup> - عن المقدم بن معدي كرب رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قام في الناس فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: "إن الله يوصيكم بالنساء خيرا، إن الله يوصيكم بالماء خيرا، فإن مالكم وبنائكم الاث، إن الرجل من أهل الكتاب يتزوج



إن لفظ الضلع - وهنا الرسول صلى الله عليه وسلم لا يتكلم عن ضلع آدم - استعمل هنا استعمالاً استعارياً، وهو استخدام تم اللجوء إليه في إطار الجاز اللغوي الذي كان محموداً ومرغوباً في سياق الأعراف الكلامية العربية في ذلك الوقت، والغرض الأساس من كل ذلك هو حث الرجال على حسن معاملة النساء واللفظ معهن والرفق بهن. وعلى حد ما ذهب إليه بعض المفكرين المسلمين المعاصرين<sup>1</sup> فإن هذه الأحاديث لم ترد عن الرسول صلى الله عليه وسلم في سياق توضيح البعد البيولوجي للخلق البشري، بل كان الغرض الأساس منها هو تغيير التقاليد والممارسات الذكورية السائدة لكن بمنهجية قرآنية بيداغوجية وتربوية صرف.

إن الرسول صلى الله عليه وسلم من خلال أفعاله هذه يسعى لأن يعلم صحابته قواعد الآداب واللياقة واللياقة في التعامل مع النساء في المجتمع الإسلامي، كما كان عليه السلام يعمل لتلين الطباع الخسنة للرجال في ذلك الزمان.

فمن الواضح من هذا المنطلق أن كل التأويلات التي تعتمد هذه الأحاديث الاحتجاج والاستدلال على أن المرأة جاء خلقها ثانياً بعد الرجل، وأن مرتبتها بالتالي دون مرتبة الرجل لكونها قد خلقت من ضلعه، لا تسير في اتجاه المعنى الصحيح بل تأخذ منحى يتنافى كلية مع الأحكام الكبرى للذكر القرآني وأحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم أيضاً.

---

الم وما تعلق يداها الخيط، فما يرغب واحد منهما عن صاحبه حتى يموتا هرماً". أخرج الطبراني وابن عساكر في تاريخ دمشق. (المترجم)

<sup>1</sup> - راشد الغنوشي المرأة بين القرآن وواقع المسلمين

إن هذا النوع من الدعاوي والمزاعم يرجع إلى إرث إنساني كبير ظل ينظر بدونية وتقيص لمكانة المرأة في المجتمع. وهذا الإرث متجدر وراسخ ويبحث دوما لنفسه - وما زال وليس في ثقافة واحدة بعينها بل في ثقافات متعددة ومختلفة عن أدلة وحجج ببر بها منطق الاضطهاد والإخضاع الذي يريد أن تعيشه المرأة على الدوام.

ويعتبر الإمام الرازي العالم والمفسر المعروف أن القرآن من خلال بعض الآيات من نحو "ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون"<sup>1</sup>. يؤكد على أن النساء خلقن أصلا لتلبية حاجيات الرجال. يقول إن الآية السابقة الذكر تقوم دليلا "على أن النساء خلقن كخلق الدواب والنبات وغير ذلك من المنافع كما قال تعالى خلق لكم في الأرض وهذا يقضي أن لا تكون مخلوقة للعبادة والتكليف فتقول خلق النساء من النعم علينا وخلقهن لنا وتكليفهن لإتمام النعمة علينا لتوجيه التكليف نحوهن مثل توجيهه إلينا ... وأما المعني فلأن المرأة ضعيفة الخلق سخيصة فشابهت الصبي"<sup>2</sup>.

فإذا كانت المرأة قد خلقت من الرجل ولأجله فهذا يؤكد إذن على دونيتها النبوية كما يؤكد على ضرورة خضوعها له على الدوام. إن هذا النوع من الأحكام شكل محورا مطردا يتكرر باستمرار في الخطاب الديني التقليدي، حيث يخلص في النهاية إلى رسم حدود

---

<sup>1</sup> - سورة الروم الآية 21

<sup>2</sup> - الفخر الرازي، مفاتيح الغيب التفسير الكبير، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت لبنان، ط1، 1981 ج 25ص

الإطار الإيديولوجي الذي من خلاله يتم التشريح للمكانة الدونية للمرأة بالاعتماد على هذا النوع من القراءات للنص الكريم.

إنه لمن المؤسف أن نرى إلى أي حد تأثر هؤلاء العلماء تأثراً سلبياً بالسياق السوسيو ثقافي وكذا ببعض التقاليد الدينية القديمة، وراحوا يزكون من خلال تفاسيرهم المتعددة كل الأدبيات التي تنتقص من شأن المرأة ومكانتها وتبرر شتى الوسائل الرأي الذي مفاده أن الإسلام جعل الرجل هو القيم على المرأة. ومن هذا المنطلق نفهم السبب الذي جعل الذين يقدمون الأدلة والحجج الدينية التي تشرح لدونية المرأة بالنسبة للرجل، يعلنون من شأن هذا النوع من المصادر في تفسير الآيات القرآنية، إلى أن صارت هذه التأويلات والتفسيرات مع مر السنين وكأنها جزء لا يتجزأ من النظام العقدي الديني الإسلامي، بل أصبح القرآن نفسه لا يحتل إلا مرتبة ثانوية بالمقارنة مع هذا النظام الدوغمائي.

ومن المعروف عند الجميع أنه حتى في الديانات الأخرى تعتبر المرأة الأولى حواء هي التي كانت وراء خروج آدم الرجل من الجنة، وتكرر هذا الحديث في التقاليد الدينية المختلفة وتداوله الناس حتى صار حقيقة لا مرأى فيها، فرسمت لحواء جراء ذلك صورة قاتمة حملت من خلالها تهمة دفع آدم للسقوط في الخطيئة. وهكذا حبكت أسطورة كاملة مصحوبة بصور مزخرفة ومزركشة للشجرة المحظورة والثعبان وحواء. ومن ثم صارت كل هذه العناصر الثلاثة بمثابة رموز للغواية، وعلامات للهبوط من الجنة، يتوارث الإيمان بها جيل من بعد جيل وكأنها حقائق لا غبار عليها تشكل جزء من المفاهيم والثوابت الدينية الراسخة

والمتجذرة، رغم أنها افتراضات لا أقل ولا أكثر، بل لا وجود لها إطلاقاً ولو بالإشارة أو التلميح في النص القرآني.

ومما يثير الغرابة أيضاً أننا نجد هذه الطروحات والأقويل في العديد من التفاسير الإسلامية التي كتبها مفسرون عظام<sup>1</sup> كالمفسر الكبير القرطبي والمشهور بتفسيره "الجامع الأحكام القرآن" حيث قرر من خلال تفسيره لبعض الآيات القرآنية أن حواء هي من استسلم في البداية لغواية الشيطان فدفعت آدم للخطيئة، ومن ثم صارت هي أول مصدر للغواية بالنسبة للرجل<sup>2</sup>.

والحال أنه لا توجد أي إشارة في القرآن الكريم تهم المرأة الأولى في الإنسانية. فالآيات القرآنية صريحة وواضحة وضوح الشمس، لأنها تحمل المسؤولية لأول زوج (آدم وحواء) في تاريخ الإنسانية وتهمه بالخضوع والاستسلام لغواية إبليس. ولا نجد أبداً في أي آية قرآنية اتهاماً لحواء بمفردها أو آدم لوحده.

---

<sup>1</sup> - يعرض ابن كثير في تفسيره بمجموعة من الأقوال التي ينسبها إلى علماء كبار، وكلها تدل على اعتمادهم على الكتب السماوية السابقة عن النص القرآني، كقصة الحية و إبليس. يمكن الرجوع لابن كثير، تفسير القرآن العظيم، تحقيق سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع الطبعة 2، 1420هـ - 1999 م

<sup>2</sup> - يقول: "دخل الجنة (أي إبليس) في فم الحية وهي ذات أربع كالبعثية من أحسن دابة خلقها الله تعالى بعد أن عرض نفسه على كثير من الحيوان فلم يدخله إلا الحية، فلما دخلت به الجنة خرج من جوفها إبليس فأخذ من الشجرة التي في الله آدم وزوجه عنها فجاء بما إلى حواء فقال: انظري إلى هذه الشجرة، ما أطيب ريحها وأطيب طعمها وأحسن لونها فلم يزل يغويها حتى أخذتهما حواء فأكلتهما. ثم أغوى آدم، وقالت له حواء: كل فإني قد أكلت فلم يضرني، فأكل منها فبدت شما سواتهما وحصلا في حكم الذنب، فدخل آدم في جوف الشجرة، فناداه ربه: أين أنت؟ فقال: أنا هذا يا رب، قال: ألا تخرج؟ قال أستحي منك يا رب، قال: اهبط إلى الأرض التي خلقت منهاج 24 ص..

"وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغدا حيث شئتما ولا تقريا هذه

الشجرة فتكونا من الظالمين"<sup>1</sup>.

إنهما معا عصيا أمر ربهما وأكلا من الشجرة فأزلهما الشيطان واستسلما لغوايته.

"فأزلهما الشيطان عنها أخرجهما مما كانا فيه وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في

الأرض مستقر ومتاع إلى حين"<sup>2</sup>.

بالإضافة إلى ذلك فإن القرآن يصف لنا كيف أن آدم وحواء ما ندما على عصيانهما

للأمر الإلهي وذعرا عندما أخرجوا من الجنة فتضرعا إلى الله راجين العفو والمغفرة.

إن هذه المعصية التي تعتبر رمزا للخطيئة البشرية الأولى غفرها الله لهما تماما.

ومفهوم الغفران هذا من المفاهيم المفاتيح في الإسلام، حيث إن إعادة تأهيل الكائن البشري

تكون كاملة ومتواصلة ومقبولة من الله عز وجل. ومن ثم لم يبق أي أثر للمعصية الأولى

والأصلية والتي ناءت مجملها أثقال البشرية، أو الخطيئة التي اعتبرتھا التقاليد المسيحية لا

يمكن أبدا أن تصحح أو تصلح. إن المنظور الإسلامي يرى أن الشجرة الممنوعة في الجنة

هي رمز منقل بالمعاني. إنها رمز للاختيار والامتحان بالنسبة للزوج البشري الأول آدم

وحواء . وأمام تبصرهما ونظرهما الثابت وندا منهما الشديدة غفر الله لهما ما اقترفاه معا من

ذنب...

---

<sup>1</sup> - سورة البقرة الآية 35.

<sup>2</sup> - سورة البقرة، الآية 36.

ومن هنا أصبح نوع من الصلة بين الله عز وجل والكائنات البشرية الأخرى، وصارت هناك علاقة مترسخة بواسطة هذا الزوج الأول الذي عرفته البشرية ... فلم يبق أي ذنب أصلا بل أصبح هناك ميثاق أصيل بين الله وعباده.

إن هذه الخطيئة الأولى بالنسبة للدين الإسلامي الحنيف لم تصر قدرا مقدرا على البشرية لصيقة بهم أبد الأبدين، حسب ما تؤكد التقاليد الدينية غير الإسلامية الأخرى، فالله تعالى يقول في كتابه العزيز: "... ولا تكسب كل نفس إلا عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى"<sup>1</sup>. فليس هناك أي مفهوم للخطيئة بالمعنى المسيحي وليس هناك أيضا أي معنى للعقاب الإلهي الأبدي وما يوازيه من أمور ومفاهيم من نحو الذنب والمعاناة والخلاص.

إن تاريخ آدم وحواء كما يقدم في الإنجيل وفي الكتابات الدينية الأخرى المرتبطة به، بعيد كل البعد عن ما تنص عليه آيات النص القرآني.

وبالفعل فإن القرآن بنصه على قصة الخلق بالنسبة للكائنات البشرية الأولى آدم وحواء صور ما يمكن أن نعتبره التجربة الإنسانية المشتركة الأولى، حيث كان آدم وحواء المخلوقان الأولان رمزا لها. إن الله أولا شرف الجنس البشري عندما جعله خليفة له في الأرض وعلمه الأسماء كلها. وبعد ذلك ارتفع قدرهما داخل طبقة الكائنات العالمة أي مع الذين علمهم الله من علمه فتبوء بذلك مكانة جعلت الملائكة الكتل يخرون لهم سجدا.

---

<sup>1</sup> - سورة الأنعام، الآية 164.

لقد خر الملائكة سجدا لهذا المخلوق البشري لأن الله تعالى علمه الأسماء، وآتاه العلم الذي يمثل أساس الخلق... إن البشر أعلى درجة من الملائكة رغم كمالهم وعصمتهم بسبب العقل والذكاء اللذين جعلهما الله خصيصتين من خصائص الكائن البشري.

إن سجود الملائكة أمام الكائن البشري استيحاء للإنسانية في جلالها على حد ما عبر عنه المفكر الإيراني الكبير علي شريعتي<sup>1</sup>.

إن هذين الكائنين اللذين خلقهما الله عز وجل عاشا في الجنة أول امتحان للبشر وذلك عندما عصيا الأمر الإلهي بسبب ضعفهما ونقصهما أو بعبارة أخرى بسبب بشريتهما القائمة على هذين الصفتين الضعف والنقصان.

لقد كان هذا الامتحان بمثابة التجربة البشرية الأولى في الحرية...

لقد كانت هذه المعصية صورة للشك البشري الأول أو الشك الأول، والدرس الأول للتواضع أيضا... فرغم أنه خير من الملائكة الذين خروا له سجدا أمام العلم الذي آتاه الله إياه لم يصل إلى درجة الكمال والعصمة.

إن القرآن يقدم لنا صورة جميلة عن التجربة الإنسانية في الحياة العامة المشتركة. إن الزوج البشري الأول آدم وحواء سيعيشان معا هذا الامتحان الأول بشكل تام. إن الرجل الأول والمرأة الأولى سيرتبطان ما وبصورة تامة وسيواجهان معا امتحان الحياة. إن القرآن وبصورة متناسقة ومتسقة يعيد رسم خوفهما وفرحهما ومعصيتهما وأمالهما دون أن يميز أحدهما عن

---

<sup>1</sup> –Ali Shariati, Man's credtion from the islamic viewpoint. Voir le site: [www.shariati.net](http://www.shariati.net)

الآخر، أو حتى أن يحط من قدر الواحد منهما بالمقارنة مع الآخر. فهما معا ارتكبا المعصية  
وهما معا ندما شديدا، وهما معا استأنفا حياة جديدة وسارا في درب قدر جديد.

إنه مثال رائع للامتحان الإلهي والصبر والندم والحسرة والأمل في المغفرة حيث يكون

الرجوع إلى الله دائما هو المحرر.

إنها قصة من التجربة الإنسانية التي تجمع بين الخلود والتجدد الذي لا ينتهي.



الجزء الأول : عندما يتكلم القرآن عن النساء

## قصة كل النساء...

يعرض النص القرآني كثيرا وفي مناسبات متعددة، عند حديثه عن مراحل تاريخ الإنسانية شخصيات من النساء والرجال. والهدف من هذا العرض هو جعلهم دائما أمثلة حية يقتدي بها المؤمنون ويحذون حذوها.

ويكون هؤلاء الرجال والنساء مرة نماذج للفضيلة التي يجب تأملها واتباعها ومرة نماذج رديئة وسيئة تحتاج إلى أن تعرف من أجل معرفة كيفية تجنبها.

فهناك شخصيات ما من شك أنها تقدم أحيانا في صورة مثالية، لكنها لم تفصل أبدا عن طابعها الإنساني لأن الله تعالى عند ما يعرض الشخصيات من خلال الرسالة القرائية هذه، يعرضها ليس بهدف التسلية بل من أجل أخذ العبرة ومعرفة الطريق الذي يجب سلوكه

...

فكل امرأة وكل رجل ذكر في القرآن له قصة خاصة، وامتحان روحي خاص ومسار خاص يميز بعضهم عن البعض الآخر. إن الله بذلك يريد أن يبين أنا جميعا كيفما كان عددنا يمكن أن نجد أنفسنا في يوم من الأيام نسلك طريقا مثل الطريق التي سلكها من قبل هؤلاء الشخصيات.

إن صراعاتهم وابتلاءاتهم وهزائمهم وانتصاراتهم هي نوعا ما، صراعاتنا وابتلاءاتنا وهزائمنا وانتصاراتنا، متى أحسنا قراءتها وأحسنا فهمها وتأويلها وأحسنا ترجمتها إلى لغة الحياة والمعيش اليومي...

وكيفما كان السياق، والمكان أو المرحلة فإن هذه الكائنات التي اختارها الله تعالى في هذا الإطار هي علامات تستوقفنا على طول الكتاب العزيز، حتى نستطيع أن تأخذ طريقنا في هذه الحياة ببسر وصبر لكي نصل إلى نور الله دون شك... آدم ونوح وإبراهيم ويوسف وموسى وعيسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام ... ولكن أيضا أسية وسارة وأم موسى ومريم وبلقيس وأخريات كثيرات حيث إن أسماءهن أهملت أحيانا عن قصد لأن النموذج والمثال لا يقف فقط عند حد الاسم بل يكمن في الطريق والسلوك الأخلاقي، كما يكمن أيضا في المثال . وباعتبار أن كل هؤلاء مؤمنين ومؤمنات فهم جميعا نماذج خالدة لنا من أجل أن نعطي باحتذائنا لهم من جديد معنى لتاريخنا وحاضرنا...

إن الله تعالى من خلال قصصهم الخاصة يستنفر ذكاءنا وعقلنا وبصيرتنا وقدرتنا على التمييز بوصفنا بشرا اتاه العقل والعلم.

"لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب ما كان حديثا يفترى ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل كل شيء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون"<sup>1</sup>.

ومن المهم جدا أن نسجل في هذا الإطار أنه في قصص كبار الأنبياء الذين عرفتهم الإنسانية نجد حضورا خاصا وأساسيا للمرأة، بوصفها أما لعبت دورا كبيرا في مسار حياة هؤلاء الأنبياء.

وبالفعل فإسماعيل وموسى وعيسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام كانوا جميعا تحت رعاية وحماية خاصتين من طرف أمهاتهم، ولا تذكر لنا هذه القصص إلا في القليل النادر

---

<sup>1</sup> - سورة يوسف ، الآية 111.

دورا للأب قد يضاهي ما قامت به الأم إذ غالبا ما يكون الأب إما غائبا أو غير موجود تماما كما هي الحال مع عيسى عليه السلام. إن هناك نساء - بالإضافة إلى الدور الذي قمن به من خلال أمومتهم الطبيعية صاحين وحمين رسل الله في الأرض. إننا ندرك إذن من خلال تاريخ هؤلاء الرسل التفوق الكبير الذي أبانت عنه هؤلاء النساء الأمهات في التربية والحماية ونشر الرسالة. نساء كن بالفعل وسائط لنشر الرسائل الدينية.

ومن يمكنه أن ينكر القدرة والكفاءة النسائية العالية في المكابدة والصبر والجلد وتحمل كل ضغوط الوحي واثاره. إن تأثيرها ودورها في إنجاح دعوة الرسالة الإلهية ونشرها أيضا حقيقة بديهية لا مرأء فيها، يتكرر ذكرها باستمرار في النص القرآني الكريم.

وبعيدا عن حصر مهمة المرأة - كما يفعل البعض - في دور الأمومة الذي تقوم به بشكل طبيعي، نلاحظ أن القرآن الكريم يسلط الضوء على جوانب أخرى في حياة المرأة، فيقدم لنا نماذج لنساء كانت مسارات حياتهن متنوعة ومختلفة، فهناك المرأة الملكة والتي تمثلها بلقيس وزليخة، وهناك المرأة العاطفية المنفعلة، مرورا بالمرأة المنصرفة للعبادة والاعتكاف كمريم العذراء أو المرأة التي تمثل رمزا للتضحية كاسية (زوجة فرعون)...

إن النظرة القرآنية في نهاية المطاف تصوب النظرة التقليدية القائمة على الأعراف والتي لا تعترف بالمرأة ولا تثني عليها، إلا باعتبارها أما أولا وقبل كل شيء وتغض الطرف تماما عن أنوثتها.

ففي كثير من الكتب الإسلامية، لا تعطى القيمة للمرأة إلا من خلال دورها في الأمومة أو من خلال وضعها كأخت أو كزوجة ولم يلتفت لها أبدا بوصفها امرأة فقط... إن هذا المفهوم يبقى غريبا على الثقافة الدينية الإسلامية رغم أن القرآن لا يكف عن تأكيد الأبعاد الأخرى لشخصية المرأة من خلال مختلف أصناف النساء التي تعرض لهن. وكثيرا ما ننسى أنه قبل أن تصير المرأة أما أو أختنا أو زوجة هي امرأة أولا وقبل كل شيء وأن أوثها جزء لا يتجزأ من شخصيتها بوصفها كائنا إنسانيا.

ومن خلال مختلف الشخصيات النسائية التي وصفها الله في القرآن والمتعالية بإنسانيتها المشتركة مع الرجل، نلاحظ أن جهة الأنوثة فيهن هي التي رفعت من شأنهن تصرفاتها وقيمتها وشخصيتها وأيضا بعجزها وضعفها...

وبالفعل حين نتحدث عن الضعف البشري عند النساء، يضرب القرآن مثلا بامراتين اثنتين تمثلان نموذجين سيئين بالمقارنة مع باقي الشخصيات النسائية المذكورة في الكتاب العزيز وكلهن في الواقع نماذج تعلي بوضوح وجلاء من قيمة النوع النسائي. إن النموذجين السيئين هما بالتحديد زوجة النبي نوح والنبي لوط. والذي تحدث عنهما الله تعالى في كتابه الكريم حيث قال: "ضرب الله من للذين كفروا امرات نوح وامرات لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئا وقيل ادخلا النار مع الداخلين"<sup>1</sup>.

ومن المهم أن نلاحظ في هذه الآية أن المظهر السلبي لهذين المرأتين يكمن في خيانتها لزوجيهما ليس على الإطلاق ولكن باعتبارهما مبلغين للرسالة الإلهية. وبالفعل وكما

<sup>1</sup> - سورة التحريم، الآية 10.

ذكر ابن عباس<sup>1</sup> في تفسيره أن الأمر هنا لا يتعلق بالخيانة الزوجية بل بخيانة أخلاقية ... وكل التفاسير القرآنية التقليدية تقرر أن زوجة نوح تشي به إلى الأعداء وتبلغهم كل تفاصيل أفعاله وأعماله الدينية. كما تستهزئ بمعتقداته واصفة إياه بالجنون، أما يخص زوجة لوط فإنها كذلك تزكي الشذوذ الجنسي وتنتقص بل وتحارب القيم الأخلاقية الكريمة التي يسعى زوجها الرسول أن يشبعها وينشرها بين قومه.

وذهب أغلب المفسرين القدماء إلى أن الانتقاد الذي وجه إلى هاتين المرأتين تعلق أساسا بسلوك الخيانة المعنوية وعدم الوفاء لزوجيهما.

إن العلاقة الزوجية التي كانت تجمعهما تفرض عليهما احترام هذا الارتباط وبالتالي تفرض نوعا من الوفاء اتجاه الالتزام الديني لهذين الرسولين اللذين وصفهما الله في القرآن الصالحين. فالزوجتان لم تحترما رسالة العدل والقيم الأخلاقية النبيلة التي حاول كل واحد من هذين الرسولين تبليغها إلى أمته المشتركة. لقد خاننا زوجيهما عندما وشتا بهما إلى الأعداء واستهزأتا بسلوكهما الأخلاقي والديني معا، وهذا سبب كل أوصاف الاتهام والخيانة التي وجهت لهما من طرف الخالق... إن القرآن هنا من خلال تجريمه لهذين المرأتين يجرم الخيانة العظمي، وهي الخيانة الأخلاقية التي تحارب إشاعة ونشر الرسالة الدينية الجديدة والتي تحاول محاربة العادات والتقاليد الفاسقة والماجنة في ذلك الوقت.

وبعض النظر عن هذين النموذجين السلبيين فيما يخص النساء، فإن القرآن أحيا تاريخ نساء أخريات عرفت كل واحدة منهن شخصية ذات طابع خاص ومتميز، وتمسكها

<sup>1</sup> - تفسير ابن عباس سورة التحريم، دار الكتاب العلمية 2000 بيروت ص 605.

الدائم إضافة إلى ذلك بدورها الأساس في تغيير و تحويل الأعراف والتقاليد عبر تاريخ الإنسانية الطويل.

وكما تحدث القرآن عن النساء إلا ونجد هناك قصة بكاملها حول الحب والجمال والعقل والحلم الذي يدرك من خلال الكلمات والإشارات والصمت أيضا... نعم الصمت الآن علينا في الواقع أن نعرف الكيفية التي يجب تقرأ بها ليس فقط ما قيل في القرآن بشكل واضح وصريح، بل كذلك ما هو متضمن فيه وثاو بين المعاني والدلالات التي تمر في صمت... إن هذا الصمت هو الذي يعرف دوما كيف يبقى دالا على القول بامتياز، لأنه من الناحية الرمزية موح للغاية.

## بلقيس، ملكة سبأ ملكة ديمقراطية

إن الذي يقرأ القرآن ويقف عند آيات سورة النحل يتساءل لماذا ضرب الله المثل بملكة سبأ ، هذه الشخصية النسائية التي أطلق عليها المؤرخون اسم بلقيس<sup>1</sup> وذكروا أنها حكمت مملكة سبأ التي توجد في بلاد اليمن. كان أهل هذا البلد وملكتهم يعبدون الأوثان. وتخبرنا كتب التاريخ أن الملكة بلقيس كانت تعيش في قصر كبير يتوفر على ستين وثلاثمائة نافذة تدخل منها أشعة الشمس وتغطي القصر كله. وتضيف معلومة أخرى مفادها أن هذه الملكة كانت تخر ساجدة كل صباح لنور الشمس<sup>2</sup>.

وفي يوم من الأيام بلغت الملكة بلقيس كتابا من سليمان النبي والملك في الآن ذاته، أعلمها فيه بأن تسلم الخالق هذا الكون. إن المفيد في هذه القصة التي حكاها القرآن هو الوصف الذي أعطاه لهذه المرأة. ففي الوقت الذي نجد فيه أن معظم الملوك والحكام الذين ذكرهم الله في القرآن طغاة جبابرة من أمثال فرعون ونيرون وغيرهما<sup>3</sup>. فإن نموذج العاهلة

---

<sup>1</sup> - لم يشر القرآن في أي سورة من سوره إلى اسم بلقيس.

<sup>2</sup> - محمد الشياظمي، القرآن العزيز، الترجمة الفرنسية الجديدة لمعاني الآيات، منشورات التوحيد 2004 (بالفرنسية). ومعظم الآيات التي ذكرها المؤلفة اعتمدت في ترجمتها إلى الفرنسية على هذا الكتاب.

<sup>3</sup> - نيرون أو نيرو (37 - 68) خامس أو آخر إمبراطور روماني، بدأ حكمه بمجموعة من الإصلاحات بإيعاز من أستاذه الفيلسوف سينيكا Seneca غير أن صغر سنه الذي لم يتجاوز آنذاك السادسة عشرة جعل حكمه ينقلب إلى كابوس مخيف، حيث انصرف الشاب الامبراطور إلى اللهو والمجون. وفي عصره كثرت المؤامرات والدسائس والاغتيالات السياسية التي كانت له يد طولى في تدبيرها. وكانت أمه أجر يبيينا إحدى ضحاياه ومن ضحاياه أيضا (أوكتافيا) زوجته الأولى، وأيضاً قتل معلمه سينيكا، أما أشهر جرائمه على الإطلاق فكان حريق روما الشهير سنة 64 م الذي التهمت النيران فيه عشرة أحياء من جملة أحياء المدينة الأربعة عشر، كما هلك فيه الآلاف من سكان روما. وبينما النيران تتصاعد والأجساد تحترق في وسط صراخ الضحايا كان نيرون جالسا في برج عال يتسلى بمنظر الحريق ويديه آلة موسيقية يفني أشعار هوميروس التي يصف فيها حريق طروادة .



بلقيس هو نموذج المرأة الملكة لكنها ملكة عادلة وحكيمة. لقد رسم لها القرآن صورة الحاكمة التي تتحرى كثيرا فيما يخص المبادئ السياسية المتعلقة بالإنصاف والعدل. والآيات القرآنية تبرز بوضوح جلي، الطريقة التي كانت تدير بها هذه المرأة الشهيرة شؤون الحكم.

ما إن تلقت الملكة بلقيس كتاب الملك سليمان حتى عقدت على الفور مجلسا يضم كبار قومها لتعلمهم بمضمون ما جاء في رسالة سليمان وتطلب منهم التفكير سويا من أجل اتخاذ القرار السياسي المناسب. وهذا على حد ما جاء في القرآن الكريم "قالت يا أيها الملؤأ أفتوني في أمري ما كنت قاطعة أمرا حتى تشهدون"<sup>1</sup>.

امرأة حاكمة تتربع على عرش أغنى مملكة في ذلك الوقت وتجتمع مع منتخبي شعبها من أجل المشورة، وقد رد عليها هؤلاء المنتخبون بأن القرار النهائي يرجع إليها وحدها، وهم على أتم الاستعداد لما تأمر به وما عليها إلا أن تعول على قوتهم في العدة والعتاد.

"قالوا نحن أولوا وتر أولوا بأس شديد والأمر إليك فانظري ماذا ترين"<sup>2</sup>.

وقد شرح المفسر الكبير جار الله الزمخشري في تفسيره الكشاف<sup>3</sup> كيف أن المنتخبين الذين طلبت منهم الملكة بلقيس المشورة، وتركت لهم حرية اختيار القرار النهائي، بينوا لها موقفهم الذي يتلخص في أنهم يعتبرون أنفسهم أولو قوة وبأس شديد لا يخشون القتال

---

<sup>1</sup> - سورة النمل الآية، 32.

<sup>2</sup> - سورة النمل الآية، 33.

<sup>3</sup> - قول الزمخشري في تفسيره لهذه الآية: "أرادوا بالقوة: قوة الأجساد وقوة الآلات والعدد. و بالأس: النجدة والبلاء في الحرب والأمر إليك أي هو موكل إليك ونحن مطيعون لك فمرينا بأمرك نطعك ولا تخالفك كأنهم أشاروا عليها بالقتال، أو أرادوا: نحن من أبناء الحرب لا من أبناء الرأي والمشورة وأنت ذات الرأي والتدبير فانظري ماذا ترين: نتبع رأيك" الكشاف، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ج3، ص375.

والحرب مع العدو وأنهم قادرون على مواجهة جيش سليمان. ومع ذلك لم تسر بلقيس في هذا الاتجاه ولم توافق على الرأي القائل بالمواجهة والحرب، واقتрحت عليهم أن تكون الخطوة الأولى خطوة سلمية تتمثل في إرسال هدية تستهدف من ورائها اختبار ردة فعل النبي سليمان ومعرفة نواياه الحقيقية.

هذا القرار السياسي الرزين الذي يبين الحكمة الكبيرة التي كانت تتمتع بها هذه الملكة. وهي الحكمة نفسها التي نستشفها من خلال الملاحظة القيمة التي أوردتها في السياق ذاته أثناء حديثها عن طغيان الملوك واستبدادهم... والطريف في ملاحظة بلقيس أنها نفسها ملكة، قد يجري عليه ما يجري على غيرها من الملوك، لكنها عبرت برأيها عن حرصها الشديد على تجنب كل ما من شأنه أن يجعلها تواجه سلطة أوتوقراطية وما سيصاحب ذلك عادة من تسلط وإذلال.

"قالت إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون، وإني مرسله إليهم بهدية فناظرة بم يرجع المرسلون"<sup>1</sup>.

إن القراءة المتأنية لهذه الآيات تبين لنا إلى أي حد كان قرار هذه الملكة مؤسسا تأسيسا سياسيا في الجوهر. إن الرسالة السياسية التي كانت تريد إرسالها هنا واضحة وضوحا كبيرا. فالملكة من خلال تصرفها هذا نقدم، نقدا لاذعا لكل أشكال الاستبداد والطغيان التي عرفها تاريخ البشرية، مع ما يصاحب ذلك من أنواع الذل والهوان التي تسام

---

<sup>1</sup> - سورة النمل الآيتان، 35-36.

بها الشعوب والتي كما نقول قد تصل إلى درجة يفقدون معها كرامتهم الإنسانية تحت ظل حكم السلطة السياسية المستبدة.

وفضلا عن ذلك، فإن التحليل السياسي الذي قدمته بلقيس، يتميز براهنية لا تصور بالنسبة للذي يراقب الإدارة السياسية الممارسة في أرض الإسلام والتي يطبعها الدمار والتهور. كما أن هذا التحليل السياسي بين بجلاء، إذا كان الأمر يحتاج إلى بيان، تأكيد الرسالة القرآنية على ضرورة نشر العدل والإنصاف. إن هذه الضرورة تمثل دون ريب حجر الزاوية لنسق القيم الأخلاقية والشرعية للدين الإسلامي. فابن عباس الشخصية المعروفة بوصفها أول من عرف بالتفسير في العصر الإسلامي، حتى لقب بترجمان القرآن<sup>1</sup>، يقول بخصوص الآية التي جاءت على لسان بلقيس في معرض حديثها عن الملوك وكذلك يفعلون أن الله تعالى هو الذي أجاب على تعليق بلقيس هذا، حيث أكد على تحليلها ورؤيتها الاستشرافية، فيما يتعلق بطغيان وجور النظام السياسي الديكتاتوري. هل هناك ما ترى شهادة أكثر دلالة من هاته يمكن أن نضيفها لتجسيد حكمة وبعد نظر هذه المرأة من الناحية السياسية.

---

<sup>1</sup> - أبو العباس عبد الله ، ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم. كان يعتبر رضي الله عنه إماما في التفسير . وهو من دعا له النبي صلى الله عليه وسلم، بقوله: "اللهم علمه التأويل وفقهه في الدين. وروى الفسوي في تاريخه بإسناد صحيح عن ابن مسعود، رضي الله عنه أنه كان يقول: (نعم ترجمان القرآن ابن عباس). يقول في تفسيره "جاءت الملكة بلقيس إلى سليمان عليه السلام، يتسحبها عظماء اليمن، منقادين طائعين، ثم دخلت بعد ذلك بلقيس في دين الإسلام بعد ما شاهدت ملك سليمان عليه السلام الذي لا يمكن أن يكون إلا بتأييد من الله جل وعلا وتسخير منه فعلت أن سليمان عليه السلام نبي وليس ملكا فقط. تفسير ابن عباس و مروياته في التفسير من كتب السنة، تحقيق عبد العزيز بن عبد اللد الحميدي، منشورات مركز البحث العسي في التراث الإسلامي، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، مكة المكرمة الكتاب الثالث والخمسون، ص 696-697.

لقد أبانت بلقيس عن حكمة وحنكة سياسية، كما برهنت على ذكاء حاد، إذ من خلال إرسالها المبعوث إلى سليمان، عملت على إيجاد الآراء المتسعة لمستشاريها من أجل تجنب حرب لا طائل تحتها كما أعطت لنفسها في الوقت ذاته مهلة للتفكير تمكنها دون شك في دراسة شخصية هذا الملك.

لقد أرادت بلقيس أن تستخبر سليمان و تقرا المعاني الكامنة وراء رسالته التي تدعوها إلى السجود لله الواحد الأحد. فإذا قبل هذا الملك هديتها فإن الغرض من دعوته الاحتلال والاستيلاء على مملكته لا غير، أما إذا رفض فإن ما يحرك سليمان شيء آخر أعمق من المادة والسلطان وهذا الشيء ذو طبيعة روحية... إنها استراتيجية دبلوماسية دقيقة من طرف بلقيس.

لقد رأى السيد قطب في شخصية هذه الملكة شخصية المرأة بكل ما تحمله الكلمة من معنى المرأة التي من بطبيعتها وحدها الطبيعي ترفض الحروب والصراعات وتفضل السلام والحوار<sup>1</sup>. ألم يقل أن المرأة تجسد جزءا صغيرا من الرحمة اللامتناهية لله تعالى على الأرض؟ إن هذه الخاصية التي يراها البعض علامة على الضعف عند النساء يقدمها القرآن الكريم عكس ذلك ويجعلها رمزا للذكاء وقوة أخلاقية كبيرة عند هذه المرأة الملكة. هذه العاهلة التي تحكم سياسة يطبعها العقل وتغلب عليها الحكمة مع الاحتفاظ دائما بإنسانية المرأة

---

<sup>1</sup> - سيد قطب، في ظلال القرآن سورة النمل. ليس من الضروري أن نشير هنا إلى ملاحظة هامة مفادها أن مجلس المرأة ليس على شاكلة واحدة دائما وبالخصوص فيما يتعلق بر كونا إلى السلم والرفقة حيث يمكن أن نضر به مثلا بامرأتين اثنتين في عصرنا الحاضر عرفتا بشد مما وصلابتهما، الأولى هي الوزيرة الأولى السابقة لبريطانيا والتي يطلق عليها المرأة الحديدية ماركريت تاتشر والثانية وزيرة الخارجية الأمريكية السابقة كونداليزا رايس التي كانت من المدافعين على ما يسمى بالحروب الاستباقية .

باعتبار هذه الإنسانية موهبة حباها الله بها، فكأنها تعطي شكل من الأشكال لكل حركاتها السياسية طابع الإنسانية وذلك عن طريق خاصيتها النسائية التي تجعلها أكثر قربا من الواقع الإنساني اليومي.

إن الوصف الذي يقدمه القرآن لهذه المرأة التي تدير شؤون مملكة بكاملها، يقوم دليلا قاطعا ضد كل من قد يزعم أن النساء تغلب عليهن العاطفة أو من يدعي أنهن ناقصات عقل تعوزهن الحكمة مستدلين على أن الجانب العاطفي في شخصيتهن يغلب على الجوانب الأخرى، وينتج عن هذا المنطق أن المرأة لا يمكنها أن تحكم وتدير الشؤون السياسية لشعب من الشعوب، وهذا هو التفسير الذي نجده في خطاب الغالبية العظمى من العلماء المسلمين على اختلاف أزمتهم وعهودهم.

إن المرأة قد تكون حساسة جدا وعاطفية للغاية، وقد يؤثر عليها الجانب العاطفي كثيرا إلى حد أن تصبح معه غير قادرة على استعمال العقل، وهذا كله يتنافى مع ما يفترض فيمن يقوم بتدبير شؤون الدولة والذي لا مكان عنده للعواطف والأحاسيس وإنما الأولوية للعقل فوق كل شيء.

والحال أن الذين يعرضون هذا النوع من الحجج يفترضون أن المرأة تحمد عقلها أقل من الرجل، وأنها حتى عندما تعتمد العقل تجعله تابعا لأحاسيسها وعواطفها. وهذا الكلام قد يعني أنها أقل بشرية. إننا إذا أردنا أن نميز الكائن البشري عن باقي المخلوقات الأرضية الأخرى، فسنجد أن العقل: هذه القدرة البشرية الأساسية، هي التي تميز الإنسان عن باقي ما

خلقه الله تعالى من كائنات. إن العقل هو الذي مكن الكائن البشري من أن يحتل المكانة الخاصة والتميزة بين باقي الكائنات وذلك بسبب ملكاته في الحكم والبصر.

إننا عندما نفترض في المرأة قصورا في هذا المجال فإننا - ببساطة - نسليها جزءا من عقلها وبالتالي من بشريتها.

لقد كانت الأدبيات الإسلامية توافق على هذا النوع من الأطروحات اتجاه المرأة كما كان إقرارها من الناحية الدينية يتم بسهولة كبيرة نتيجة لما كان يسود في المجتمع الإسلامي من تقاليد وعادات تغذي المخيال الشعبي وترسخ فكرة علو مكانة الرجل بغض النظر عن سياق ومحيط المجتمع. وفيما يخص الشؤون السياسية والحكم اعتبر الرجل دائما أكثر قوة وعقلانية وأقل تأثرا بالعواطف والمشاعر، وبالتالي فهو أولى من المرأة في تدبير شؤون الدولة. ويجب أن نسجل مع ذلك أن هذا النوع من المسلمات لا يقتصر على الشعوب الإسلامية فحسب، إننا نجده في كل المجتمعات حتى تلك التي تعتبر أكثر تقدما ورقيا. ففي فرنسا<sup>1</sup> مثلا بلد حقوق الإنسان ووكر الثقافة النسائية، يتألف برلمانها من 89 % من الرجال، وما زال نضال النساء من أجل المساواة في الحقوق السياسية يشق طريقه الطويلة.

ومع ذلك يبقى صحيحا أنه في سياقنا الاجتماعي الإسلامي تلاحظ أن المرأة في الغالب الأعم لا يمكنها أن تحتل مناصب المسؤولية السياسية، وغالبا ما يغلف هذا المنع

---

<sup>1</sup> - الموقع الإلكتروني للبرلمان الفرنسي حيث نجد في 2006، اثنتين وخمسمائة رجل وخمسة وسبعون امرأة. ويمكن الاطار في هذا الصدد على:

Régine saint-Criq et Nathalie Prévost, Vol au-dessus d'un nid de machos, Albin Michel, 1993, Paris.

حيث يتحدث المؤلف عن إخفاق النساء في الوصول إلى مناصب القرار في المشهد السياسي الفرنسي.

باسم الإسلام ... كما أنه ما يبعث على الاستغراب أن نرى كيف أن هذا المنع الذي يحرم المرأة من أن تحتل مكانة عالية في دواليب الحكم السياسي يسند عند أصحابه على الشريعة الإسلامية، وذلك بواسطة حديث نبوي شريف أصبح بمثابة معيار أو بالأحرى سيف ديموقليس يسلط على الرؤوس كلما طرحت قضية المشاركة السياسية للمرأة في بلاد الإسلام. ويوجد بالفعل في السنة النبوية حديث عن أبي بكر رواه البخاري والترمذي والنسائي حمد يقول: "لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة"<sup>1</sup>.

فمن جهة لا بد أن نسجل أن السياق الذي ذكر في إطاره هذا الحديث غالباً ما لا يؤخذ بعين الاعتبار وهو ما يجعل دلالاته ناقصة ومبتورة... لقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم هذا الحديث عندما تلقى خبر وفاة كسرى الثاني ملك الفرس العدو اللدود للمسلمين، وسمع أن ابنته هي التي خلفته في ولاية الأمر واعتلت سدة الحكم في بلاد فارس... ولقد كان الإمبراطور الفارسي في ذلك الوقت تحت قبضة تعليمات العائلة المالكة المعروفة بجبروتها ومكرها. لقد أراد الرسول صلى الله عليه وسلم بهذا الحديث انتقاد بنت كسرى لأنها أعلنت حالة الحرب بين الشعبين وكذا النظام السياسي الأوتوقراطي الذي يعيث فساداً بين ممتلكاتها ولم يقصد انتقادها بوصفها امرأة ليس إلا. يمكن في هذا المستوى أن نطرح المشكلة بصيغة أخرى: هل كان الرسول صلى الله عليه وسلم سيبارك لو أن ابن كسرى وليس ابنته هو الذي اعتلى عرش بلاد فارس وخلف أباه في الحكم. بالطبع سيكون الجواب

---

<sup>1</sup> - روى البخاري - بإسناده - عن أبي بكر رضي الله عنه قال: لقد نفعني الله بكلمة سمعتها من رسول الله صلى الله عليه وسلم - أيام الحمل بعد ما كدت أن ألحق بأصحاب الجمل فأقاتل معهم - قال: لما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أهل فارس قد ملكوا عليهم بنت كسرى قال: "لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة".

لا. إن الرسول صلى الله عليه وسلم انتقد طبيعة الحكم والنظام السياسي برمته في الإمبراطورية الفارسية لذلك الوقت. ومع ذلك فإننا نجد للأسف مجموعة من القراءات الدينية المعادية للمرأة تعتمد هذا الحديث النبوي الشريف دليلاً على ضرورة عدم تبوأ المرأة للمناصب السياسية العليا وتجعل الرجل دون غيره من يمكن تحملها والقيام بها على الوجه المطلوب.

ومن المفيد أن نذكر هنا أن أبو بكر<sup>1</sup> من أحد رواة الحديث ذكر هذا الحديث أول مرة في سياق تاريخي مختلف تماماً عن السياق الذي قيل فيه الحديث من طرف رسول الله. وبالفعل فإن تاريخ الأثر (السنة النبوية) يحكي أن أبو بكر ذكر هذا الحديث في معركة الجمل الشهيرة والتي حارب فيها أنصار عائشة رضي الله عنها أنصار علي بن أبي طالب كرم الله وجهه<sup>2</sup>. وقد رفض أبو بكر الذي كان ضمن مناصري عائشة رضي الله عنها، المشاركة في وقعة الجمل بدعوى أن من يتولى الأمر فيها امرأة. لقد ربط أبو بكر بين هذا الحديث الذي سمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين معارضة عائشة رضي الله عنها لعلي بن أبي طالب كرم الله وجهه، والتي مع الأسف تحولت إلى مأساة على حد ما تروي لنا كتب التاريخ<sup>3</sup>.

---

<sup>1</sup> - أبو بكر صحابي جليل، واسمه نفيح بن الحارث أو نفيح بن مسروح رضي الله عنه، وهو من رواة الحديث.  
<sup>2</sup> - أسماء أحد زيادة، دور المرأة السياسي في عهد النبي والخلفاء الراشدين، منشورات دار السلام، 2001 ص 485، وهذا العمل في الأصل أطروحة جامعية تقدمت به صاحبتة لنيل شهادة الدكتوراه من جامعة القاهرة.  
<sup>3</sup> - للاطلاع بمزيد من التفصيل يمكن الرجوع إلى كتابنا:

Aicha épouse du prophète ou l'islam au féminin, éditions Tawhid.



فبتأويله لهذا الحديث تأويلا حرفيا، حرم المشاركة في أي حركة تقودها امرأة، ولو تملق الأمر بأمناء عائشة رضي الله عنها، والتي كان يكن لها تقديرا كبيرا حسب ما تذكره بعض المصادر الإسلامية<sup>1</sup>.

ومن المفيد أن نشير في هذا الصدد أن هذه التبريرات التي وضعها أبو بكر اعتمادا على الحديث الآنف الذكر، لا نجدتها عند أي من الصحابة في ذلك الوقت، فرغم أنهم لم يشاركوا عائشة في وقعة الجمل فإن أسبابهم كانت مختلفة عن التبريرات التي قدمها أبو بكر ولا علاقة لها بالحديث المذكور بتاتا.

ففي الوقت الذي انتقد فيه الرسول صلى الله عليه وسلم من خلال حديثه هذا، كل أشكال الحكم الكلي المتجبر، فهم أبو بكر كغيره من العلماء الذين جاؤوا بعده، أن الحكم هنا يخص النساء فقط، وبموجبه تم منعها من أي مشاركة سياسية.

ولقد انتهى الأمر بالنسبة للأجيال التي جاءت من بعد، على جعل هذا الحديث ضمن الحجج التي تقدم في سياق منع النساء من المشاركة السياسية، رغم أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يدع إلى أي شيء من هذا، لأنه عندما قال هذا الحديث قاله في إطار وصف الحالة التي كانت عليها الامبراطورية الفارسية لا غير، لكن للأسف أخرج الحديث عن سياقه

---

<sup>1</sup> - يمكن الاطلاع على كل ما كتب عن أبي بكر بالرجوع إلى كتاب الهيتمي، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، الجزء الخامس ص 209.

الحقيقي الذي انتج فيه، وأصبح يستعمل في التدليل على منع المرأة من أي مشاركة سياسية<sup>1</sup>.

ومن جهة أخرى، هناك طرح آخر يقدمه بعض المفكرين المعاصرين، مفاده أن هذا الحديث من أحاديث الآحاد، أي من الأحاديث التي رواها راو فقط، وبالتالي لا يمكن من الناحية المنطقية أن يعتمد وحده مصدرا من مصادر التشريع<sup>2</sup>.

لقد عرف تأويل هذا الحديث مسارا جعله يرتبط ارتباطا وثيقا بكل المبررات التي أصبحت تقدم فيما يخص الضعف البنيوي للنساء، فمنعت تبعا لذلك من طرف العلماء القدماء من الاضطلاع بأي مسؤولية سياسية، بدعوى أن ضعفها البنيوي - حسب تقديرهم سيجعلها في وضعية العاجز من الناحية الأخلاقية والفكرية على تدبير شؤون الدولة. إن اعتبار النساء ضعيفات من حيث تكوينهن الجسدي ونزوعهن البيولوجي إلى الرقة والعاطفة يجعل منهن في أغلب الأحيان غير عاقلات تماما . إنهم يخلطون هنا بين كون المرأة مهياة أكثر للتأثر بكل ما هو عاطفي، وبين قدرتها الفكرية. والحال أن هناك فرقا كبيرا، بين أن نقول إن المرأة لها ميل خاص للأحاسيس والعواطف - وليس في ذلك أدنى عيب وبين القول إن الشعور بهذه الأحاسيس بشكل عائقا أمامها . إذ من التناقض أن تصور مثلا امرأة مختصة في جراحة الأعصاب تدخل إلى غرفة العمليات كل صباح وتشرف على عمليات

---

<sup>1</sup> - كما يمكن للمزيد من التفصيل الرجوع لكتاب، فاطمة المرنيسي بعنوان:

Le Harem politique ; le prophète et les femmes, chap. Enquête sur un hadithi misogyne et sur son auteur Aboubakra, Albin Michel, 1987, Paris.

<sup>2</sup> Heba raouf Izzat, article in Women and the intepretation of islamic sources, www.cresccntlife.com

جراحية شديدة التعقيد لاستئصال الأورام من المخ عند الرجال، تمتع في الآن ذاته من المشاركة السياسية بدعوى أنها غير قادرة على التحكم في نفسها حيال العاطفة، فكيف يا ترى تملك نفسها وحي في قاعة العمليات الجراحية ولا تتحكم في نفسها وهي في المشهد السياسي.

فكل التبريرات التي يقدمها هؤلاء بالإضافة إلى كونها خاطئة ومضلة تعاني في الوقت ذاته من تناقضات صارخة مع المبادئ الكبرى للقرآن الكريم. فلا نجد في القرآن أي شيء يؤكد أي نوع من أنواع الضعف عند النساء، ولم يثبت عنه أنه اعتبر الرجال مؤهلون عقليا أكثر من النساء اللواتي تنقصهن العقلانية . فلن تجد ما يفيد ذلك في أي مكان في القرآن ... إن القرآن بخلاف ذلك شبت الضعف للكائن البشري عموما : "وخلق الإنسان ضعيفا"<sup>1</sup>.

إن الضعف الذي يتحدث عنه القرآن من خلال هذه الآية يرتبط أساسا بضعف تمس كل الكائنات البشرية من حيث عدم قدرتها على التحكم في غرائزها ونزواتها السلبية، إنه ضعف لا يختص بالنساء وحدهن بل يشمل الجنس البشري عموما.

إن القرآن بالإضافة إلى ذلك، قند كل الافتراضات التي تسعى إلى تثبيت دونية المرأة وإقصائها سياسيا، وذلك من خلال منال الملكة بلقيس، التي أظهرها نموذجا للمرأة التي بلغت شأوا كبيرا في الحكمة، والتدبير السياسي الديموقراطي والعدل والمؤهل ... لقد كانت أكثر حكمة من الرجال الذين استشارتهم من منتخبي شعبها . وإنه لمن المؤسف حقا أن نجد مجموعة من المفسرين المسلمين لا يقدرّون شخصية بلقيس حق قدرها، رغم أن القرآن تحدث

<sup>1</sup> - سورة النساء، الآية 28.

عنها بعبارات دقيقة وواضحة كلها مدح وتقدير. لقد نهج هؤلاء المفسرون مقارنة مجحفة في حق هذه الشخصية، بل هنالك منهم من ظل مقيدا في تعليقاته الطويلة برؤية كلها قسوة وغلظة في حق هذه المرأة.

إن الذي يقرأ كتب التفسير المختلفة سيلاحظ مدى التحفظ والتردد بل والعداء أحيانا الذي يظهره بعض هؤلاء المفسرين اتجاه هذه الشخصية النسائية التي اعتلت عرش سبأ العظيم<sup>1</sup>، والتي أبانت زيادة على ذلك، عن ذكاء وحكمة. ومن المفيد أن نسجل هنا أن القرآن وصف عرشها الذي يعتبر شعارا لسلطتها بالعظيم، وهذا يدل على القدرة الفكرية التي توافرت لدى هذه المرأة حتى تسير شؤون مملكتها الفنية والواسعة بتلك الحنكة والمعرفة.

إن هناك مجموعة من العلماء المسلمين ظلوا يدورون حول الموضوع المتعلق بهذه المرأة ذات الشخصية العجيبة، والملكة التي أتت القرآن على حكمتها وكفاءتها السياسية، دون أن يستطيعوا النفاذ إلى عمق هذه الشخصية، وظلوا للأسف يقارونها مقارنة اختزالية بل ومجحفة في حق الملكة بلقيس. لقد وصفها أحد كبار علماء الفقه في بداية الإسلام بـ "العلجة"، وهي كلمة مشينة<sup>2</sup> تعني "حمارة" أو "زنديقة"، وغالبا ما يستعمل هذا الوصف في معرض إذلال وإهانة الكفار. لقد استغرب هذا العالم كيف سلم هؤلاء الرجال مقاليد حكم

<sup>1</sup> - "ولها عرش عظيم" سورة النمل، الآية 23، هكذا وصفها القرآن الكريم.

<sup>2</sup> - استخدمت هذه الكلمة وصفا للفرس والروم عند العديد من القادة المسلمين في صدر الإسلام. ففي "لسان العرب" تعني كلمة "عله" الرجل من كفار العجم، ومؤنثه "علجة". وذكر ابن منظور أيضا معنى آخر للكلمة هو الحمار الوحشي، أو "الرجل الغيظ"، وإلى هذا المعنى ذهب معجم "العين" للخيال الفراهيدي حيث إن عنده "العلج" هو حمار الوحش الاستعلاج خلقه" أي غلظه. ويضيف إن الرجل إذا خرج وجهه وغلظ فهو عيلج. وإلى نفس المعنى ذهب صاحب معجم المصباح المنير، وأضاف إلى أنها تستخدم لوصف الرجل الضخم من كفار العجم. وأشار أيضا إلى أن بعض العرب "يطلق العنج على الكافر مطلق".

مملكة سبأ هذه العلجة التي من المفترض، بوصفها امرأة، أن تكون ضعيفة وناقصة عقل، غير أنها، ولجنبية أمله الشديدة، أبانت عن ذكاء فاق قدرة الرجال الذين يحيطون بها والذي كان من المفترض في نظره أن يكونوا أكثر منها حكمة وعقلا، بل وصل به الحد ودون ضرورة، إلى السخرية من بنيتها الجسدية<sup>1</sup>. ويمكن أن تساءل أولا عن العلاقة بين المظهر الخارجي لهذه المرأة وقراراتها السياسية، مع العلم أن طبيعتها الفيزيائية خلق إلهي. فكيف له أن يهينها ويحقر شخصها لمجرد كونها امرأة؟

لقد ذهب بعض العلماء أبعد من ذلك، وخلصوا إلى أن هذه الملكة المسكينة تتحدر من سلالة الجن، فام بلقيس كانت جنية، بل رئيسة للجن حسب بعضهم<sup>2</sup>. فبفصلها عن إنسانيتها، اطمأن هؤلاء المفسرون على مستقبل بلقيس بوصفها امرأة... حيث لم تصبح الحاجة لاتخاذها مثالا، مادامت لا تمثل إلا نصف إنسان. ولذلك نصاب بالدهشة عند قراءة التفاسير والتعليقات الخاصة بها، والتي كلها افتراضات وحكايات خرافية تتأى بالقارئ عن البعد التربوي الحقيقي للنص.

ويكاد يعتذر ابن كثير في نهاية تفسيره لهذه الآيات، عن الكم الهائل من الخرافات والأحاجي التي ذكرها عن الملكة بلقيس. ويعترف في الآن ذاته أنه كان مضطرا لسردها وإن كان العديد مما أورده من القصص والتفاسير أخذ مسارا مخالفا لوقار ورسالة الوصف القرآني.

---

<sup>1</sup> - ابن كثير، تفسير ابن كثير، دار الكتب العلمية لبنان 2007 ص 339.

<sup>2</sup> - ابن كثير رواية عن قتادة وزهير بن محمد، وذكر القرطبي أيضا هذا الكلام في تفسيره

إننا هنا يمكن أن تساءل عن حق، عن سبب هذا الانتقاص من شخص هذه المرأة، مع العلم أن الله تعالى نفسه لما ذكرها في القرآن ذكرها باحترام كبير وتقدير شديد. وبالفعل، نلاحظ أن الله لم يصفها بالشركة أو الأئمة رغم أنها كانت تدين بالوثنية، وكل ما نفهمه أنها كانت مجبرة على الخضوع للثقافة الدينية لشعبها، لأنها كانت رغم أنها جزء من قوم كافرين :

"وصدها ما كانت تعبد من دون الله إنها كانت من قوم كافرين"<sup>1</sup>.

إننا عندما نعيد قراءة الآيات المتعلقة بالملكة بلقيس تمعن ودقة، نستغرب عندما نقف على التباين الكبير الحاصل بين كلام الله عز وجل والذي كله اعتبار وتقدير لشخصها، وبين التأويلات التي تعج بها كتب التفسير القديمة حيث تضم إساءات غير مقبولة على الإطلاق. فالله في القرآن الكريم لم يكف أبدا عن إعطاء قيمة الصورة هذه المرأة الملكة والمشرقة والحكيمة والمؤمنة بقيم العدل. كما تلمس أيضا وعلى طول القصة، الصورة التي رسمها لها النص القرآني المقدس، وهي صورة امرأة ذات استعداد عاطفي وروحي استجابت في النهاية وبإحساس مرهف لرسالة النبي سليمان. لقد أدركت دون شك من خلال هذه الرسالة، بوادر الحقيقة التي طالما كانت تبحث من أعماق قلبها ... لقد أراد الله عن قصد أن يزين صورة هذه المرأة المشرقة في أعيننا، حتى تقدرها أكثر عند اعتناقها الدين الله الواحد الأحد.

<sup>1</sup> - سورة النمل، الآية 43.

وعلاوة على ذلك، جاءت الرسالة القرآنية هنا لتؤكد على أهمية استشارة الشعب المحكوم وكذا أهمية قيم الأخلاق والعدل التي يجب أن يتحلى بها الحاكم. بلقيس الملكة والمرأة قد عكست صورة رئيس الدولة البعيد عن الاستبداد والتسلط اللذين لم يكن القرآن من خلال رسالته عن استنكارهما وشجبهما . ويمكن أن نلاحظ أيضا في هذا الصدد أن الاستبداد كان دائما من خلال القصص القرآني يصدر عن رجال ديكتاتوريين، وربما الملكة بلقيس هي الشخصية السياسية الوحيدة التي كانت على خلاف ذلك، ومن ثم قدمها القرآن الكريم بوصفها قدوة ومثالا يحتذى. لقد كانت نموذجا للتدبير السياسي الذي يجب أن يحتذى من طرف الرجال والنساء على السواء. ويجدر بنا أن نذكر أيضا قوة شخصية هذه المرأة التي ما أن اقتنعت بصدق سليمان وصحة رسالته حتى أعلنت رسميا خضوعها للخالق بالكثير من الخنوع وفي نفس الوقت بكرامة وإباء. وهكذا نقل القرآن ما قالته:

"قالت رب إنني ظلمت نفسي وأسلمت مع سليمان لله رب العلمين"<sup>1</sup>.

فقد خضعت لإله الكون مع سليمان وليس لأجله، بشكل جعلني إخلاصها لله تم في إطار من المساواة والحرية التلقائية والعميقة... أجل ما من شك أنها أعجبت بالقوة الخارقة للملك سليمان وقدراته الهائلة، ولكنها كانت تدرك أن كل هذه القدرات هبة من الله تعالى.

وبعبارة أوضح، فقد استولى النبي والرسالة الروحية قلب الملكة بلقيس... بل يروي

بعض المفسرين أن سليمان وبلقيس تزوجا في النهاية<sup>1</sup>.

---

<sup>1</sup> - سورة النمل، الآية 44.

لا شيء يمكن أن يؤكد الأمر أو ينفيه، ومع ذلك، فإننا نرغب حقا في تصديقه. ولا غرابة في أن يعجب أحدهما بالآخر، أولم يشترك معا في حب قيم العدل والصدق؟ أولم يجمع بينهما الخضوع الخالق الكون؟ إنه درس رائع في الحب والذكاء بهديه لنا القرآن من خلال شخصية هذه الأنثى التي للأسف لا علاقة لها قطعا بكل ما نقله لنا العديد من المفسرين.

### سارة وهاجر : رمزان للتوحيد

دون شك تمثل المرأتان: سارة وهاجر، المصدر الأول للتوحيد.

إن سارة هي أم إسحاق وهاجر هي أم إسماعيل... إسحاق وإسماعيل نبيان ينحدران من أب واحد هو إبراهيم عليه السلام. ومن خلال هذين النبيين كأن افتراق شعبيين ما زالوا إلى يومنا هذا، يعيشان في مواجهة متواصلة...

لقد كانت سارة هي الزوجة الأولى للنبي إبراهيم. وتفق كل الكتب السماوية على أن هذه المرأة كانت على قدر كبير من الجمال. لقد وصفها النبي صلى الله عليه وسلم بأنها كانت أجمل امرأة عرفتها البشرية بعد حواء<sup>2</sup>. غير أن إبراهيم وسارة وبعد مرور سنوات عن زواجهما، لم يرزقا بأي مولود. لقد كان إبراهيم راضيا بهذا الوضع لم يشتك منه يوما،

---

<sup>1</sup> - ليس هناك قول واحد عند الطبري في هذه المسألة، فهناك من يقول إن سليمان تزوجها في نهاية الأمر وهناك من يقول إنه زوجها لكبير من كبراء القوم.

<sup>2</sup> - فيما يخص الأحداث التاريخية الواردة هنا فكنها مستقاة مما جمعه طارق سويدان في كتابه نساء خالدات.



بخلاف سارة والتي نظرا لمشاعرها النسائية الطبيعية، كانت تحس دوماً، بمرارة عميقة تؤرقها سب عدم قدرتها على أن تلبي رغبة زوجها الدفينة في أن تلد له مولوداً.

لقد كان النساء دون الرجال، تبعاً لأعراف ذلك الوقت - بل وفي وقتنا الحاضر أيضاً من يتحمل مسؤولية العقم، لذلك اقترحت سارة على زوجها الحبيب النبي إبراهيم، خادمتها هاجر القادمة من مصر. لقد جعلها العقم الذي تحملت وزره بمفردها، تنظر إلى نفسها وكأنها المذنب والمسئولة على هذا الوضع، ولذلك فكرت ملياً من أجل التكفير عن هذا الإحساس بالذنب وإسعاد زوجها بأن تهدي خادمتها المصرية الشابة. رغم كل ما قد يسببه لها هذا القرار من جرح عميق سيمزق فؤادها.

غير أن الأحداث أخذت مساراً آخر، فبعد وقت قصير، ستتلقى سارة خبراً قلب مجرى حياتها وغير مصير البشرية... لقد بشرها الملائكة أن الله سيرزقها بمولود. وقد ذكر القرآن سارة واصفاً مشهد فرحتها وسعادتها بعد أن بشرها الملائكة بحملها الوشيك :

"ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا سلاماً قال سلام فما لبث أن جاء بعجل حينئذ، فلما رآ أيديهم لا تصل إليه نكرهم وأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف إنا أرسلنا إلى قوم لوط، وامرأته قائمة فضحكت فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب، قالت يا ويلتى أألد وأنا عجوز وهذا بعلي شيخاً إن هذا لشيء عجيب، قالوا أتعجبين من أمر الله رحمت الله وتكثر وبركاته، عليكم أهل البيت إنه، حميد مجيد"<sup>1</sup>.

<sup>1</sup> - سورة هود، الآيات 69-73.

يمكن أن نفق من خلال هذه الآيات، على مدى القرب الذي كان بين سارة وزوجها إبراهيم عندما استقبلا ضيوفا غرباء، أو هكذا بدوا لهما في أول وهلة، وإن كان هؤلاء في الواقع رسلا من الله، أو بالأحرى ملائكة جاؤوهما في هيئة بشر. في البداية شك إبراهيم وزوجته في أمرهم وتوجسا منهم خيفة خصوصا لما رأياهم لا يجدون أيديهم لما قدماه لهم من طعام لحم العجل المشوي، لكن هؤلاء الملائكة سارعوا أولا لطمأنتهما وأخبروهما أن الله عنهم القوم لوط، ثم بشروا ثانيا سارة بجبر مولودها الجديد . كان من الصعب عليها أن تصدق هذه البشري، وهي التي اعتبرت أن السن قد تقدم بها ، كما أنها امرأة عاقر لا أمل لها في الولادة، وإضافة إلى ذلك تعرف أن بعلا إبراهيم شيخ هرم بلغ من الكبر عتيا.

وأمام دهشتها واستغرابها الشديدين، بين لها الملائكة أن الله على كل شيء قدير وأن كل ما يدور بخلدها بشأن الإنجاب لا يمكن أن يقف أمام قدرة الله وإرادته. وهذا الحوار الذي دار بين سارة والملائكة المرسلين من الله، إنما يدل على مكانة هذه المرأة عند خالقها، إنها زوجة إبراهيم وشريكة حياته، قاسمته الحمل الثقيل لرسالة الإيمان والعقيدة، واشتركا معها في حياة زوجية كلها حب ومودة انضاف إليهما حب التقرب إلى الله. وتؤكد هذه الآية من خلال ذكرها لسارة باسم امرأة إبراهيم، ومباركة الملائكة لهما معا، درجة الحميمية الروحية التي كانت تجمع بين هذين الشخصين: "رحمت الله وبركاته، عليكم أهل البيت إنه، حميد مجيد"<sup>1</sup>.

لقد بارك الله سارة وإبراهيم ومنحهما ذرية نبيلة من الرسل، إسحاق ويعقوب.

<sup>1</sup> - سورة هود، الآية 73.

باركهما الله معا ومنحهما نعمته ورحمته الواسعة... كانت سارة حاضرة بالقرب من إبراهيم بوصفها امرأة أولا، وزوجة لهذا الشيخ الجليل، وشريكة له في السراء والضراء، ثم أما بعد حياة مشتركة طويلة، جعلتها تهديه في لحظة يأس وقنوط امرأة أخرى وهي خادمتها المصرية، حتى تلبى رغبته الدفينة في الذرية، وها قد كافأهما الله بذرية من صلبهما معا... لقد وهب الله سارة الطفل الذي طالما انتظرتة وحلمت به طويلا، بعد أن يئست من حملها، مانتا إياها من خلاله خلود اسمها في السلالة الطويلة للرسل والأنبياء ذوي الشأن العظيم عند الله.

وفي هذه الأثناء، رزقت هاجر- الجارية التي زوجها سارة لإبراهيم عليه السلام بمولود سمته إسماعيل. غير أن إبراهيم تلقى أمرا إلهيا بنقل أسرته الجديدة من القدس إلى مكة التي كانت خلاء حينها وغير مأهولة بالسكان، ليعود بعد ذلك إلى القدس... ولم يخبر إبراهيم عليه السلام أحدا بهذا الأمر الإلهي، بما في ذلك زوجته هاجر التي كانت ترافقه إلى مكة. لقد كان القلق يمزق قلبه لجرد التفكير في أنه سيضطر للتخلي عن هذين الكائنين الضعيفين في هذه الأرض الأجنبية عنهما، لكن الأمر الإلهي كان واضحا لا يحتمل أي شيء، ولا شك أيضا أن ثقته في رحمة الله منحته قوة مواصلة الطريق. وعند وصوله، ورغم الحزن الذي كان مسيطرا عليه، ترك هاجر وابنها الرضيع، دون أن يقدم لهما أدنى تفسير، ثم أخذ طريق العودة، اتباعا لأمر الله، الذي لم يكن إبراهيم الحنيف المعروف باستقامته مستعدا التماطل في تنفيذه... وتحكي السنة أن هاجر ذعرت من بقائها وحيدة في هذه

المنطقة الخلاء القاحلة، عندما رأت إبراهيم عليه السلام يبتعد عنهما دون أن يفسر لها الوضع الجديد ، رغم محاولتها المتكررة لاستفساره وسؤاله دون جدوى: "هل ستتركني أنا وأبنائك وحدنا في هذه الأرض الخلاء؟"، لكن إبراهيم عليه السلام الممتحن بين الخضوع لأمر الله وحبه لأسرته لم يجرؤ على الالتفات مخافة أن يضعف وينصاع لرغبة استرجاعهما وبالتالي عدم تنفيذ أمر الله. لم تفارقه هاجر بعينها وظلت تتابعه عاجزة عن تصديق ما يحدث، كان طفلها بين ذراعيها وهي تطرح السؤال على زوجها: "هل ستتركنا وحدنا هنا يا إبراهيم؟".

وأمام صمت زوجها، بدأت تحس من أعماق قلبها أن ما تعيشه ليس مجرد شيء عابر بل هناك شيء مهم در في هذا الصمت المطبق الذي يسود المكان، فكأن الوقت توقف، وكان إبراهيم بصمته وأيضا بقوة عزمته، نقل إليها روح الرسالة الربانية. كانت تحدث نفسها وتقول إن قرار إبراهيم عليه السلام بتركهما وحيدتين لا يمكن أن يصدر عنه، بل إنه استجابة لأمر يتجاوزه بوصفه إنسانا. لقد كانت تحس بشعور خاص نقل أعماق كيائها...

لهذا سألته هذا السؤال المعبر عن حالتها النفسية: "هل الله هو من أمرك بتركي أنا وطفلك المسكين في هذا البلد؟"، وأجابها إبراهيم معترفا: "نعم"، وصوته مخنوق بعد أن اغرورقت عيناه بالدموع، مواصلا طريقه دون أن يلتفت إليها . لقد صدق إحساسها، إن إبراهيم نفذ أمرا إلهيا.

فردت عليه فوراً: "فإن الله لن يتخلى عنا إذن". كان هذا الرد مثقل بمعاني الصفاء  
والعاطفة... وكأنها أحست بشيء من الراحة. لقد كان لسان حالها يقول: إذا كان هذا قرار  
من الله سبحانه وتعالى، فلا يهم بعد ذلك أي شيء آخر. فما أكثر المرات في حياتنا التي  
تعرض فيها المواقف صعبة، ولأفعال وقرارات تتجاوزنا نحن البشر؟ ولكن ما أن نقتنع بقوة  
القدر ونعود إلى الله، حتى يجتاحنا شعور بالراحة والطمأنينة رغم أن مشاكلنا لم تكن قد  
حلت بعد. إن الصفاء الرقيق والجميل لا يوقظه في أعماق أرواحنا إلا الإيمان وحده، فهو  
الذي يمكننا من التصدي في حياتنا لكل الفتن ومختلف الأحزان والآلام...

كانت هاجر مؤمنة، واثقة بالله، فإذا كان هذا الوضع من إرادة الله، فستخضع له قبول  
وطواعية. وهذا خير مثال عن الخضوع الحقيقي للخالق. وقد توقفت هاجر على حافة الوادي  
محاولة أن تتشبث بهذا الأمل وبهذا الصوت الخافت الكامن في أعماقها والذي يخبرها أنه  
لن يصيبها أي مكروه ما دامت هذه إرادة وعناية حاميتها الوحيد مالك الكون... وفي نفس  
الوقت، كان إبراهيم يذكر الله أيضاً في طريق عودته متضرعاً إليه بأن يحمي زوجته وابنه:  
"ربنا إني أسكنت من ذريتي بوادٍ غير ذي زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل  
أفئدة من الناس تهوي إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون"<sup>1</sup>.

فما أن اختفى إبراهيم في الأفق حتى بدأت هاجر في إعادة هذه الجملة التي أضحت  
تمدها بالقوة وتشعرها بالراحة والاطمئنان: إن الله لن يتخلى عنا، ومن يتبع طريق الله لا يمكن  
أن يخاف أبداً...

<sup>1</sup> - سورة إبراهيم، الآية 37.

لقد كان إيمانها بريحتها، لأن ثققتها بالله كبيرة، غير أن الأم المسكينة ظلت خائفة على صغيرها العزيز الذي ظل يصرخ ويبكي من شدة العطش والجوع. كان كل ما يحيط بهما خرابا لا يبعث إلا على الحزن والكتابة... فكيف يمكن أن يجد من يساعدهما في هذا الوادي المهجور؟ وأين سيجدان الماء في هذه الأرض القاحلة الجذباء؟ لقد كانت هاجر عاجزة ومذعورة أمام الصراخ المتواصل لطفلها، فقامت بوضعه على حافة الوادي، وذهبت تبحث في كل مكان عن شجرة أو عن أي علامة أو أي شيء يدل على الحياة.

وبما أنها لم تكن تدري أين تجد العون، شرعت تمشي تارة إلى جبل الصفا، وتارة أخرى إلى جبل المروة. كانت تمشي وتهرول مرات عديدة بين هذين الجبلين، فحينما تتفحص الأفق آملة أن تجد بعض المساعدة في الصفا، وتارة تلقي سمعها باحثة عليها تشعر بصوت أو خشخشة مألوفة في جبل المروة.

وبعد سبع رحلات من الذهاب والإياب بين الجبلين، ارتمت على الأرض خائرة القوى، وانهمرت دموعها بسبب عجزها ومعاناتها. ما أشد ألمها وهي ترى ابنها يقاسي دون أن تستطيع مساعدته، لهذا أخفت وجهها حتى لا ترى معاناته أمام عينيها... لقد فضلت في هذه اللحظة أن تدفن وأن لا تبقى حية تنظر دون أن تستطيع فعل شيء. لكن سرعان ما أبصرت، ماء رقراقا صافيا زلالا يتدفق من بين أصابع طفلها، وسط الصمت الرهيب الذي يغمر المكان والذي لا يكسره إلا بكاء ونحيب صغيرها. وسرعان ما اندفعت مندهشة، وقد جنت من فرط الفرح والسعادة، لتروي عطشها وعطش ابنها من المنبع، وهكذا حاولت أن

تمسك بيدها الماء المتدفق دون انقطاع قائلة: "زم... زم...زم..."، وهي عبارة تعني "الشد بإحكام"، لقد خافت هاجر من أن يجف الماء من النبع فجأة ويختفي كما ظهر.

وتروي بعض نصوص السنة أن الملك جبريل هو الذي أخرج منبع الماء من تحت أصابع إسماعيل، في حين تذكر روايات أخرى أنه تمثل لهاجر وحدثها ثم حدد لها مكان منبع الماء<sup>1</sup>.

لقد جاء هذا الجزء من قصة هاجر ليثير تساؤلنا حول المعنى العميق لحدثين من الأهمية بما كان بالنسبة للإسلام والمسلمين هما شعيرة "السعي" أو الذهاب والإياب سبع مرات بين الصفا والمروة أثناء موسم الحج، ثم رمزية منبع ماء زمزم الذي يوجد منذ ذلك الوقت وإلى اليوم بأرض مكة المباركة...

فالسعي الذي يرمز إذن إلى رحلات الذهاب والإياب هو عبارة تعني المشقة والإصرار في مواصلة الجهد. فأتداء الحج، نقوم ب"مجهود" القيام بهذه الرحلة بين الصفا والمروة، تماما كما فعلت هاجر لإنقاذ صغيرها الظمآن.

ومع مجيء الإسلام، قام القرآن بإحياء قصة هاجر. لقد أراد الله من وراء أمره بأداء طقوس السعي بالمشي هرولة سبع مرات ذهابا وإيابا بين الصفا والمروة، أن يذكرنا بأننا نحيا ذكرى هاجر، ولا أحد سواها...

---

<sup>1</sup> - الطبري، تاريخ الأمم والملوك، دار صادر، بيروت 2003 ص 84-85.

وبقى هذا الطقس أحد أهم شعائر حجر المسلمين السنوي، ولا يمكن للحج أن يكتمل بدونه. فمنذ أزيد من أربعة عشر قرنا، لا زال ملايين المسلمين يمشون ويهرولون كل سنة بين الجبلين ويفعلون كما فعلت هاجر.

فهل يمكن أن تتخيل تكريما أعظم للإنسان من هذا التكريم حيث يتم إحياء ذكره بهذه الطريقة؟ إنها قصة ذكرى امرأة في الإسلام... هذا الإسلام الذي تتهمه عن قصد بإهانة جنس الأنثى، يحتفل إلى الأبد بذكرى امرأة، مسجلا مسارها كأحد أعمدة طقوس المحبة الإلهية. "إن الصفا والمروة من شعائر الله"<sup>1</sup>.

وربما من الجدير بالذكر هنا أن نسجل أن هاجر لم تذكر في النص القرآني إلا تلميحا عندما توسل إبراهيم ربه في الآية التالية: "ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم..."<sup>2</sup>.

إن سنة الرسول صلى الله عليه وسلم وكذلك مجموع التفسيرات القرآنية هي التي تعرضت لقصة هاجر. ورغم عدم ذكر أي اسم خاص بها في النص القرآني، إلا أن ذكرها أعيدت بشكل رسمي في العقيدة وشعائر الإسلام. فحتى بدون ذكرها، تبقى شعائر الصفا والمروة الشاهد الدائم على مسارها واستغاثتها وحضورها...

---

<sup>1</sup> - سورة البقرة، الآية 158.

<sup>2</sup> - سورة إبراهيم، الآية 37.



إنه إذن مثال يكرم المرأة، ويحيي للأبد ذكرى صبرها وإخلاصها وتضحيتها، وهكذا يقوم الحجاج الاثنيتين من كل قبح عميق بالاحتفال بذكرى هاجر كل سنة، وبإكمالهم لهذه الفريضة الإسلامية، يقومون بإحياء ذكرى امرأة خضعت لأمر خالقها بإخلاص شديد.

ولكن من يتذكر اليوم أثناء قيامه بشعائر الحج قصة هذه المرأة؟ هل يدرك الحجاج أنه باسمها ومن أجل الله تعالى تم إحياء هذه الشعيرة من طرف الإسلام؟ وهل يعون أنهم يحتفلون رسمياً بهذه الشعيرة لذكرى امرأة؟ امرأة ذكرها الرسول صلى الله عليه وسلم أيضاً باحترام في حديث شريف: "إذا فتحتم مصر فاستوصوا بالقبط خيراً، فإن لهم ذمة ورحماً<sup>1</sup>، والرحم التي ذكرها صلى الله عليه وسلم هي من جهة هاجر<sup>2</sup>.

وماذا يمكن أن نقول فيما يخص نبع زمزم الذي كان هدية من الله لهاجر حتى تروي به ظمأ ابنها إسماعيل؟ هذا الماء الذي طالما ذكر النبي محمد صلى الله عليه وسلم في أحاديثه الكثيرة محاسنه وفضائله حيث يفترض بكل الحجاج أن يشربوا منه لحظة وصولهم إلى الأرض المقدسة. هذا النبع الذي لا ينضب يمثل جزيل عطاء الله على هذه الأرض الجرداء والجزاء الإلهي الممنوح لهذه المؤمنة الحقة. وتتبعني الإشارة إلى الرمزية الكبيرة التي يحظى بها شر زمزم، لأن السنة تخبرنا أن عبد المطلب، جد الرسول، هو من سيكتشفه قبل وقت قليل من ولادة نبي الإسلام محمد صلى الله عليه وسلم، الشيء الذي سيزكي الاستمرارية الكائنة بين النبيين إسماعيل ومحمد عليهما السلام.

<sup>1</sup> - الحديث في صحيح مسلم. وجاء عن ابن عيينة أنه قال: من الناس من يقول هاجر أم إسماعيل كانت قبطية، ومنهم من يقول مارية أم إبراهيم بن النبي قبطية. وقال الزهري: الرحم باعتبار هاجر، والذمة باعتبار إبراهيم. (المترجم).

<sup>2</sup> - الطبري، تاريخ الطبري، ج 1 ص 82.

غير أن السنة سكت بعد ذلك عن هذه الأحداث التي عاشتها هاجر وابنها إسماعيل الذي لن نعرف عنه أي شيء إلا بعد أن كبر رفقة أبيه إبراهيم عند بناء الكعبة. نشأ إسماعيل في كنف أم تعتبر رمزا في التضحية والتفاني، لذلك أبان هو كذلك عن إخلاص عظيم الله من خلال قصة الهدى والأضحية. لقد كان بذل النفس من قبل إبراهيم وسارة وهاجر وابنها إسماعيل... قصة عن التضحية، عن كل التضحيات حيث اختير كل هؤلاء الأشخاص من قبل الله ليكونوا رموزا حقيقية للإخلاص للخالق. فتكرار قراءة قصتهم يذكرنا باستمرار حقيقة معنى التسليم لله الذي هو أساس الإسلام، وبالتشبه بجبله المتين والانصياع لحقيقته كيفما كانت الصعوبات والمشاق والآلام... ومهما كان من التضحية التي علينا بذلها.

إن سارة، سيدة الأمكنة والمرأة الحرة، وهاجر الأمة المتواضعة المتخلى عنها، متساوتان أمام الخالق. فقد حظيتا بنفس الفضل الرباني ونفس النعم ونفس التكريم العظيم ولذلك ترسخ اسماهما في الأذهان وإلى أبد الأبد.

## زليخة أو الحب المحظور

زليخة هي الشخصية الأنثى التي يبدو أنها أدت دور الشرير في قصة نبي الله يوسف عليه السلام، وهذه الصورة موجودة أيضا في بعض الأدبيات الإسلامية، وفي التقليد اليهودي والمسيحي الذي لم يتردد أيضا فيما يبدو على جعلها رمزا دالا للانحراف وغواية الرجال بامتياز.

ولم يذكر القرآن الكريم كمدته اسم هذه المرأة، بل اكتفى بالإشارة إليها عن طريق لقب امرأة العزيز لا غير. ولذلك اختلف المؤرخون والعلماء المسلمون حول اسمها الحقيقي، ففي الوقت الذي اعتبر فيه علماء من أمثال الطبري، وابن إسحاق وابن عباس أن اسمها "رائيل" رأى آخرون أنها كانت تدعى زليخة<sup>1</sup>.

هذا وتعتبر قصة يوسف عليه السلام هي القصة الوحيدة في القرآن التي سردت أحداث قصة هذه المرأة في سورة واحدة، وتفصيل دقيق. ومن بداية القصة إلى نهايتها، يشدنا توالي الأحداث شدا، كما نسحر بالمجازات ذات المعاني الكثيفة، وذات الجمال الأخاذ، المليء بالحقائق التي تبدو وكأنها نبع صاف رراق.

إنها قصة من القصص القرآنية الغنية جدا بالمعلومات عن القيم الأخلاقية، وعن أدب الحياة، حيث تشكل التربية الربانية فيها جانبا من أروع جوانب الحكى والسرد. وبهذه الطريقة يفتح النص القرآني وصفه للأحداث في قصة يوسف عليه السلام.

---

<sup>1</sup> ابن كثير، تفسير ابن كثير ص 448. أما ابن إسحاق فيرى أن اسمه أظفير بن رويب، واسم امرأة العزيز راعيل بنت رعايل. وقال غيره: كان اسمها زليخا، والظاهر أنه لقبها (المترجم).

"نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن وإن كنت من قبل لمن

الغافلين"<sup>1</sup>.

وفي الواقع لا يسعنا إلا أن نقول إن قصة هذا النبي قصة جميلة جدا.

يوسف<sup>2</sup> وريث سلالة نبيلة من الأنبياء، والابن الأصغر لإسحاق، وحفيد النبي

إبراهيم. وكان يتبأ له منذ صغره بمستقبل خاص ومميز خارج عن المألوف. لقد كان مفضلا

عند أبيه من بين إخوته الاثني عشر، كما كان ذكيا حباه الله بقدرة خاصة على تعبير الرؤى

أي تفسير الأحلام، كما كان خارق الوسامة غاية في الروعة والجمال، لحد أن أشار الرسول

محمد عليه الصلاة والسلام في أحد أحاديثه إلى الجمال الخلفي لهذا النبي عليه السلام<sup>3</sup>.

وتتابع الأحداث تسلسلها في القرآن حيث تبين لنا أن يوسف المفضل بين إخوته

والمميز بجماله الكبير، وبحكمته البالغة، ولسانه الفصيح، كان ضحية الغيرة المرضية

لإخوته الذين حاولوا الكيد له بقتله، غير أن القدرة الإلهية أنجته في اللحظة الأخيرة وتم بيعه

عبدا لأحد كبار النبلاء في ذلك العصر، وهو العزيز صاحب مصر، والمعروف في الكتابات

القديمة للموحدين باسم "بوتيفار". كما أكد الطبري أن تسمية العزيز كما وردت في القرآن

جاءت للتشريف فقط<sup>4</sup>، أما الاسم الحقيقي لهذه الشخصية فقد سكت عنه القرآن تماما.

---

<sup>1</sup> - سورة يوسف، الآية 3.

<sup>2</sup> - لقد تعرض الطبري في تاريخه لقصة يوسف بكل تفاصيلها ص 111.

<sup>3</sup> - الطبري، تاريخ الطبري ص 111.

<sup>4</sup> - كان يطلق هذا اللقب على المكلف بأموال ملك مصر وكذا على الوزير أيضا.

تبنّت يوسف عائلة عزيز مصر الغنية، لما كان يتمتع به من جد وذكاء، فتدرج من مرتبة إلى مرتبة حيث ابتدأ مساره بمرتبة عبد مراهق متواضع، ووصل شيئاً فشيئاً إلى مرتبة مسير الشؤون الداخلية للزوجين اللذين يعيش تحت كنفهما.

وكانت زليخة الجميلة والثرية على حد ما وصفت به في التقليد اليهودي المسيحي، قد سلبها جمال هذا الفتى العبد الذي يعيش في بيتها، وتقابله كل يوم صباح مساء.

لقد كان يوسف جميلاً جداً، وهو ما جلب له متاعب كبيرة في المجتمع المصري الذي كان معروفاً في ذلك الوقت بتهتكه وانحلاله الخلقي. وقد وصف القرآن الكريم بدقة متناهية لا لبس فيها المرادة الشهيرة التي تعرض لها النبي يوسف من قبل زليخة امرأة العزيز :

"ورأوته التي هو في بيتها عن نفسه، وغلقت الأبواب وقالت هيت لك قال معاذ الله إنه ربي أحسن مثواي إنه لا يفلح الظالمون، ولقد همت به، وهم بها لولا أن رأى برهان ربه كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين، واستبقا الباب وقدت قميصه، من دبر وألفيا سيدها لدا الباب قالت ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً إلا أن يسجن أو عذاب أليم، قال هي راودتني عن نفسي وشهد شاهد من أهلها إن كان قميصه قد من قبل فصدقت وهو من الكاذبين، وإن كان قميصه من دبر فكذبت وهو من الصادقين، فلما رءا قميصه قد من دبر قال إنه من كيدكن، إن كيدكن عظيم، يوسف أعرض عن هذا واستغفري لذنبك إنك كنت من الخاطئين"<sup>1</sup>.

<sup>1</sup> - سورة يوسف، الآيات 23-29.

وفي هذا الجزء الأول من القصة القرائية، نلاحظ أننا أمام محاولة إغراء وغواية، بحيث بذلت زليخة كل ما في وسعها لاستمالة يوسف عليه السلام. لقد بدا الفتى مترددا في أول الأمر لكنه سرعان ما حسم الأمر في النهاية، وتمكن من مقاومة غواية هذه المرأة الجميلة. وكما وصف النص القرآني اعترض يوسف ما وسعه الاعتراض وقد كاد أن يسقط في شرك فتنتها وغوايتها لولا رؤية برهان ربه الخالق.

إن وحي الله إذن هو الذي أوقد ضميره في الوقت الذي كاد أن يستسلم ويضعف أمام سحر جمال سيدة المنزل. ولعل هذا ما جعل بعض المفسرين يختلفون حول تأويل هذا الضعف الذي ساور النبي يوسف في لحظة من اللحظات، والذي تمت الإشارة إليه في الآية بلفظ وهم بها، لقد كان من غير المقبول بالنسبة لبعض المفسرين المسلمين أن تكون هذه الفكرة قد خطرت على بال يوسف (عليه السلام)، لأنه نبي والأنبياء أشخاص معصومون وهو ما يطلق عليه "عصمة النبوة".

وفي الواقع نستغرب كثيرا كيف يتم في الغالب الأعم تأويل هذه العصمة على أساس أنها حالة لا إنسانية تكون عند الأنبياء فقط<sup>1</sup>. إن عصمة الأنبياء ليست رفضا وإلغاء لبشريتهم في حد ذاتها، ولكن يتجلى أساسا في قدرتهم على المقاومة والصبر إزاء الامتحان الإلهي... وهنا يتجلى كل الاستحقاق الناتج عن التزامهم الإنساني اتجاه الله سبحانه وتعالى.

---

<sup>1</sup> - راشد الغنوشي، المرأة بين القرآن و واقع المسلمين، ص 42.

لم يكن يوسف (عليه السلام) ملكا، بل كان شرا عانى وقاوم شهوته، وكابد مكابدة نفسية داخلية كبيرة جدا، حتى يستطيع أن يتحكم في كل شهواته السلبية ويتغلب على كل الإغراءات التي يتعرض لها بني البشر.

لقد كان على حافة الغواية لأنه أولا وقبل كل شيء، كائن بشري ضعيف، غير أن مقاومته الداخلية كان لها أثر كبير عليه، بحيث مكنته من قراءة العواقب الوخيمة لهذا الفعل، وسرعان ما جاء البرهان الإلهي الذي أثار فجأة قلب يوسف المنفطر. فجزاه الله تعالى على جهوده بأن حماه وصرفه عن القيام بهذا الفعل الأخلاقي، وذلك من جهتين، أولا من جهة كونه سيقترّب من امرأة محرمة عليه، ومن جهة أخرى سيفقد الثقة العمياء لسيده فيه، والمكانة الخاصة التي حباه بها طوال عيشه تحت كنفه.

أغرت إذن زليخة يوسف عليه السلام كما يصف لنا ذلك القرآن الكريم، وحاولت اتهامه ظلما حينما ضبطها زوجها وهي تراوده عن نفسها، ورغم أنها انكشفت على الفور، فقد سامحها<sup>1</sup> العزيز بعد أن طلب من يوسف أن ينسى هذا الحادث، وويخ زليخة كثيرا عن طريق مقولة أصبحت فيما بعد بمثابة القول المأثور الذي يحط من قيمة النساء بصورة مطلقة إن كيدهن عظيم.

إن الكيد مصطلح يفيد في اللغة العربية "الخداع"، و"المؤامرة"، و"الحيلة"، وأيضا "الجهد الذي يبذله الإنسان في تحقيق أي مهمة أو عمل" وقد استعمل القرآن الكريم هذا اللفظ كثيرا واصفا به وضعيات مختلفة. وهكذا نجد حالات يكون له فيها معنى إيجابيا، وفي

<sup>1</sup> - انظر تفسير الطبري و تفسير ابن كثير في تفسيرهما لسورة يوسف.

حالات أخرى يكون له معنى سلبيا. بل نجد أن الله تعالى وصف نفسه في بعض الآيات المالك لقوة الكيد<sup>1</sup>.

وفي سورة يوسف نفسها، نجد هذا اللفظ في سياق نصيحة النبي إسحاق لابنه يوسف. "قال يا بني لا تقصص رعبك على إخوتك فيكيدوا لك كيدا إن الشيطان للإنسان عدو مبين"<sup>2</sup>.

ثم بعد ذلك نجد اللفظ في موضع آخر من السورة نفسها عند الآية التي تقول: "كذلك كدنا ليوسف"<sup>3</sup>.

غير أن مصطلح كيد أخذ دلالة قذحية تخيف وترعب، بعدما أدرج في سياق قصة مراودة زوجة العزيز ليوسف ومحاولة غواتيه. وصار بعد ذلك، كيد زليخة من الإغراء الأنتوي المشهور والمحظور والضال. وبمرور الوقت عرف شيوعا مفرطا في التصور الإسلامي وصار يرتبط تلقائيا وبشكل عام، بصورة المرأة ونزعتها المزعومة نحو الكيد والخيانة والمكر.

والحال أن هذه الجملة إن كيدهن عظيم كما جاءت وبصورة شرعية مقبولة على لسان زوج زليخة، هي أقل ما يمكن أن يقوله رجل في هذه الواقعة، حيث أراد أن يعبر عن المرارة وخيبة الأمل التي أحسها جراء خيانة زوجته له. لقد صاغ هذه العبارة في شكل حكم قطعي ليخفف عن الآلام التي تعتمله وتعتصر قلبه، وكذلك ليطفئ بها غضبه وغيظه.

<sup>1</sup> - "وأملئ لهم إن كيدي متين" سورة الأعراف، الآية 183، "وأكيد كيدا" سورة الطارق، الآية 16.

<sup>2</sup> - سورة يوسف، الآية 5.

<sup>3</sup> - سورة يوسف، الآية 76.



لقد جاءت ردة فعل الزوج المفجوع جراء الفعل الفاحش لزوجته في شكل قولة جرم فيها من خلال زليخة كل النساء. لقد جهر بقوله هاته تحت تأثير لحظة تلبس زوجته، لكنه مع كل ذلك ظل وقورا متسامحا إزاء خيانة زوجته وخيبة أمله فيها ، حيث غفر لها وطلب منها أن توب. لقد وصفت لنا الآية الكريمة بدقة متناهية هذا المشهد الحرب للغاية، ونقلت لنا من خلاله الحالة النفسية التي كان يعيشها العزيز في تلك اللحظة. ورغم كل ذلك فسح المجال أمام تعميم قولة العزيز هاته، وإخراجها عن السياق الذي أنجزت فيه، بل صار مع مرور الوقت معناها الحرفي كلاما مقدسا ينسب إلى الله (تعالى) حيث يعاتب فيه كل نساء العالم.

وشياء فشيئا صار هذا التأويل المختزل الذي أعطى لهذه الآية إن كيدهن عظيم شعارا أو وصية ربانية تحذر الرجال من أن يضلوا بسبب النساء. من هنا أصبح شائعا أن الله أكد في كتابه على ضرورة الاحتياط من كل النساء بسبب قدرتهم القائمة والخطيرة على المكائد والدسائس. إن هذا الفهم الشعبي هو الذي ساد طويلا وعضد موقف بعض العقليات المؤهلة لهذا النوع من التأويلات المعادية للمرأة. وعلى غرار الخطيئة الأصلية الأولى التي ألصقت ظلما بأولى نساء البشرية، انضافت على عاتق كل النساء مسؤولية جرم الكيد الذي اقترفته زليخة زوجة العزيز.

ولقد دار بهذا الخصوص، جدل كبير بين جيل من علماء المسلمين حول مفهوم اكيد" بل ذهب بعضهم إلى حد القول إن كيد النساء أقوى من كيد الشيطان مستدلا على ذلك بقوله

الله تعالى: "كيد الشيطان ضعيف" وبهذا عد كيد الشيطان أهون من كيد النساء "العظيم" أي أشد هولاً وخطراً<sup>1</sup>.

ومن تم كلما تعلق الأمر بتحليل حدث أو أي عمل ذي صلة بالنساء مهما كان بسيطاً إلا واستحضرت هذه الآية دليلاً شرعياً لتأكيد التحذير الإلهي<sup>2</sup>، وصار ذلك بالتالي عرفاً جار به العمل، جعل من هذه الآية دليلاً وحجة تقدم في كل المجتمعات الإسلامية كلما أرادت انتقاد النساء وتسفيههن. والحقيقة أنه لا يوجد في أي مكان، لا في قصة يوسف، ولا في أي سورة من سور القرآن، ما يؤكد هذا التأويل الشائع والمشهور بين الناس.

والمفاجئ هو أن نرى في قصة زليخة بالذات تفاوتاً كبيراً بين النص القرآني والتأويلات التي وضعت عند تفسيره.

وطوال هذه القصة لم ينعت الله زليخة بنت قبيح، رغم أنها كانت مخطئة فعلاً في لحظة معينة. وأدى تصرفها الضال - كما سنرى فيما بعد إلى سجن يوسف ظلماً وهو ما بعد تصرفاً مشيناً في حد ذاته.

ورغم ذلك فإن القرآن لم يطلق أحكاماً بشأن هذه المرأة، بل اكتفى برواية الأحداث، ووصف الأماكن وتصوير الأحداث بدقة متناهية، دون أن يسم زليخة بأي سمة.

---

<sup>1</sup> - يمكن الرجوع في هذا الصدد إلى التحليل النقدي الذي قدمه راشد الغنوشي للتفسير التي تنطلق من هذه الآية لتعكس عداء واضحاً للنساء.

<sup>2</sup> - نذكر على سبيل المثال الفيلم السينمائي الذي أنتجته فريدة بليز يد تحت عنوان "كيد النساء" وهو فيلم كوميدى حاول أن ينقل هذا الواقع الاجتماعي.

فقد وصف القرآن عملا ليس مقبولا في حد ذاته، وأظهر بجمالية فائقة مجافاته لأخلاق الفطرة. وهذا هو النهج الرباني الذي ينهج القرآن اتجاه هذا النوع من التصرفات الإنسانية. ولهذا نلاحظ أن بعض المفسرين القدماء، يضمرون شيئا من التعاطف والمحابة اتجاه هذه المرأة، بل منهم من يبرر سلوكها هذا بشكل ضمنى على حد ما رواه الطبري من أن العزيز زوج زليخة كان رجلا عاجزا لا قدرة له على إتيان النساء.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن بوتيفار "أي العزيز" عرف في الأدبيات الغربية بكونه مخصيا، وقد أشار الطبري لهذا العجز عند العزيز في سياق المقارنة مع ما كانت تتمتع به امرأته من جمال وصغر وثراء. ويبدو أن الطبري المؤرخ الكبير لم يشأ أن يقدم أحكاما متسرعة في حق زليخة امرأة العزيز، بل آثر النظر إلى تصرفها بنسبية ولم يتردد في التماس الأعذار لها ، مقتفيا بذلك الحلم الذي سلكه معها النص القرآني.

وتستمر القصة القرآنية بنفس أسلوب الحكى وتخبرنا كيف أن هذه الحادثة التي وقعت في بيت العزيز انتهت بتناقل الخبر سرا، بين كل شرائح المجتمع المصري آنذاك، مما فتح الباب أمام ثرثرة النساء ولومهن الذي لا ينتهي.

"فلما سمعت بمكرهن أرسلت إليهن وأعدت لهن متكئا وءاتت كل واحدة منهن سكيना وقالت اخرج عليهن فلما رأينه أكبرنه، وقطعن أيديهن وقلن حاش لله ما هذا بشرا إن هذا إلا

ملك كريم، قالت فذاكن الذي لمتنني فيه ولقد راودته عن نفسه، فاستعصم ولئن لم يفعل ما  
ءامره، ليسجنن وليكونا من الصاغرين"<sup>1</sup>.

ويصور القرآن الكريم في هذا الجزء من القصة، السياق الاجتماعي لذلك الوقت،  
والذي ينطبق على كل الحقب، حيث يؤكد على الأثر السيئ الذي خلقتة نخبة من نسوة  
مصر واللواتي لا شغل لهن سوى القعود في منازلهن وترجية الوقت بالقليل والقال والثثرة،  
حيث يعشن في رفاهية وبذخ ويتمعن برغد القصور. ففي هذه البيئة المصرية، التي يعمها  
الشرك وينتشر بين أهلها الانحلال والنفاق، انتقدت هؤلاء النسوة زليخة بشدة، وأبدن فرحا  
وسرورا فضيحتها الخاصة لقد استنكروا شغفها بخادمها الفقير، وهي المرأة الجميلة والغنية  
عقيلة ثري من أكبر أشراف المدينة.

ومن المهم أن نذكر أولا وقبل كل شيء بالوصف الذي أورده القرآن على لسان هؤلاء  
النسوة بخصوص حب زليخة ليوسف، والذي يبدو أنه كان معلوما لدى الجميع . إن عبارة  
شغفها حبا تصعب ترجمتها بكلمة "تحبه" فقط، لأن الشغف أقوى وأعمق من ذلك كله.

وبالفعل فإننا نجد ابن عباس رضي الله عنه يتحدث عن "الحب القاتل" حيث بين أن  
كلمة "شغف" ترمز للعشاء الداخلي للقلب، أو ما أطلق عليه "حجاب القلب"<sup>2</sup> لقد كان حب  
زليخة في نظره قويا جدا لدرجة أنه تغلغل في أعرق جزء من قلبها، فهو حب يخرق الحجاب

<sup>1</sup> - سورة يوسف، الآيتان 31-32.

<sup>2</sup> - ابن كثير، تفسير ابن كثير ص450.

الداخلي للقلب، وإلى نفس المعنى ذهب الشعراء المسلمون، وخصوصا الشعراء الفارسيون الذين وصفوا حب زليخة بـحب يمزق حجاب البراءة.

لقد عانت زليخة من ألم هذا الحب الذي لا يعترف سن، ولا بزمن، ولا بحقبة معينة . إنه داء حقيقي يصيب الإنسان منذ أن خلقه الله على وجه هذه البسيطة.

وقد خلد الشاعر الفارسي جلال الدين الرومي<sup>1</sup> هذا الحب في هذه الأبيات:

الحب كالحيط

حيث إن السموات فوقه كالزبد الحارق

مثل زليخة وحبها ليوسف

أما المتصوف الكبير ابن عربي، فإنه يصور هذا الحب الأسطوري في كتابه "الفتوحات المكية" فيقول "يحكى أن زليخة أصيبت بسهم أسال دمها فوق الثري، فرسم اسم يوسف فرددت هذا الاسم عدة مرات بدون شعور حتى سري في عروقها كالدم...".

وأصبحت زليخة في الأدب الصوفي الفارسي، والهندي والإسلامي، رمزا لأولئك اللواتي يعانين من هذا الداء. إنها بطلة محبة وشجاعة وقوية في نظر كل الذين أشفقوا عليها جراء معاناتها وآلامها: "الناس يرون على الدوام قميص يوسف الممزق... لكنهم لا يرون القلب الممزق والمكلوم لزليخة..."<sup>2</sup>.

<sup>1</sup> – Anne Marie Schimmel, la femme dans la spiritualité musulmane, Albin Michel, 1995,p71.

<sup>2</sup> –Supra p76.

لقد أحست زليخة بجرح بالغ بسبب ما قيل في حقها من طرف نساء المدينة واللواتي يبدو أنهن لم يستطعن فهم ما حدث لها، ولا إدراك ما كانت تعيشه في أعماق نفسها من شغف وحب.

ومن جهة أخرى فإن القرآن الكريم انتقد بصورة مباشرة سلوك هؤلاء النسوة، عندما تحدث عن مكرهن. والمكر لفظ يعني "الخداع" و "الاحتتيال". وقد وصف الله موقفهن هذا المكر وهي كلمة محملة بمعنى كثيف جدا. لقد أراد القرآن الكريم بهذا اللفظ أن يبرز استنكاره الشديد لفعل هؤلاء النسوة والذي يعد قذفا، وإن كان سلوك زليخة مع يوسف بشكل منكرا في حد ذاته. وبعبارة أخرى يبدو أن القرآن يؤكد على أن ليس للنسوة الحق في إطلاق أي حكم على زليخة أو بالأحرى قذفها، رغم السلوك الفاحش الذي قامت به. وهنا تكمن التربية الربانية المتشددة فيما يتعلق بعدم إطلاق الأحكام جزافا فيما يتعلق بحياة الناس وخصوصيات الأفراد. إن هذا هو ما أمرنا به الله تعالى، أي أن نفهم الآخرين، وتحترم خصوصياتهم، ونحافظ على الأخلاقيات العامة. إن القرآن يربي المؤمنين على التشدد مع النفس، والتساهل والتسامح إلى أبعد الحدود مع الآخرين. وهنا تتجسد خصلة أساسية من خصال المؤمن.

ومع الأسف فإن النزعة البشرية تدفعنا دائما إلى التسرع في إطلاق الأحكام وإدانة الآخرين دون أن ننظر إلى عيوبنا التي هي بدورها قد لا تقل سوءا وفضاعة عن عيوب الآخرين، فأخطأونا نحن أيضا قد لا تعد ولا تحصى. فكثيرات من النساء، وخصوصا في

ثقافتنا الإسلامية، من تعرضت لهذا النوع من الأحكام المتسرعة والقاسية، ووجدت نفسها في نهاية المطاف مدانة مدى الحياة نتيجة إما أخطاء بشرية في بعض الأحيان، أو نتيجة اتهامات لا أساس لها من الصحة أحيانا أخرى.

وتستمر القصة القرآنية في وصف زليخة على أنها أهينت إهانة مضاعفة. لقد أهينت في حبها الخالص ليوسف وأهينت في شرفها. وهذا ما دعاها إلى أن تعمل بدورها عملا ترد به الاعتبار لنفسها، وذلك من خلال وضع حيلة تكشف بها حقيقة الأمر بالنسبة لتلك النساء اللاتي قذفنها. لقد قامت بدعوتهن لمأدبة كبيرة في بيتها، فلبين دعوتها، غير أنه وبعد أن انتهين من تناول الطعام قدمت طن فواكه مع سكاكين لقطعها. وفي هذه اللحظة بالذات أمرت يوسف (عليه السلام) بأن يدخل إليهن، وما إن رفعن أعينهن نحوه، حتى انبهرن بجماله ووسامته انبهارا شديدا لدرجة أن قطعن أيديهن دون أن يشعرن بذلك، لقد انبهرن واندھشن بهذا الجمال الفتان، كما سحرن بجمال الشاب يوسف إلى درجة أنهن لم تعرن اهتماما لجروحهن وسيلان الدم من أيديهن. ومن ثم سرعان ما أقرن بعفوية وتلقائية بخطهن الجسيم في الحكم على زليخة، واعترفن أن هذا المخلوق الذي شغفها حبا لا يمكن أن يكون بشرا بل هو ملك فوق الأرض، لأن أعينهن لم تر أبدا من قبل جمالا بهذا الشكل.

ويروي لنا ابن كثير في تفسيره أن زليخة عقبته على موقف هؤلاء النسوة سخرية قاتلة طن "أنتن من نظرة واحدة فعلتن هذا فكيف آلام أنا؟"<sup>1</sup> التي يعيش معي في منزل واحد وأراه. صباح مساء. وكأن زليخة هنا أرادت أن تبرر سلوكها وتثبت لهؤلاء النسوة وللعالم

<sup>1</sup> - تفسير ابن كثير. سورة يوسف، الآية 31.

بأسره إذا لزم الأمر، أن حبها لهذا الرجل هو فوق طاقتها ولن تستطيع أي امرأة مهما كانت أن تردّه أو تتناساه. فمن خلال حماقتها، وعدم وعيها، وخطأها، واندفاعها دون تفكير... وفي تلك اللحظة، كان بالنسبة لها كل ما تقوم به مبررا. وكما هي الحال في جميع لحظات الضعف البشري لم تعد أمام حبها العنيف هذا تكثرث لأي شيء أو تحسب حسابها الشيء. لقد قررت مجازاة نزوتها العاطفية إلى أبعد الحدود. ولم تكن مستعدة للتراجع عن بلوغ غرضها وغايتها ولن يثنيتها عن ذلك إلا اليأس والفشل في استمالة الفى يوسف... ولذلك هددته حضور هؤلاء النسوة، وخيرته بين قبول إغراءاتها وحبها له، وبين أن تزج به في السجن. غير أن النبي يوسف (عليه السلام) وبفضل حكمته العظيمة المنبثقة عن الحماية والرعاية الربانية له، رفض الإذعان والرضوخ لرغبتها وغوايتها، رغم ابتزازها النفسي الواضح والمباشر.

لقد فضل يوسف أن يذهب إلى السجن رغم براءته، حتى لا يعيش سجيناً في معتقل أكبر تجشم عليه فيه أثقال الرغبات الحرمة والنزوات العاطفية العابرة والغد الغامض غير المأمون. لقد وعي كل الوعي أن هذه النزوات لا تدوم إلا لحظات قصيرة للغاية، لحظات المعينة، نتحسر ونندم عليها طوال حياتنا، ولا تترك في نفوسنا غير الإحساس بالذنب والضيق النفسي والمرارة. لقد اتخذ يوسف عليه السلام قراره هذا برباطة جاس ونفسية قوية، مما يدل دلالة قاطعة على عفته وكرامته وإيمانه القوي بالله وذلك على حد ما وصفه به



القرآن الكريم: "قال رب السجن أحب إلي مما يدعونني إليه، وإلا تصرف عني كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلين"<sup>1</sup>.

وتضرع يوسف إلى ربه العلي العظيم ليعينه على محنته ويمده بالقوة اللازمة حتى يقاوم ابتلاءه وتغلب على شهوته وضعفه البشري المفتقر إلى السند الإلهي، على حد ما جاء على لسانه.

ولعل هذا يوضح أكثر من أي شيء آخر البعد الحقيقي للإيمان الذي يصير قوة ويصبح بعد ذلك إرادة وعزيمة. قد يضعف هذا الإيمان وقد ينهزم أحيانا في بعض مراحل حياتنا، غير أنه إذا عرفنا كيف نقويه ونحصنه من الأهواء الفاسدة، سيصبح سدا حاميا من كل النزوات والنزوعات البشرية.

ورغم براءة يوسف فقد زج به في السجن... وكان السجن في هذا الابتلاء بمثابة الثمن الذي يجب أن يؤديه، وكان عليه السلام على أتم الاستعداد لدفعه لأنه كان واثقا من العناية الربانية التي كانت ترعاه وتحيط به. وبعد ذلك عاش مغامرات عديدة ذكرت بتفصيل في السورة القرآنية الكريمة. وفي نهاية المطاف وبعد طريق طويلة عين من طرف ملك مصر واليا على خزائن المملكة.

بعد ذلك تحدث القرآن الكريم عن الكيفية التي تم بها تبرئة ساحة يوسف، بعد النتائج التي أسفر عنها التحقيق الذي أجري تحت إشراف الملك حول دوافع سجن يوسف، وسبب جروح النساء اللاتي كن في ضيافة زليخة.

---

<sup>1</sup> - سورة يوسف، الآية 33.

وعلى إثر ذلك أقرت زليخة بذنبها وبرأت يوسف علنا أمام الملاء "وقال الملك ائتوني به، فلما جاءه الرسول قال ارجع إلى ربك فسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن إن ربي بكيدهن عليم، قال ما خطبكن إذ راودتن يوسف عن نفسه، قلن حاش لله ما علمنا عليه من سوء قال امرأت العزيز الآن حصحص الحق أنا راودته عن نفسه، وإنه لمن الصادقين، ذلك ليعلم أنني لم أخنه بالغيب وأن الله لا يهدي كيد الخائنين، وما أبرئ نفسي إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربي إن ربي غفور رحيم"<sup>1</sup>.

لا يمكننا أن نتلو هذه الآيات دون أن تأثر كثيرا بمشاعر هذه المرأة التي اعترفت بذنوبها علنا وبصوت عال، وأقرت براءة من آذته رغم أنها هي أيضا تأذت في شغفها بالفتى وحبها الخالص له، وزجت به في السجن دون وجه حق طيلة سنين... ونستشف من خلال هذا الاعتراف العلني الذي جرى أمام الملاء، ألم الإحساس بالذنب المفعم بصدق التوبة النابعة من أعماق امرأة حطمها حبها وشغفها العميق.

وقد اختلف بعض المفسرين القدامى حول تأويل الآيات الآنفة الذكر، فمنهم من أرجع الأقوال الأخيرة المتعلقة بالخيانة والنفس الأمارة بالسوء إلى يوسف عليه السلام وذلك حين آثار مع الملك الحديث حول ضعف النفس البشرية<sup>2</sup>. في حين يؤكد معظم المفسرين

---

<sup>1</sup> - سورة يوسف، الآيات 53 - 50.

<sup>2</sup> - يقول ابن كثير على لسان زليخة "إنما اعترفت بهذا على نفسي ليعلم زوجي أنني لم أخنه بالغيب في نفس الأمر، وه وقع المحذور الأكبر، وإنما راودت هذا الشاب مراودة فامتنع فلهذا اعترفت ليعلم أنني بريئة " وأن الله لا يهدي كيد الخائنين وما أبرئ نفسي (...). فإن النفس تتحدث وتتمني ولهذا راودته لأن "النفس الأمارة بالسوء إلا ما رحم ربي" أي إلا من عصمه الله تعالى " إن ربي غفور رحيم، وهذا القول هو الأشهر والأليق والأنسب بسياق القصة ومعاني الكلام (...). قال مجاهد وسعيد بن جبيرة وعكرمة وابن أبي الهذيل والضحاك والحسن وقتادة والسدي والقول الأول أقوى، وأظهر لأن سياق

الآخرين، وعلى رأسهم ابن كثير، أن زليخة هي التي أقرت بذنبها أمام الملائكة داخل القصر، واعترفت بأخطائها لكي تعيد بذلك الاعتبار ليوسف عليه السلام، وأن كل ما تلا ذلك في القصة من كلام حول النفس ونزواتها، كان صادرا عنها دون أدنى شك.

وفي هذا الصدد، عرض القرآن في مجموعة من الآيات حديث زليخة عن نفسها أو عن روحها ودواخلها، حيث اعترفت أن النفس البشرية بطبعها ميالة للأمر بالسوء، إن النفس الأمانة بالسوء. وهذا ما تعرضت له بالتفصيل كتب علوم القرآن حيث قسمت النفس البشرية بناء على ما جاء في النص القرآني الكريم إلى ثلاث حالات. فهناك حالة النفس الأمانة بالسوء أي النفس التي تأمر صاحبها بأن يفعل القبيح أو تعرضه لفعل القبيح كما اعترفت بذلك زليخة. وهناك النفس اللوامة<sup>1</sup> أي الواعية تمام الوعي بضعفها لذلك فهي دائما تسائل ذاتها وتحاسبها غايتها الوصول إلى درجة الكمال. وأخيرا هناك النفس المطمئنة<sup>2</sup> أي تلك التي تنعم بالسكينة وقوة الإيمان.

وعلى هذا النحو جسدت زليخة على حد وصف القرآن الكريم لها النفس البشرية التي تأمر بالسوء، لكنها لم تستسلم لها إلى الأبد، بل بالعكس أبانت عن مقاومة داخلية قوية سعت بجهد جهيد إلى تطهير هذه النفس الأمانة بالسوء ويظهر لنا ذلك بوضوح في نهاية قصتها في القرآن الكريم. ففي هذا المشهد الأخير الذي يصفه لنا القرآن نقف على درجة

---

الكلام كله من كلام امرأة العزيز بحضرة الملك ولم يكن يوسف عليه السلام عندهم بل بعد ذلك أحضره الملك. تفسير ابن كثير ص 455.

<sup>1</sup> - "ولا أقسم بالنفس اللوامة" سورة القيامة، الآية 2.

<sup>2</sup> - "يا أيها النفس المطمئنة" سورة الفجر، الآية 30.

الاضطراب الروحي الذي عاشته زليخة. غير أنها وبعد العمل الداخلي الجبار الذي قامت به، تمكنت من التوبة، واقتنعت بمصداقية الرسالة الروحية التي جاء بها يوسف (عليه السلام).

وإذا كان القرآن يصف لنا في نهاية أحداث هذه القصة، حالة زليخة النائبة التي تعاني من تأنيب الضمير والمعاناة الداخلية، فإنه لم يتحدث عن ما آلت إليه هذه المرأة في نهاية المطاف. وقد روى لنا بعض المفسرين القدامى والمؤرخين أيضا نهاية لقصة زليخة لا تخلو من رومانسية<sup>1</sup>. فإن يوسف عليه السلام بعد أن تدرج في أعلى مراتب الدولة، وبعد أن مات العزيز في ظروف غامضة، أصبح ملكا على بلاد مصر وتزوج زليخة في عرس بهيج تحت الأهازيج والأفراح! وهذه قصة رومانسية أخرى تذكرنا بزوجين ذكرهما الله في القرآن الكريم وهما سليمان وبلقيس.

وأخيرا، يتجلى البعد العميق والروحي لهذه القصة في تصوير القرآن لهذه العلاقة الدائمة التي تقوم بين الجمال والحب<sup>2</sup>! وبعبارة أخرى وكما يقول سيد قطب في تفسيره إن القرآن يواجهنا ببعض حقائق الحياة البشرية، ويصف لنا مواطن الضعف البشري، خصوصا تلك التي تتعلق بالنزوات الجسدية، وذلك حتى تكون واعين بأن هذه الرسالة موجهة خصيصا للبشر بمختلف أنواع ضعفهم، ولم توجه إلى عالم الملائكة<sup>3</sup>.

<sup>1</sup> - تفسير ابن كثير

<sup>2</sup> - Anne - Marie Schimmel voir reference supra.

<sup>3</sup> - سيد قطب، في ظلال القرآن ج 4 ص 1952.

ويقدم لنا القرآن أيضا من خلال قصة زليخة، المرأة التي كانت رغما عنها بظلة في الحب المحظور، درسا في الإنسانية والتسامح. وإذا كانت القراءة الحرفية لهذه الآيات تدينها دون رحمة، وتجعلها عنوانا للمراودة الأبدية، وتحملها المسؤولية النسائية في الغواية والحث على فعل المنكرات، فإن القرآن الكريم وصف بلطف كبير شغفها، وحبها القوي، ومعاناتها وكذا الموقف الصعب الذي وقفته عندما أرادت أن تكفر عن ذنبها، كما وصف في الأخير توبتها التي تشع صدقا وروحانية.

وكما لو أن النص القرآني في هذا الصدد، حاول تبديد الخوف الدائم من المرأة، ومن شهوتها المدمرة، وذلك بتقديم صورة للمرأة التي استطاعت بتطهير نفسها عن طريق معاناتها أن تجسد وإلى الأبد ضعف النفس البشرية الفقيرة. وفي كل مرة تعيد قراءة هذه الآية المتعلقة بالنفس الأمانة بالسوء، إلا ويتوجب علينا التفكير في معاناة زليخة ومن خلالها التفكير في ضعفنا الإنساني الذي لا يمكن بأي حال من التخلص منه.

### أم موسى وآسية: امرأتان متحررتان

لم يحدثنا القرآن في أي سورة من سوره عن والد موسى عليه السلام، بل ذكر فقط في كتابه العزيز أم هذا النبي الذي كان محبوبا عند الله سبحانه وتعالى. لقد كناها عز وجل بأم موسى حيث لعبت دورا أساسيا في حماية وتربية هذا الرسول الكريم.

وتروي التقاليد<sup>1</sup> أن موسى ولد في فترات مظلمة من تاريخ الإنسانية، حيث كان اليهود

يخضعون في بلاد مصر لعبودية وطغيان فرعون.

لقد رأى هذا الأخير في منامه حلما أزعجه كثيرا، فطلب من عرافي ومنجمي زمانه

تعبير رؤيته بفك رموزها، فأخبره هؤلاء أن حلمه ينبئ بقدوم وشيك لصبي من بني إسرائيل

سيسلبه سلطة الحكم وسيطرده من أرض مصر وسيفرض دينا جديدا.

انزعج فرعون من ذلك واستشاط غيظا وهلعا من أن تصدق الرؤيا، فأمر بقتل كل

مولود من مواليد اليهود تلك الليلة. ففي هذا الجو العام رأى موسى النور وفتح عينيه على

هذه الظروف الحالكة. لقد كانت مصر القديمة تزرع في ثقافة وحشية حيث عمل الفرعون

بكل وسائله أن يبقى على بني إسرائيل تحت قبضته يعيشون في ظروف لا إنسانية

ويخضعون العبودية مذلة.

ولقد صور القرآن هذا المشهد مرات عديدة موبخا بذلك طغيان فرعون ومدينا بشدة

السلطة المطلقة التي بات يرمز إليه : "نتلوا عليك من نبا موسى وفرعون بالحق لقوم

يؤمنون، إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعا يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم

ويستحي، نسائهم إنه كان من المفسدين، ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض

ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين"<sup>2</sup>.

---

<sup>1</sup> - الطبري، تاريخ الطبري ج 1 ص 130.

<sup>2</sup> - سورة القصص الآيات 53.

وضمت أم موسى طفلها من بعد أن أمر فرعون بقتل آلاف الأطفال اليهود. وحاولت دون جدوى التستر على ولادة جنينها خوفا من أن يلقي المصير نفسه. لكن كيف يمكن إخفاء ولادة الصبي الصغير والطاغية فرعون وأعوانه مجنونون بشدة يرصدون مواليد كل الذكور في أوساط طائفة بني إسرائيل؟! إنه امتحان عسير لقلب أم مسكينة! وفي غمرة الحالة التي كانت عليها من الغم والحزن، جراء التفكير في فقدان طفلها وعجزها عن فعل أي شيء من شأنه أن ينقذه من بطش فرعون، تلقت أم موسى الوحي الإلهي، إذ أمرها رب العالمين من فوق سبع سموات أن تضع ولدها في تابوت وتقفه على ضفاف نهر النيل: "إذ أوحينا إلى أمك ما يوحى، أن اقفيه في التابوت فاقدفيه في اليم فليلقه اليم بالساحل يأخذه عدو لي وعدو له وألقيت عليك محبة مني ولتصنع على عيني"<sup>1</sup>.

لم تتردد أم موسى ولو للحظة في الاستجابة لأمر الوحي الإلهي. لقد أرضعت طفلها وأعدت له قاربا صغيرا وضعته فيه ثم ألقته بعد ذلك في ضفاف اليم. ويمكن أن نتخيل الحالة النفسية التي كانت عليها هذه الأم التي تركت ابنها الرضيع في قارب هش، حقيقة لقد نجحت في إنقاذ رضيعها من قبضة الظالم فرعون ولكنها في الوقت ذاته تركت فلذة كبدها في اليم ليلقى مصيره المجهول لديها حتى تلك اللحظة. ما كان لها في ذلك الخيار دون شك، ومع ذلك يمكن أن تصور قوة إيمانها من خلال عمل شجاع كهذا... ورغم ألم الفراق، كانت تعرف أن عليها أن تكون مطمئنة لأن الله هو الذي أمرها بذلك. وأي دعم أكبر من أن يأتيها الأمر من لدن رب العالمين.

<sup>1</sup> - سورة طه، الآيتان 38-39.

ووصف لنا القرآن عبارات دقيقة خوفها ومشاعرها الحزينة، ولنقرأ كيف عبر القرآن الكريم بعبارات بسيطة وبالغة الروعة في نفس الآن من أن يطئمن قلب هذه الأم المنفطر قلبها على رضيعها : "وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه في اليم ولا تخافي ولا تحزني إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين"<sup>1</sup>.

وبالفعل فإن هذا الخطاب من شأنه أن يواسيها ويهدأ من روعها، بعث به الله تعالى لهذه المرأة حتى تتسلح بالصبر وتتجدد أمام هذا الكرب والألم الذي واجهته... وبرحمته الواسعة طلب الله منها أن لا تخف، وأن لا تحزن. وأن تسلم أمرها إليه.

لقد أراد الله عز وجل من خلال هذه الآيات أن يرسل رسالتين لهذه المرأة المكلومة. فمن جهة أراد أن يطمن قلبها، واعداد إياها بأن يرد طفلها إليها سنرده إليك ومن جهة أخرى أخبرها بمستقبل ابنها الذي كتب له من طرف رب العالمين أن يصبح من أنبيائه العظام. لقد أعطاها الوحي الإلهي هنا سببين لكي لا تخف ولا تحزن على الإطلاق. وسبب هذه المواساة الربانية الرائعة فقد اطمأن قلب أم موسى وتهدأ روعها رغم الحب الشديد الذي تكنه لصغيرها. ورغم إدراك الله لحزنها العميق فإنه حثها على الصبر والتجدد والإكثار من الدعاء... لقد كان الوصف القرآني للشعور الذي كانت تحسه أم موسى رائع جداً، كما كانت كلمات الله لها في غاية الرقة والعطف: "وأصبح فؤاد أم موسى فارغاً إن كادت لتبدي به لولا أن ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين"<sup>2</sup>.

<sup>1</sup> - سورة القصص، الآية 7.

<sup>2</sup> - سورة القصص، الآية 10.



في هذه الآيات يصف القرآن بدقة متناهية حالة قلب هذه المرأة الذي أصبح فارغا بعد أن فارقت ابنها. فالوصف بالفراغ دقيق للغاية والمجاز المستعمل هنا في القرآن يحاول أن يظهر إلى أي درجة من العمق بلغ بها الحزن والأسى. لقد فرغ قلبها من كل شيء سوى من موسى طفلها الرضيع... فلا شيء يملأ عينيها بعده... ولم يصبح أي طعم لحياتها دونه... ذكرها وحدها التي ظلت عالقة حية في فؤادها... وفي كل لحظة كادت أن تدفعها المعاناة الشديدة للصرخ آلمة وحسرة، والبوح بالسر وفضح كل شيء. لقد كانت على وشك أن تخون نفسها، لولا الطمأنينة والثبات اللذين وضعهما الله في قلبها. فهذه القوة التي حباها الله بها والتي وصفها القرآن بدقة كبيرة عندما استعمل لفظ ربطنا التي ترد في اللغة العربية مع "القيد" أو "العقد". لقد كان الامتحان عظيماً للغاية لدرجة أن الله "ربط" مشاعرها لكي يمنعها من الانفجار في اليوم العظيم.

فإن الله من خلال رحمته الواسعة، دعم هذه المرأة، ورافقها في حزنها وأمدّها بالقوة اللازمة للتثبيت وتصبر وتتنصر على الخوف الذي يسيطر على قلبها. لقد ثبت فؤادها وإيمانها وحماها برحمته وعونه في اللحظات العصبية... وبفضل الله سبحانه وتعالى اطمأنت وصبرت.

في هذا الوقت وصل التابوت الذي يحمل موسى إلى ضفاف رياض قصر فرعون. فاستقبلته زوجته أسية وسر قلبها بهذه الهبة التي أرسلت إليها من السماء. وحسب التقاليد فإن أسية كانت لا تنجب فتوسلت فرعون أن لا يقتله، وأن يدعها تتخذه ولداً : "فالتقطه آل

فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين، وقالت امرأت فرعون قرت عين لي ولك لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا وهم لا يشعرون"<sup>1</sup>.

في هذه الظروف العامة، طلبت أم موسى من ابنتها مريم أن تقتفي أثر أخيها وتستخبر عن كل ما يدور حوله. وهكذا علمت مريم أن أختها الرضيع رفض ثدي كل المرضعات وهو ما سيعرضه دون شك إلى الهلاك. ومن ثم راح كل من في القصر يبذل قصارى الجهود من أجل إيجاد امرأة يقبل الطفل أن يرضع من ثديها لتنتقذه من الهلاك المحتوم الذي قد يصيبه، خصوصا وأن آسيا زوجة فرعون هي التي كانت ترعاه وكانت تخاف حد الجنون من أن تفقده بعد أن ملأ حياتها. وهكذا كان التدبير الإلهي بتحقيق شيئا فشيئا بهدوء وأناة... يقول الله في كتابه العزيز: "وحرمنا عليه المراضع من قبل فقالت هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون"<sup>2</sup>.

تأثرت مريم كثيرا لما سنحت لها هذه الفرصة، ولم تدعها لتضيع حيث استغلت الاضطراب الذي عم القصر بشأن هذا الخطب، لتقترح بخجل مشفوع بذكاء ونباهة مرضعة لن يرفض ثديها الطفل. وهكذا استردت أم موسى طفلها الذي تركته في اليم يواجه المجهول. وأمام دهشة الجميع أخذت ترضعه بطريقة طبيعية جدا، ولم تظهر أبدا فرحها الشديد بلقاء صغيرها الحبوب. وبذلك تحقق جزء من وعد الله لها سبحانه الله العظيم.

<sup>1</sup> - سورة القصص، الآيتان 8-9.

<sup>2</sup> - سورة القصص، الآية 12.

عرضت آسية أم موسى أن تعيش معها في القصر وأن تصبح المرضعة الرسمية للمولود، إلا أن هذه الأخيرة اعتذرت بأدب متعللة بوجود أطفال لها آخرين وأنها لا تملك أن تتركهم بمفردهم لكنها في المقابل اقترحت عليها أن تأخذه عندها طيلة فترة الرضاعة. لقد أدركت أم موسى حينها المكانة التي أصبحت تحظى بها، فهي المرأة الوحيدة القادرة على إرضاع الصغير الذي أصبح تحت كنف آسية امرأة فرعون تتعهدده وترعاه! ومن ثم أصبحت في وضع يسمح لها أن تفرض إرادتها باسترجاع الطفل إلى بيتها وإطعامه هناك. لقد أرادت وبكل بساطة أن تسترد من هو في الأصل لها، ففي بيتها وبعيدا عن الأنظار ستتعلم بجرية تامة في التعبير عن حبها له، بعيدا عن عيون خدام القصر. لم يكن أمام آسية إلا أن تقبل شروط أم موسى التي كانت تعي أنها قد أصبحت في موقع يجعلها سيدة الموقف. كما كانت تحركها قوة كبيرة استمدتها من اقتناعها التام وثقتها العمياء بالعهد الذي قطعه الله سبحانه وتعالى معها. إذ لم تتوقف عن تذكر قوله تعالى إنا رادوه إليك. لقد وعدنا الله بداية برد ولدها إليها فما هو الآن بين ذراعيها سليما معافى... إن الله لا يخلف وعده.

وعلى هذا كانت العناية الريانية تسير شيئا فشيئا نحو اكتمال تحقيق الرؤيا، وكانت أم موسى، التي أصبحت ترفل في النعم الريانية، راضية مطمئنة قريرة العين... وقد كان ذلك راجعا لسبين، أولهما لقاؤها. بولدها وثانيهما فرحتها وسرورها لأن الله تعالى رب الأكوان

اختارها لأن تكون أما لأحد أنبيائه رغم فقرها وتواضعها! ويصف القرآن هذا المشهد قائلاً: " فرددناه إلى أمه، كي تقر عينها ولا تحزن ولتعلم أن وعد الله حق ولكن أكثرهم لا يعلمون"<sup>1</sup>.  
وكما وعد الله أمه من قبل، فقد رجع موسى إلى بيته الأصلي شعبانا وممثلنا بحب أمه وعطفها الذي مده بالحنان الضروري لتوازنه النفسي، وساعده في الوقت ذاته على تحمل المشاق... والامتحانات الإلهية القادمة.

وإذا كانت هناك من عبرة تستخلص من قصة أم موسى، فهي أنه بالإضافة إلى قوة قلب وعواطف الأم أبدت شجاعة كبيرة في مقاومتها للضغوط... مقاومة ما فتت أم موسى تعرب عنها بفضل قوتها الروحية وإيمانها العميق بالله والصبر على قضائه وقدره. لقد عرفت بعون الله كيف تتغلب على هيمنة فرعون وسطوته.

كل هذه دروس وعبر يمكن أن تستخلص من قصة أم موسى كما ذكرها القرآن...!  
امرأة استقرت بالوحي الذي تلقته، وعرفت كيف تصدي لقوى الشر التي يجسدها فرعون من خلال حكمه المتسلط والجائر.

لقد وعت أم موسى أنها تحمل على كاهلها مهمة جسيمة، مهمة إعداد طفل لتلقي رسالة موجهة للبشرية جمعاء: ألا وهي رسالة التحرر. فقد كان على موسى أن يحرر شعبه من الرق والعبودية التي فرضها عليهم فرعون، هذا الرجل الذي ادعى الألوهية وجسد الطغيان في أبشع صورته. طغيان على نحو ما نجده على مر تاريخ البشرية، وفي كل العصور وكل الحضارات والذي طالما حذر الله منه بني البشر... وعلى هذا الأساس أنشأت

---

<sup>1</sup> - سورة القصص، الآية 13.

أم موسى الحقيقية ابنها، وربته على رفض الرضوخ للظالمين ومقاومة مختلف صنوف الجور الإنساني.

وقد حظي موسى عليه السلام بوضع خاص، حيث عملت على تربيته بالإضافة إلى أمه الحقيقية امرأة أخرى هي آسية زوجة فرعون. وقد كانت امرأة فاضلة تتمتع بسمعة حسنة، صارت له أما بالتبني فيما بعد.

تعلقت آسية زوجة فرعون، كما سبق وأن رأينا، بهذا الطفل الذي جاء ليملاً الفراغ العاطفي الذي كانت تعاني منه بصورة فظيعة علاوة على النكد الذي كانت تعيشه مع زوجها المتسلط الجبار، ولذلك صورها القرآن على أنها امرأة مثالية: "وضرب الله مثلا للذين امنوا امرأت فرعون إذ قالت رب ابن لي عندك بيتا في الجن ونجني من فرعون وعمله، ونجني من القوم الظالمين"<sup>1</sup>.

وبذلك صنفتم ضمن أولئك النسوة اللواتي ذكهن القرآن بوصفهن نماذج للمثالية الروحية بالنسبة لكل المؤمنين. نماذج نسائية لهذا الإيمان السامي... إيمان رأى النور في مأوى الكفر.

وتصدت آسية مثلها مثل أم موسى، لطغيان فرعون وجبروته الذي كان عملته طوال حياته. لقد عاشت حياة بذخ ورفاهية وترف داخل قصر أحد أكبر الطغاة الذين عرفتهم البشرية، لكنها مع ذلك عرفت كيف تتأى بنفسها عن الملذات الزائدة التي يسمح بها هذا النمط من العيش، وتفرغ لعبادة الله الواحد الأحد.

<sup>1</sup> - سورة التحريم، الآية 11.

ولما كانت مضطرة للعيش تحت وطأة هذا الطغيان، تسلحت بالصبر والإيمان والزهد. مما ساعدها على بلوغ درجة الكمال البشري على حد ما أخبر به في حديث معروف، رسول الله سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم<sup>1</sup>.

وفي الوقت الذي كان فيه الجميع يسجد لفرعون وينحني أمام ملكه وسطوته، رفضت آسية هذا الاستعباد وأعربت عن رفضها للرضوخ والخضوع لمنطق المتسلط وعارضت جبروته رغم ضعفها وعجزها أمام الحكم المكيافيلي لفرعون الطاغية.

لقد جهرت آسية عاليا بإيمانها بالله، وجرأت على خرق قوانين ذلك الزمان التي جعلت من فرعون إلها على الأرض. وسبب هذه الثورة الروحية التي عبرت عنها عاشت آسية في مواجهة دائمة مع السلطة القائمة. إذ على الرغم من وحدتها وحرمانها ومعاناتها رفضت طوال حياتها الأمر الواقع: واقع الظلم والجور.

وبالطبع فهي التي سخرها الحق عز وجل لموسى عليه السلام من أجل تربيته على حب العدل والحرية...

وعلى هذا فقد نشأ موسى عليه السلام في كنف أمين نموذجيتين وبين عالمين متباعدين كل البعد. وبذلك تكونت لديه شخصية قوية متميزة بالحكمة والحزم.

لقد وضع موسى عليه السلام تبعا للإرادة الإلهية، تحت رعاية هاتين المرأتين الفريدتين من نوعيهما، لكي يهيئانه لتحمل الرسالة الإلهية، ويربيانه على مواجهة رموز

---

<sup>1</sup> - قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "كمل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلا آسية امرأة فرعون، ومريم بنت عمران، وإن فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام". رواه البخاري ومسلم والترمذي وابن ماجه. (المترجم)

الطغيان والجور والاستعباد. إنهما سيدتان حرتان قالوا لا للعبودية وللظلم وللاستغلال البشري... عاشت كل واحدة منهما في وسط مختلف لكنهما مشبعتان بنفس اليقين الروحي، لهذا علمناه كيف يقاوم جور الاستبداد المطلق ويبلغ لشعبه رسالة الكرامة والحرية كما أرادها الله أن تكون.

أحبت أم موسى وأسية ولدهما حبا جما، وحمياهم بعطفهم وحنانهم، ودافعا عنه بكل ما أوتيا من قوة، وعملا على تربيته وإعداده لما سيؤول إليه مستقبلا حين سيصير نبيا محررا للرجال... كما النساء.

### قصة لقاء بنت شعيب بموسى

من بين التحولات العديدة التي عرفتها حياة النبي موسى خلال حياته، يروي لنا القرآن الكريم لقاءه عليه السلام، في صحراء مدين مع فتاتين قرب ينبوع ماء. لقد التقاهما لما غادر قصر فرعون في مصر وهو شاب يافع ليذهب للعيش مع شعبه بني إسرائيل. لقد فر بعد أن قتل بيديه أحد المصريين الذي راه يسيء معاملة أحد أبناء شعبه، وخوفا من أن يعاقب على فعلته هذه، ذهب ليختبئ في صحراء مدين في الأردن حيث كانت تعيش قبائل من البدو الرحل. وهناك تم اللقاء المشهور بينه وبين الفتاتين.

"ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون ووجد من دونهم امرأتين تذودان قال ما خطبكما قالتا لا نسقي حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير، فسقى لهما ثم تولى إلى الظل فقال رب إني لما أنزلت إلي من خير فقير، فجاءته إحداهما تمشي على استحياء قالت

إن أبي يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا فلما جاءه وقص عليه القصص قال لا تخف  
نجوت من القوم الظالمين، قالت إحداها يا أبت أستأجره إن خير من استأجرت القوى  
الأمين، قال إني أريد أن أنكحك إحدى ابنتي هاتين على أن تأجرني ثماني حجج إن أتممت  
عشرا فإني عندك، وما أريد أن أشق عليك ستجدني إن شاء الله من الصالحين"<sup>1</sup>.

ويبدو أن الشيخ والفنانين المذكورتين في الآيات السابقات شخصيات غريبة وغامضة  
وبالفعل، فليس هناك أي مصدر يمكن أن يحقق بشكل تام على أن الشيخ المذكور هو نبي  
الله شعيب على حد ما تذكر التفاسير القرآنية. وكما ذكر ذلك الطبري في تفسيره فإن غالبية  
العلماء يعتبرون بالفعل أن الرجل الشيخ هو شعيب الذي ذكر في مواقع متعددة في القرآن  
بوصفه ملكا على شعب مدين. وبعضهم يزعم أن هذا الشيخ رجل صالح يدعى "جيثور"<sup>2</sup>  
عاش في تلك الفترة، مستدلين بقصص الشعوب الموحدة السابقة.

وقد ذكرت أيضا هذه الفترة من حياة موسى في التوراة تحت موضوع الهجرة، وفيها تم  
الحديث عن رجل دين يدعى جيثور<sup>3</sup> كان شيخا طاعنا في السن له بنتان. وفي بلاد مدين  
كما تشير التوراة تدخل موسى محاولا صد بعض الرعاة عن منع ابنتي جيثور من الوصول  
إلى البشر. لقد انبرى عليه السلام لنجدتهما وسقى قطيعهما من الماشية. وتروي لنا التوراة

---

<sup>1</sup> - سورة القصص، الآية 23-27

<sup>2</sup> - سيد قطب، في ظلال القرآن ج 5 ص 2787.

<sup>3</sup> - التوراة، الهجرة ج 2، 16



أيضا أن موسى (عليه السلام) تزوج سيفورا إحدى بنتي الشيخ. وقد روى القصة نفسها المفسرون المسلمون مع بعض الاختلافات الطفيفة<sup>1</sup>.

إن الآيات القرآنية التي تحدثت عن هذه القصة أبرزت منذ الوهلة الأولى مروءة ومودة ولطف موسى عليه السلام الذي تأثر عندما رأى امرأتان وقطيعهما وقد تم إبعادهما عن البشر من طرف الرعاة حيث استولوا عليه ليرووا عطش قطيعهم، ولم يحتفلوا تماما بماشية تلك المرأتين المغلوبتين على أمرهما.

ومع أنه غريب عن أراضي مدين بخلاف المرأتين اللتين تنتميان إلى ساكنتها، أحس أنهما مثله غربتين غوته، وكان هذا الإحساس من بين الأسباب الكامنة وراء دعوته للتضامن معهما بل ودفعته أيضا إلى تقديم يد المساعدة والعون<sup>2</sup>. لقد كان موسى منهك القوى جراء طول سفره من مصر، ومتعبا ما آلت إليه حياته بعد أن صار فارا وتائها في صحراء مدين. وهنا يكمن سر دعائه ونجواه الحزينة إلى الله حين أعرب عن ضعفه واستنفاد قواه "رب إنني لما أنزلت إلي من خير فقير"<sup>3</sup>. وجزاء له، أرسل له الله تعالى إشارة أمل، وكيف لا وهو الواحد سبحانه القادر على إرسال هذا النوع من الإشارات... ففي أعلى درجات اليأس والقنوط فإن الله سبحانه وتعالى يعلم كيف يرسل إلينا الإشارات التي تنير قلوبنا وتدخل الطمأنينة والسكينة في نفوسنا...

---

<sup>1</sup> - تفسير ابن كير.

<sup>2</sup> - تفسير القشيري، لطائف الإشارات .

<sup>3</sup> - سورة القصص الآية 24.

وبينما كان موسى منزويا منحسرا في خويصة نفسه يعاني كابته ومرارته، إذ أحس فجأة بنور أشع حياته عند حضور المرأتين الأنفتي الذكر... وبكل رقة ولطف، اقتربت منه إحداهما وهي تمشي في استحياء لتدعوه للذهاب معهما لرؤية أبيهما الذي يريد أن يشكره ويجزيه على ما فعل معهما.

لقد تمت ضيافة موسى، وهو الذي كان قبل بضع لحظات فقط يحس بالوحدة في هذا العالم ويدعو ربه أن يفك عزلته ويفرج كربه. استقبله الشيخ بترحاب ومودة واستمع تمعن كبير لقصته، فتعاطف معه ودعاه للإقامة معه ضامنا له وشعبه الحماية والأمان.

وكما يحكي لنا القرآن الكريم فإن إحدى البنيتين ناشدت أباهما الشيخ بأن يستأجر هذا الشاب لما وجدت فيه من قوة وأمانة. وتستعرض التفسير القرآنية خصائص القوة والأمانة التي وردت على لسان الفتاة "إن خير من أشجرت القوى الأمين"<sup>1</sup>.

حيث نجد مجموعة من التعاليق التي حاولت الوقوف على القوة الجسمانية التي كان يتمتع بها موسى عليه السلام والعفة والمروعة التي عامل بها المرأتان. وهكذا تحكي لنا التفسير أنه من أجل مساعدتهما وتكين مواشيتهما من أن ترد الماء، رفع موسى الصخرة التي كانت تسد البر والتي كانت تحتاج من عشرين إلى أربعين رجلا لثقلها وصلاتها وهذا ما يدل على جانب القوة فيه. أما بخصوص استقامته، فقد تم استنتاجها من خلال عفته ونبله وهو يرافق الفتاة الشابة إلى بيت أبيها. فحسب ما ترويه التفسير، فقد طلب موسى من الفتاة أن تدله على الطريق برميها أحجار صغيرة في المسار الذي يجب أن يقطعه. ويروي آخرون

<sup>1</sup> - سورة القصص، الآية 26.

أنه حين كان يرافقها هبت ريح رفعت أطراف كسوة الفتاة ما دعاه إلى أن يطلب منها أن تسير وراءه في الطريق حتى لا يطلع عليها . هذه على العموم في التعليقات والإفادات التي نجدتها في معظم التفاسير القرآنية بخصوص فضائل و مزايا موسى عليه السلام<sup>1</sup>.

لقد كان موسى عليه السلام قويا لما حباه الله به من قدرات جسمانية هائلة، كما كان مستقيما وجديا من خلال السلوك الذي عامل به الفتاة أثناء مرافقته لها في الطريق. وهذا ما جعل حسب تفسير القدماء، الشيخ يقترح عليه العمل معه وتزويجه بإحدى ابنتيه.

وقد انتقد بعض المفسرين هذا النوع من التفاسير التي اعتبرها تقف على جزئيات لا طائل تحتها مليئة بالأحاسيس المتكلفة ليس إلا وفضلوا تجاوز هذه الأوصاف التي لا تضيف شيئا ذا بال بالنسبة لهذه القصة الواضحة والشفافة.

فلم يكن لا موسى عليه السلام، ولا الفتاة التي وصفها القرآن الكريم وهي تمشي نحوه عليه السلام في استحياء، يحتاجان لهذه التفسيرات المتكلفة للاستدلال على أخلاقهما العالية التي لا تشوبها شائبة.

فالآيات القرآنية هنا على بساطتها ودقتها توضح لنا المعاني العميقة التي يجب استخلاصها. ولم تترك مجالا في حقيقة الأمر لكل تلك التعليقات والشروح التي يقدمها المفسرون بوصفها إيضاحات مهمة رغم أنها في الواقع بسيطة للغاية قد لا تصلح حتى المخاطبة عقول الأطفال. إن المعاني القرآنية في هذا الصدد كانت أرقى وأعمق من تلك

---

<sup>1</sup>- يمكن الرجوع إلى التفاسير : الطبري، ابن كير، الجلالين، القرطبي، البيضاوي

التفاصيل الزائدة وغير المقيدة. غير أن بعض المفسرين القدماء ظلوا حبيسي هذه النظرة الضيقة التي تركز على السطح والقشور رغم أن غاية هذه الآيات، أبعد من ذلك بكثير.

فالنص القرآني لم يعط أي تفاصيل حول الكيفية التي تم بها اللقاء بين الفتاتين وموسى عليه السلام وكلهم شباب، ولكن بفضل أسلوبه الخاص، استخدم اشارات رقيقة هي وحدها التي قد تدلنا على مقصوده. وفي هذه الآيات بالخصوص، فالإشارات المستعملة في النص تقدم دلائل واضحة نفهم منها أن هذه الواقعة لم تكن عرضية. وأن شيئاً ما قد حدث بين موسى عليه السلام وإحدى الفنانيين، وأن هذا الشيء كان نبيلاً وتلقائياً في الآن ذاته.

ويصور لنا النص القرآني سحر هذه اللحظة بكلمات بسيطة ومنقاة بعناية في نفس الآن: لقاءهما بجانب النبع... وشجاعة موسى... والوصف الذي قدمت به الفتاة موسى لأبيهما... الفتاة المحتشمة والمصممة أيضاً... ودعوتها المهذبة جداً... كلمات تجسد ضمناً التقاء قلبين، ارتبطا فجأة وتتاغما داخلياً سبب الثقة المتبادلة والتلقائية وكذا المشاعر التي وإن كانت مضطرة لكنها برة صافية.

ولا يمكننا قراءة هذه الآيات دون أن ندرك التاريخ الرومانسي الذي يكمن خلف هذه الكلمات البسيطة، والدقيقة والكثيفة في آن ذاته: الحزن الذي يعتري موسى عليه السلام منذ بضعة أيام، وشعوره عند رؤية الفنانيين المهمشين في تلك البيئة الاجتماعية الصعبة، وافتتان إحداهما بجمال روح هذا الفتى الغريب لحد أن طلبت من أبيها بقاءه معهم في بيتهم... ومعها هي بالذات.

أعجبت هذه الفتاة بنبل هذا الفتى الغريب، الجسور واندوم أكثر من أهل بني قومها ورغم خجلها وحشمها اللذان وصفت بهما في القرآن، فإنها اقترحت على أبيها أن يستأجره... "القوى الأمين"<sup>1</sup>. لقد كان الأمر واضحاً لا يحتاج إلى إثبات بالنسبة لأبيهما الشيخ الكبير، وهذا ظاهر في عينها، فمشاعرها الجياشة كان من الصعب عليها أن تخفيها. وما إن انتهى الشيخ من سماع قصة هذا الغريب المقدم، حتى اقتنع بصدقه وأمانته، وطلب منه وبكل بساطة وصراحة أن ينكح ابنته... فهو إذن لم يبق في الواقع إلا بنقل رغبة ابنته إلى الفتى موسى.

وقد فهم الأب، بحكمته، أن شيئاً ما حدث بينهما... وأن مشاعرا جمعتهما وجمعت روحيهما... لقد تم بينهما ميل عاطفي تلقائي يمكن أن نسميه بلغتنا المعاصرة حب النظرة الأولى.

ويصف لنا القرآن الكريم هذا بشكل مباشر لا غموض فيه، لأنه ليس هناك ما يدعو إلى إخفاء المشاعر الرقيقة والأحاسيس الصادقة والأغراض النبيلة. وربما هذا أهم ما يجب أن نستشفه من لقاء موسى عليه السلام مع زوجته في المستقبل. إن عفوية اللقاء، ومصادفة توأم الروح هي إحياءات تعبر أكثر مما تعبر عنه أبلغ خطابات الحب... لأن أسمى المشاعر يعبر عنها عادة بالأفعال الطيبة والكريمة...

وقد وصفت امرأة موسى عليه السلام، في أحد التفاسير بكونها تحلى بـ "روح الفروسية". وبالفعل فعن ابن مسعود أن سفيان الثوري روي عن الرسول صلى الله عليه وسلم

<sup>1</sup> - سورة القصص، الآية 26.

أن ثلاثة أشخاص يتحلون بهذه الفروسية، وهم: أبو بكر الصديق رضي الله عنه الذي عرف سلوكه النبيل والصادق، والعزير الرجل الذي تبنى النبي يوسف والذي أظهر اتجاهه الرأفة والطيبة، وابنة شعيب التي تعنت موسى عليه السلام بالقوي الأمين<sup>1</sup>. لقد أصبحت هذه الجملة، بالتأكيد، مقولة مستعملة كثيرا في الخطاب الديني، غير أنه مع الأسف، تم إغفال جانبها الحسي والعاطفي بل الاستخفاف والتقليل من شأنها. وهكذا فإننا في هذه الآية نمر مرور الكرام إلى حد الازدراء والاستخفاف على صرخة فؤاد الفتاة، التي لم تفعل شيئا سوى التعبير عن حبها ومشاعرها نبل كبير. وبعبارة أدق، لقد أعلنت حبها بصدق وإخلاص لهذا النبي المصطفى عليه السلام.

### مريم، المفضلة

بدون أدنى شك، تعد مريم التي ذكرت في القرآن الكريم، من أكثر الشخصيات النسائية شيوعا وذيوعا. لقد طبقت شهرتها الآفاق وتدوول اسمها وقصة حياتها في جميع التقاليد والثقافات. وتبدو هذه المرأة، التي قبلها البعض وأجلها البعض الآخر إلى حد التقديس، ونظر إليها آخرون بتقدير وتكريم، من بين الشخصيات النادرة التي حصل حولها الإجماع عبر تاريخ البشرية.

---

<sup>1</sup> - إن أصل هذا الحديث هو كالتالي : قال ابن مسعود رضي الله عنه : أفرس الناس ثلاثة: العزيز في يوسف حيث قال لامرأته أكرمي مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا وابنة شعيب حين قالت لأبيها في موسى : استأجره. سورة القصص الآية 26، وأبو بكر في عمر رضي الله عنهما حيث استخلفه وفي رواية أخرى : وامرأة فرعون حين قالت : قرّة عين لي ولك لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا، سورة القصص، الآية 9.

## مريم، صلة وصل بين المسيحيين والمسلمين

"من خلال معرفتي العامة بالقرآن الكريم، وكذا معرفتي بالآيات التي يتضمنها بخصوص المسيحيين وعيسى ومريم والرهبان على وجه الخصوص، بدأت أدرك أن لي نصيبا في القرآن الكريم، وأصبح لا يبدو لي غريبا كما أصبحت أحس أنني لا أبدو غريبا عليه... إنه كتابي كما هو كتاب المسلم... لقد بدا لي هذا الكتاب المقدس أنه وجه منذ البدء إلى كل إنسان مؤمن بالله واليوم الآخر..."<sup>1</sup> إن هذه العبارات الجميلة جدا هي عبارات مؤمن مسيحي أذهلته أشياء كثيرة من ضمنها ما راه من تعظيم وتكريم في القرآن لمريم العذراء المعروفة في التقاليد المسيحية.

فإذا كان علينا أن نجد نقطة تقاطع واحدة بين الديانتين المسيحية والإسلامية فإننا سنختار بالإجماع ودون تردد شخصية مريم أم عيسى عليه السلام. ولا يبدو حول هذه المسألة أي خلاف جوهري حول هذه الشخصية. كما أن الذي يربطون بين الكتب المقدسة للديانتين سيستغرب كثيرا من نقط الشبه الكثيرة بين الإسلام والمسيحية، خصوصا إذا كان من أولئك الذين يؤمنون عن خطأ بأن الإسلام لا يمكن أن يكون إلا مصدرا للحقد ونبذ الآخر... كيفما كان هذا الآخر!.

ففي هذا الصدد، تبدو مريم إذن صلة وصل حقيقية بين المسلمين والمسيحيين وتجسد بامتياز الجسر الروحي الذي يدعو لتوحيد الذي تكفل به جد الانبياء إبراهيم عليه السلام .

---

<sup>1</sup> – Nasri Salhab, L'Islam, tel que je l'ai connu; religion de la clémence et de la paix, Publications de l'isESCO, Chapitre 3.

هذه المرأة التي فضلها الخالق على العالمين ستعمل على إحياء التوحيد الذي كان إبراهيم من الوجوه العالمية المعروفة بشأئه، غير أنها عندما قامت بهذا العمل قامت به بوصفها امرأة وهذا ما أضاف بالنسبة للقرآن بعدا جديدا من أبعاد عجائبه سبحانه وتعالى<sup>1</sup>.

وفي إطار هذا الجو الإسلامي العام والذي تسيطر فيه الثقافة الرجولية، اعتبرت مريم امرأة ذات كمال أبدي، ومنحت حسب الرؤية القرآنية، وضعا متقدما ومكانة خاصة جدا وصلت إلى مقام التكريم النبوي<sup>2</sup>.

ولا يخفى أن القرآن الكريم رقم مريم إلى درجة لم تصلها أي امرأة في تاريخ البشرية وهو ما لا ندركه نحن المسلمين بشكل جيد. وقد وصفت الأدبيات الصوفية الإسلامية هذه المكانة التي تبوأتها مريم على أنها كانت مهياة لها سلفا، لقد كانت امرأة ذات منحى استثنائي وتمتع ب " اصطفاء أبني قبلي"<sup>3</sup>.

كما أن مريم هي المرأة الوحيدة التي ذكرت في القرآن باسمها الحقيقي، وهو ما يقوم دليلا قاطعا على قربها من الله ! علاوة على المكانة التفضيلية الخاصة التي من الله لعائلتها آل عمران<sup>4</sup> "إن الله اصطفى ادم ونوحا وآل إبراهيم و آل عمران على العالمين، ذرية بعضها من بعض والله سميع عليم"<sup>5</sup>.

<sup>1</sup> –Michel Dousse, Marie la musulmane, Albin Michel, p207,2005

<sup>2</sup> – هذا المفهوم استخدمه بيير لوروي في الدراسة القيمة التي أنجزها حول مريم أم المسيح عند مفسري الصوفية المسلمين، ماي 2005. موقع : freud-lacan.com

<sup>3</sup> –Pierre lory, Idern.

<sup>4</sup> –Pierre lory, Idem.

<sup>5</sup> – سورة آل عمران، الآية 34 – 33



## ولادة مريم

ما إن ولدت مريم، حتى دخلت البشرية في ملحمة جديدة من ملاحم رسالات الوحي. لقد كانت ولادتها بداية للتجديد الروحي العميق الذي ظل إلى الأبد راسخا في ذاكرة التاريخ... وقد احتفل القرآن الكريم أيضا بمجيء مريم، إحدى النساء الأكثر أهمية في تاريخ البشرية والتي تبقى مسيرتها الروحية، دون أدنى شك من أجمل المسيرات في العالم... وبدأ تاريخ ميلاد مريم في القرآن الكريم من النقطة الزمنية التي تضرعت فيها المرأة التي أنجبته والتي ذكرت باسم "زوجة عمران"، وأطلق عليها المؤرخون المسلمون "حنة"، أما "أنا" فهو الاسم الذي ذكرت به في التقليد المسيحي<sup>1</sup>. كانت هذه المرأة شديدة الإيمان، حيث تحققت أمنيتها في الإنجاب بعد طول انتظار وبعد عقم استمر سنوات، وبعد دعائها وتضرعها إلى الله وبكائها عليه. شرت بنبا حملها الذي أدخل في نفسها البهجة والسرور، ومن فرط فرحتها، نذرت ما في بطنها محررا لله، نونا على شكرها وامتنانها الكبير. وهكذا يصف القرآن الكريم هذا الموقف.

"إذ قالت أمرات عمران رب إني نذرت لك ما في بطني محررا فتقبل مني إنك أنت

السميع العليم"<sup>2</sup>.

<sup>1</sup> - لا توجد أي إشارة في كتاب الإصحاح لهذا الاسم

<sup>2</sup> - سورة آل عمران، الآية 35.

وقد كانت حنة الورة النقية، تشناق شغف كبير أن تنذر مولودها لله، أي حسب لغة ذلك الزمان، أخذت على نفسها أن تهب حياة مولودها بشكل كلي لخدمة المعبد المقدس. وبالفعل، وحسب تقاليد ذلك الوقت كانت الطقوس اليهودية تسمح بأن تكرر حياة الأطفال منذ الولادة لخدمة المعبد، غير أن هذا التقليد ينطبق على الذكور دون الإناث بدعوى أن الحيض عند الإناث مصدر للنجاسة، وهو ما يتعارض مع الطهارة الدائمة المفترضة في هذا المكان المقدس. وتجدر الإشارة إلى أنه عبر عصور تاريخ البشرية، كان التمييز ضد الأنثى شيئاً متداولاً جار به العمل، ويظهر بصورة واضحة في مجال المقدس حيث يتم الزعم أن هذا المجال حكر على الذكور بناء على الأوامر الإلهية! وحسب منطق الأعراف في ذلك العصر، كان على حنة، لكي تتمكن من تحقيق وعدها، أن تضع مولودها ذكراً حتى يستطيع أن يقوم بهذه المهمة الدينية التي لا يضطلع بها إلا الرجال الصالحون. لقد كانت تعلم إذن أن ترى مولود المستقبل من بين المؤمنين المصطفين في أمتها. وكانت تريد أن يكون طفلها محرراً من عبودية الدنيا. وتحدث التفاسير القرآنية الأولى<sup>1</sup> وكذا تفاسير الصوفية عن أمنية حنة في رؤية مولودها محرراً من متاع الحياة الدنيا وشهوات النفس.

فقد كانت حنة تريد أن يكرس وليدها حياته كلياً لحب الله وطاعته وخدمة أنبيائه وعباده الصالحين وكل أولئك الذين كانوا يعيشون في البيت المقدس<sup>2</sup>. وينسجم هذا الطرح مع بعض المفسرين الذين تعتوا أم مريم بالروح النقية التي عند ما وهبت مولودها الله تعالى،

<sup>1</sup> - تفسير ابن كثير والطبري والقرطبي.

<sup>2</sup> - سهل التستري تفسير القرآن العظيم ببيير لوروى.

أعطت درسا رائعا عن تحرر الإنسان. فقد كانت تريد أن يكون مولودها محررا من كل شيء إلا من الله... وهو التفسير الجيد لمعنى الخضوع لله، وصورة رائعة للانخراط التام في مبدأ التوحيد الإلهي.

ولشد ما كانت دهشتها عندما رأت المولود الذي منحه الله إياها! لقد وهبها الله إليها! وكيف للأنثى أن تقوم بهذه المهمة المقدسة التي لا يضطلع بها إلا الذكور؟ ! لقد أبدت حنة في بداية الأمر، خيبة وحسرة، وقد وصف القرآن أم مريم وهي تحاول أن تخفي حزنها عندما علمت أنها وضعت "فتاة مسكينة"، بعد أن قطعت على نفسها أن تهب مولودها الذكر خالصا لله حتى ينذر حياته للعمل الديني المقدس. وفي غمرة حيرتها هاته، دعت حنة خالقها بأسف وتسر: "فلما وضعتها قالت رب إنني وضعتها أنثى والله أعلم بما وضعت وليس الذكر كالأنثى وإنني سميتها مريم وإني أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم"<sup>1</sup>.

أحست حنة إذن بحزن كبير بعد أن خاب أملها، غير أن الذي كانت تخشاه أكثر أن تخيب أمل الله فيها، إن لم تستطع أن تقي بما وعدت به، غير أننا نستشف من خلال حزنها هذا، شعورا وإحساسا بتمرد خفي ضد ظلم هذا الحرف الذي يميز بين الذكور والإناث. لقد عبرت عنه بشكوى شخصية لله تعالى وليس الذكر كالأنثى وهو إقرار رددته بمرارة بين يدي الله عز وجل... وبذلك كانت حنة تشتكي من هذا النظام الاجتماعي القائم الذي يمنع الفتيات من الوصول لهذه السلطة الدينية. وفي مناجاتها الله تعالى شت حزنها إليه وكشفت له عن ما يؤرقها، وحاولت أن تقنع نفسها بأن نذرها يمكن أن يتحقق حتى بوجود فتاة!

<sup>1</sup> - سورة آل عمران، الآية 36.

فتضرعت إلى الله أن يقبلها ويحميها "وإني سميتها مريم وإني أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم"<sup>1</sup>. وفي لغة ذلك الزمن كان اسم مريم يعني التقية أو خادمة الله<sup>2</sup>. وكانت حنه من خلال تسمية مولودتها هذا الاسم، قد عبرت عن إصرارها وثقتها في أن يستجيب الله لدعائها.

ويرى القدماء من خلال تفاسيرهم<sup>3</sup> لهذه الآية "والله أعلم بما وضعت" أن الله استجاب لشكوى حنه، بالتهديء من روعها وطمأننتها بأن هذه الأنثى التي منحها ستكون أفضل بكثير من الذكر الذي كانت تنتظر محبيه وتتمناه. وأن ما حبا المستقبل لها بعيد كل البعد عن ما كانت توقعه للذكر! فاستجاب الله لها كما ذكر في الآية: "فتقبلها ربها بقبول حسن"<sup>4</sup>.

وبالرغم إذن من أن دور المحرر أو بعبارة أخرى ذاك الذي يضطلع بمهمة التفريغ لخدمة المعبد كان حكرا على الذكور دون الإناث، فقد اختار الله تعالى أنتى ومنحها هذا الفضل الديني، الذي يطمع فيه الجميع وتشتد حوله المنافسة، ولا يمنح إلا للرجال المصطفين المتقين في ذلك العصر. فإله إذن اختار أتى ليكسر هذا الحرف الظالم، ولينبه على هذا التمييز الجحف والشائع في ذلك الوقت، وليبين للبشر أيضا أن الأفضلية لا تكون بناء على جنس الذكر أو الأنثى بل تقوم على الورع والتقوى، ولعل هذا ما جلب لمريم الإعجاب والتقدير سواء من معاصريها أو من جميع البشر على وجه العموم...

<sup>1</sup> - سورة آل عمران، الآية 36.

<sup>2</sup> - يمكن الرجوع في هذا الصدد لتفسير القرطبي

<sup>3</sup> - ينظر تفسير الكشاف للزمخشري

<sup>4</sup> - سورة آل عمران، الآية 37.

ومع ذلك فقد قام بعض المفسرين والمفكرين المسلمين، بإخراج الآية "وليس الذكر كالأنثى" عن سياقها التاريخي، وأسندوا إليها تفسيراً يسير في اتجاه مخالف تماماً للمعنى الحقيقي الذي جاء في القرآن.

بالفعل، ففي الوقت الذي كان الأمر يتعلق كما تمت الإشارة من قبل، بإصلاح الوضع وإلغاء الأعراف السائدة آنذاك والتي تركز التمييز بين الجنسين، يلاحظ هنا أن البعض استعمل هذه الآية ليبرر بها دينياً تفوق الرجال على النساء!<sup>1</sup> رغم أن الآية الكريمة صريحة في دعوتها لإصلاح الوضع المحتل، وإلغاء كل الأعراف والتقاليد التي تغط النساء حقهن. وقد تشببت بعض المفسرين بهذا التأويل الذي يكرس ثقافياً دونية المرأة ويزعم أن هذه الآية تقوم دليلاً دينياً على تفوق الذكور على الإناث.

إن الذي يثير الانتباه أكثر أن الحجة المزعومة المقدمة من طرف هؤلاء المفسرين غاية في الابتذال ومبعثاً على الضحك والسخرية، حيث يدلل بعضهم على دونية المرأة، بكون هذه الأخيرة على خلاف الرجل ليست مرغمة، خلال شهر رمضان، على قضاء أيام الصوم في حالة حدوث جماع، وهو اتصال محرم عادة خلال شهر الصيام<sup>2</sup>. ولا نرى جيداً أين هي العلاقة ولا حتى المنطق الذي يكمن خلف مثل هذه الأحكام والآراء، رغم النص

---

<sup>1</sup> - راشد الغنوشي مرجع السابق ص 26.

<sup>2</sup> - جاء في تفسير القرطبي بخصوص هذا الرأي ما نصه: "استدل به بعض الشافعية وليس الذكر كالأنثى على أن المطاوعة في نهار رمضان لزوجها على الوطء لا تساويه في وجوب الكفارة عليها. قال ابن العربي وهذه مند غفلة فإن هذا خير عن شرع من قبلنا وهم لا يقولون به. وهذه الصالحة أي أم مريم إنما قصدت بكلامها ما تشهد له به بينة حالها، ومقطع كلامها، فإما نذرت خدمة المسجد في ولدها، فلما رأته أنثى لا تصلح وأنها عورة، أعترضت إلى ربما من وجودها لها على خلاف ما قصدته فيها" ج 5 ص 103.

عليها في أمهات كتب التفسير!. كما يذهب البعض الآخر من المفسرين مذهباً آخر عندما يطيل الوقوف على مسألة الحيض عند النساء وما يترتب عنها من تحولات فيزيولوجية، وذلك من أجل إضفاء الشرعية على التفوق البيولوجي للرجال على النساء وبالتالي اعتبار المرأة كائناً دون الرجل لا مجال لمقارنته معه. إن كل هذا يشكل الأساس الذي يعتمد عليه البعض حججاً وأدلة قاطعة على دعواهم بخصوص استحالة مساواة النساء بالرجال.

ومن الطبيعي أن نقول إن هناك اختلاف بين الرجل والمرأة فيما يتعلق بالبنية الجسمانية، لكن ذلك لا يمكن أن يقرر بأي حال من الأحوال تفوق أحدهما على الآخر. فهذه النظرة هي في الواقع تقوم على التخالف وليس التفاضل. فأن تكون امرأة أو رجلاً هو أن تكون الآخر دون أن تكون أقل من الآخر، والاعتراف بحق المساواة لا يتنافى مع الاعتراف بحق التحالف.

نلاحظ هنا كيف أن تفسير الآية الآنف الذكر عوض أن ينظر إليها بوصفها نزلت من أجل تصحيح الوضع وإلغاء التقاليد والأعراف غير العادلة اتجاه النساء، جعلها حجة للتهميش الذي كرسه هذه الأعراف في حق المرأة، وعملت على إبقائه بدعوى انسجامه مع مبادئ الإسلام! .

ومن خلال هذه القصة التي تحكي ولادة مريم، احتفى الله بالمرأة مرتين، أولاً عندما استجاب الدعاء الأم المؤمنة وحقق لها أمنيتها عندما كانت تتاجيه معبرة عن امتعاضها من

هذا العرف الذي يميز بين النوعين البشريين. وثانيا حينما جعل من مريم المرأة التي ستقوم بهذا الدور، وهكذا كرم الخالق الأم وابنتها وجعلهما مرضيتين.

لما سألت حنة الله تعالى بأن يجعل ابنتها كائنا بشريا محررا، بلغت هذا الدعاء إلى البشرية جمعاء. لقد ولدت مريم متحررة من كل الضغوط. وهكذا فمن زهد مريم وورعها سيرسل الله رسالة إلى نساء ورجال الأرض، تدعوهم للتخلص من سجن شهوات الحياة الدنيا . وهنا دون شك يكمن المعنى العميق للنظرة الإسلامية بخصوص التحرر البشري...

### اعتكاف مريم الروحاني

تبعاً لأمنية أمها ووعد الله لها بأن يحميها من كل سوء، نشأت مريم في بيئة متدينة وروحانية وتقية. لقد كانت مريم معروفة بين أهلها بتفانيها في الله وحبها له، وبما أنها كانت تحمل علامات الاصطفاء الرباني، كانت كل السلطات الدينية العليا آنذاك تنافس من أجل أن تحظى بشرف تبني الفتاة التي اصطفاه الله<sup>1</sup>.

وفي آخر المطاف أنيطت هذه المهمة الشريفة بالنبي زكريا الذي كان معروفا ومحترما من طرف الجميع في ذلك الوقت، فأصبح وليا على مريم وتكفل بتربيتها الروحية. وبالفعل فحسب الأعراف الجاري بها العمل آنذاك، يجب على الشخص الذي يريد أن يعتني بالحراب المقدس أن يكون تحت وصاية راهب لكي يرشده ويوجهه في حياته الرهبانية. وهكذا حصلت مريم على أحسن مرشد يفوق رتبة راهب، إنه نبي ذو شأن كبير، يدعى زكريا أخذ

<sup>1</sup> - سورة آل عمران الآية 44

على عاتقه الاضطلاع بمهمة التربية الروحية لمريم، والسهر على حمايتها، وفي نفس الوقت توفير المتطلبات التي تجعلها في بحبوحة من العيش داخل المعبد . استطاعت مريم أن تتجاوز كل الذين سبقوها بفضل تقواها وانقطاعها للعبادة، وأيضا فضل الرزق الإلهي الذي شاع بين الناس أنها قد كانت تتعم به كل يوم من ربه... هذا الرزق الإلهي اليومي أدهش سيدنا زكرياء وأذهله، مع أنه كان نبيا معتادا على هذا النوع من التجارب الروحية ! وهذا ما تفسره الآية الآتية: "كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا قال يا مريم أنى لك هذا قالت هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب"<sup>1</sup>.

فسرت معظم كتب التفسير القرآني "الرزق" بالغنى والثروة في الطعام. وروت عن مصادر سابقة للإسلام أن سيدنا زكرياء كلما زار مريم وجد عندها "فواكه صيفية في فصل الشتاء وفواكه شتوية في فصل الصيف"، أي أن هذه "الثروة" التي كانت مريم تتعم بها حسب تعليقات هذه المصادر، تتجلى في توافرها على فواكه سابقة لأوانها ما أثار دهشة النبي زكرياء.

يعترض الإمام رشيد رضا على هذا النوع من إعادة إنتاج النصوص القديمة التي لا تأتي شيء ينفع المؤمنين، بل تساهم في خلق أساطير وبدع ما أنزل الله بها من سلطان، تهدد مع مرور الزمن بإفراغ محتوى النص القرآني من معناه الحقيقي والعميق<sup>2</sup>. غير أننا نجد في تفسير ابن كثير قراءة تختلف تماما عن القراءات السابقة، حيث فسر "الرزق" الوارد

<sup>1</sup> - سورة آل عمران، الآية 37.

<sup>2</sup> - رشيد رضا، تفسير المنار ج 3 ص 242.



في الآية بأنه عبارة عن صحف فيها علم كثير، وهذا ينسجم أيضا مع التفسير الصوفي الذي يقترح بأن هذا الرزق رزق روحاني وليس ماديا، منبعه الاستقبال الرباني لمريم<sup>1</sup>، حيث كانت تتلقى العلم والمعرفة على شكل عطاء رباني فيقوي قلبها ويزداد ذكاؤها.

ومن المؤكد أن هذه التأويلات تسير في الاتجاه العام للنظرة القرآنية، التي تحض على طلب العلم باعتباره منبعا روحانيا وماديا لا ينضب أبدا . كما تهدي المؤمن وتقوده المعرفة أقوى وأعمق بالعالم وخالقه. إن مريم خير دليل على المرأة العالمة التي اعتكفت في المعبد وانعزلت عن الناس، وظلت تقف من المعرفة الإلهية اللامتناهية...

إن هذه القوة العلمية الخارقة وهذا التدفق المعرفي الكثيف اللذان منحهما الله لمريم، جعلنا سيدنا زكرياء رغم أنه هو الذي كان يشرف على تعليمها وإرشادها يرتعد ويندهش لحد أن سألها عن مصدر كل هذا الزخم والثراء الروحاني "قال يا مريم أنى لك هذا قالت هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب"<sup>2</sup>.

مريم، هذا الكائن الذي في عمر الزهور، والذي لم يشك أحد قط في أنها ستصل يوما إلى مراتب عليا - ولكن ليس إلى درجة العلماء الكبار - حاولت أن تشرح لسيدنا زكرياء بأناة وثبات مصدر معرفتها. إن الله يعطي لمن يشاء بغير حساب... ولقد كان الله يعطي لمريم بغير حساب، هذه الإجابة أذهلت نبي الله زكرياء... لما تحمله من هدوء وطمأنينة جعل النبي والمعلم الروحاني لهذه المؤمنة الشابة، سيستفيد من نور المعرفة التي تميزت به

<sup>1</sup> - سهل التستري تفسير القرآن العظيم ببير لوروى.

<sup>2</sup> - سورة آل عمران، الآية 37.

تلميذته. وهذا ما يشير إليه القرآن في تنمة الآية "هنالك دعا زكريا ربه، قال ربي هب لي من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء"<sup>1</sup>.

وكان تجربة مريم قوت إيمان سيدنا زكريا، فكلما تأمل فيها أدرك القوة الإلهية وقدرتها على العطاء بغير حساب جزاء للمؤمنين. ولقد دفعه ورع مريم وزهدها لأن يحذو حذوها، وبما أنه كان في سن متقدمة ولم يرزق بأطفال، كان يتضرع لله تعالى حتى يرزقه بسلالة طيبة مثل مريم التي يراها دائما أمام عينيه دائمة العبادة والتبتل، فكان يصلي في نفس المحراب الذي كانت تصلي فيه، ويتوجه بالدعاء لله الذي يعطي بغير حساب.

### التبليغ والبشارة

بينما كانت مريم مستغرقة في العبادة ومختلية في المحراب الذي كان مكان اعتكافها، إذ أتاه جبريل يبشرها بميلاد المسيح. فظلت مريم منعزلة في مكان تعبدها الذي قال عنه القرطبي إنه أعلى مكان مقدس حتى أنتها الملائكة في المكان ذاته وأخبرتها أن الله اصطفاه عن البشرية جمعاء.

"وإذ قالت الملائكة يا مريم إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين، يا مريم اقنتي لربك واسجدي واركعي مع الراكعين"<sup>2</sup>.

<sup>1</sup> - سورة آل عمران، الآية 38.

<sup>2</sup> - سورة آل عمران، الآيتان 42-43.

والجدير بالذكر هنا أن تلاحظ كيف أن الملائكة نادى مريم باسمها، وهذا إذا دل على شيء فإنما يدل على درجة قرب هذه المرأة من الله تعالى. ويكفي هذا النداء الخاص لنتخيل مكانة مريم لدى رب العالمين!

لقد اختار الله مريم وطهرها واصطفها مرة أخرى. وهذا لا يعني أن الأمر لا يعدو أن يكون إعادة شكلية لهذا التطهير والاصطفاء بل في ذلك تأكيد روحاني. ويبدو أن الاختيار الأول تم على أساس الشرف والمكانة العظيمة التي كانت تتبوأها بالإضافة إلى أن الله طهرها من كل الذنوب والمعاصي. أما الاختيار الثاني فيمكن في كونها ستحمل في بطنها النبي عيسى، وهو امتياز خصت به دون باقي النساء، لم تشبهها فيه أي امرأة ولن تشبهها إلى يوم البعث<sup>1</sup>.

وهناك أحاديث نبوية تذكر مريم وطهرها ومكانتها الروحانية الرفيعة التي حباها الله بها. يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم إن أحسن نساء العالم أربعة وهن: مريم بنت عمران، وآسية زوجة فرعون، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت رسول الله<sup>2</sup>. وهناك حديث

---

<sup>1</sup> - تفسير القشيري، لطائف الإشارات، دار الكتب العلمية، بيروت 2001 ج1.  
<sup>2</sup> - عن ابن عباس قال خط رسول الله صلى الله عليه وسلم في الأرض أربعة خطوط قال تدرون ما هذا فقالوا الله ورسوله أعلم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أفضل نساء أهل الجنة خديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون و مريم ابنة عمران". رضي الله عنهن أجمعين. رواه أحمد. وعن أنس رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "حسبك من نساء العالمين مريم ابنة عمران و خديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد و آسية امرأة فرعون". رواه الترمذي.

آخر رواه أبو هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ما من مولود يولد إلا مسه الشيطان حين يولد، فيستهل صارخا من مسه اياه، إلا مريم وابنها"<sup>1</sup>.

بعد أن أخبر الملائكة مريم بان الله اصطفاه، أوصوها بالمزيد من الورع والتقوى والانقطاع إلى العبادة للتبتل والقنوت. وكان عز وجل كان يهيئها إلى الاختبار الكبير الذي ينتظرها لذلك كان يعمل على تقوية إيمانها وشخصيتها ويمدها بالقوة الروحية الضرورية لكي تستطيع أن تواجه قدرها.

لقد حثها الله بأن تكون من الذين أحبهم واصطفاهم وأن تتفاني في العبادة والنسك حتى تصبح قادرة على أن تكون الوعاء الروحي الذي يمكنه أن يستقبل الحدث الكبير الذي ستعرفه الإنسانية والمتمثل في معجزة ولادة عيسى المسيح...

ويوما بعد يوم، تستعد مريم دون أن تشعر لأعظم يوم في حياتها، وذلك من خلال انصرافها لعبادة الله، وانقطاعها لذلك كلية يوما عن يوم. لقد كانت تتبعه أوامره سبحانه وتعالى بدقة متناهية، حيث اعتزلت الناس الأيام الطوال وجعلت بينها وبينهم حجابا، من أجل الاعتكاف والنسك الصلاة والقنوت. وباستمدادها من نوره عز وجل حافظت مريم على الكنز الروحي الذي أكرمها به إلى أن حان وقت البشارة الكبرى.

وهذا ما يذكره القرآن في الآيتين الآتيتين: "واذكر في الكتب مريم إذ انتبذت من أهلها

مكانا شرقيا، فاتخذت من دونهم حجابا"<sup>2</sup>.

<sup>1</sup> - رواه أبو هريرة رضي الله عنه.

<sup>2</sup> - سورة مريم، الآيتان 16-17.

ولم تقف التفسير الإسلامية القديمة كثيرا على هذه الآية التي تتطرق إلى اعتكاف مريم وانتباذها مكانا شرقيا، وانعزالها عن أهلها بعد أن جعلت بينها وبينهم حجابا. ولنا أن نتساءل هنا عن ماهية هذا الاعتكاف في المكان الشرقي" وعن هذا "الحجاب" العجيب الذي كان يفصل بينها وبين أهلها.

حاول المتصوفة أكثر من غيرهم أن يخترقوا "حجاب" هذه العزلة التي تحيط مريم، ليستخرجوا منها موقفا رمزيا مليئا بالمعاني. وهكذا فسر بعض علماء الصوفية العزلة الشرقية لمريم بانقطاعها عن العالم الطبيعي وشهوات النفس، والتحاقها، حسب هؤلاء العلماء، شرق العالم المقدس، مكان الروح الطاهرة، وهو شرط لاستقبال كلمة الله<sup>1</sup>. هذا الحجاب هو المكان المقدس المعصوم من شهوات النفوس، حيث تجد الروح الطاهرة مكانها فيه عندما يستسلم القلب لله تعالى كما كانت الحال بالنسبة لمريم<sup>2</sup>.

كانت مريم تبدو ضعيفة هزيلة لمن يرى مظهرها الخارجي المتواضع، لكنها كانت بفضلها سبحانه وتعالى قوية للغاية من الداخل، لذلك أرسل إليها زائرا غريبا غير متوقع. وفي الآية الآتية، وصل التبليغ أوجه من خلال البشارة الروحانية.

فاتخذت من دونهم حجابا فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشرا سويا، قالت إني أعوذ بالرحمان منك إن كنت تقيا، قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاما زكيا، قالت أنى يكون

---

<sup>1</sup> - سهل التستري، تفسير القرآن العظيم، في دراسة بيبير لوروى.

<sup>2</sup> - حشاني عبد الرزاق، نقلا عن مقالة لبيب لوروى.

لي غلام ولم يمسنني بشر ولم أك بغيا، قال كذلك قال رب هو على هين ولنجعله آية للناس ورحمة منا وكان أمرا مقضيا"<sup>1</sup>.

كانت مريم معتادة على استقبال الملائكة في صورتهم الحقيقية، لذلك ذهلت بالحضور المفاجئ لجبريل، عندما وجدته في محيطها الخاص والمقدس، في صورة بشر سوي، على حد ما جاء في القرآن. وكانت أول ردة فعلها أن استعادت بالله لحمايتها مما هي فيه، وفي الآن ذاته تحذير هذا الزائر القريب من الله تعالى إن كان يريد بها سوءا. لكن الملك جبريل طمأنها وأعلن لها بشارة ولادة المسيح عيسى عليه السلام.

بعد أن اطمأنت. لكونها أمام مبعوث أرسله الله إليها، وبعد زهاب الخوف الذي شعرت به في الوهلة الأولى، كان عليها أن تواجه الأمر المقلق الذي سيتقل تحمله كاهلها، وهو خبر حملها بمولود سيكون نبيا. وهنا يمكن أن ندرك الإحساس بالقلق والخوف الذي انتابها في ذلك الحين، وهي التي لم تكن أبدا تتخيل أن الله سيوكل إليها مسؤولية من هذا الحجم!

لقد وجدت نفسها فجأة، وهي في عزلة تامة، أمام جبريل الذي بعثه الله ليطلعها على هذا السر الإلهي الأزلي المسطر في الكتاب الأعظم للقدر البشري... سر كبير، أو ربما من أكبر الأسرار التي لم يسبق لإنسان على وجه البسيطة أن عرفها! سر رباني بينها وبين الله الذي اجتباها تضع مولودا، سيكون مبعوثا للإنسانية بمشيئته تعالى! لم تصدق الخبر، لكن

---

<sup>1</sup> - سورة مريم، الآيات 17-21.

رغم كل هذه الأحاسيس المتضاربة التي تخالجهما، استجمعت قوتها لتستفسر من المبعوث الإلهي عن الحكمة من كل هذا "قالت أنى يكون لي غلام ولم يمسنني بشر ولم أك بغيا"<sup>1</sup>. إن الصورة المحتفظ بها لمريم في الذاكرة الجمعية والشعبية صورة تختلط فيها المرأة العذراء البتول والخنوع، بالمرأة المهشمة والخجولة بل وأكثر من ذلك الساذجة أيضا. والحال أن النص القرآني يكشف من خلال مقارنته العميقة، عن وجه آخر غير معروف تاتا لهذه المرأة: لقد تحدث عن ذكائها وقدرتها على التمييز. وبالتأكيد، فعندما تيقنت من صحة ودقة فحوى الرسالة، سألت جبريل الملاك بشجاعة فكرية وذكاء ثاقب عن كيفية هذه الولادة التي بدت لها مخالفة لما هو معهود عند بني البشر، فلم تتأثر بجلوتها مع الرجل الملاك، ولا بالقدسية الروحانية لهذه اللحظة. إن هذه المرأة التي كانت منذ نعومة أظافرها صافية الذهن وواضحة الجسد كانت واعية بنقل اللحظة التي تعيشها وبأهمية المبعوث الذي أمامها . ورغم ذلك لم يمنعها إيمانها الراسخ وسكنها وقنوتها السابق هذا، من إعمال حجة العقل ومساءلة مخاطبها من أجل فهم ما يجري حولها.

غير أن الملك جبريل أجابها وحيها من الله تعالى "هكذا أراد ربك". وهي إجابة تقطع الشك باليقين فأمر الله ينبغي أن ينفذ تبعاً لما قدره لها...

وهنا تبقى الحجة الإنسانية واهية أمام قدرة العليم الخبير ولم يبق أمام مريم إلا الخنوع وتحمل المسؤولية التي حملها الله إياها . فلا مجال هنا للرد أو الاختيار لكونها اختيرت من لدن العزيز الحكيم، وكل الذين يصطفاهم الله من عباده يتعرضون لأصعب الامتحانات.

<sup>1</sup> - سورة مريم، الآية 20.

خضعت مريم للإرادة الربانية، رغم ما كان يخالجها من حيرة ممزوجة بالسعادة والخوف والشك، مع أنها تعلم علم اليقين أن الله يحبها كثيرا ويفضلها كذلك، إلا أنها لم تستطيع أن تتخلص من هواجس الخوف ومن هول وجسامة المسؤولية التي تنتظرها.

## ولادة عيسى وبداية الاختبار

نجد في الآيات التي ستأتي، صورة مريم الحامل وقد بلغ بها المخاض أشده. وبدقة متناهية ينقل لنا النص القرآني مشهد الولادة، رغم أنه قد سكت تماما عن مرحلة الحمل. يصف لنا مريم وهي تقاوم بمفردها كل الأوجاع وكل الأحاسيس التي تخالجها، لتضع في النهاية والصبي المعجزة "فحملته فانتبذت به مكانا قصيا، فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة قالت يا ليتني مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا"<sup>1</sup>.

تلاحظ من خلال هذه الآيات صراخ مريم الشديد وهي تتمنى الموت إلى حد أن يوارى جسدها التراب جراء الآلام الجسدية التي تعانيتها، كما تمنى لو أنها كانت نسيا منسيا قبل أن تتعرض لمثل هذه المحنة التي تفوق القدرة البشرية. ورغم الاستعداد النفسي القبلي والعناية الربانية التي كانت تصاحبها وترعاها فقد ظهر على مريم عناء نفسي كبير بسبب هذه الولادة...

ويحكي لنا القرآن الكريم في مرحلة أولى عن عزلتها وهي حامل حيث انتبذت مكانا قصيا، وهو ما يجسد حالتها النفسية وقدرتها على اعتزال الناس. لقد كان محكوما عليها

<sup>1</sup> - سورة مريم، الآيات 22-23.



دائماً أن تعتزل الآخرين... في البداية كانت تتعزل من أجل مناجاة الله تعالى، لكنها في هذه الظروف ستبتعد خوفاً من نظرات الناس واتهاماتهم المحتملة، وسوء ما سيقولونه بشأنها...

ابتلاء صعب ولا يمكن لإنسان عاد أن يتحملة وخير دليل على ذلك الصورة القرآنية التي وصفت مريم وحيدة ليس لها رفيق سوى جدع النحلة الجافة، الذي كلما حركته تساقطت عليها فواكهه الرطبة. لقد أنس وحشتها وخفف من معاناتها ومن وقع الآلام التي تعصرها...

لا يمكنها أن توقف عن ما سيترتب عن مجيء الطفل المنظر، والذي هو نتاج بطنها حيث سيقلب حياتها رأساً على عقب. يرهبها رأي الآخرين وتستولي، على ذهنها، أفكار سوداء، رغم خضوعها للإرادة الربانية وثقتها بالله . كيف يا ترى ستواجه الآخرين، عائلتها وسكان عشيرتها الذين كانوا دائماً يفخرون بها ؟ كيف سيقبلون بولادة طفل دون أب ؟ كيف ستقنعهم ؟ كيف يمكنها أن تحمل اتهاماتهم وشكهم وربتهم اتجاهها ؟ إنها تمنى في هذه اللحظة بالذات أن تبتلعها الأرض وتصبح نسياً منسياً وأن تموت إلى الأبد قبل أن يخدش شرفها... مريم العذراء التي تمضي كل وقتها في مناجاة الخالق، مريم التي ينظمها الجميع سبب ورعها وتقواها وعفتها ! من يصدق أنها في يوم من الأيام ستعرض لمثل هذه الاتهامات؟

وهذا ما تفكر فيه مريم باستمرار، وهي تضع مولودها والآلام تعصرها إن على المستوى التنفسي أو المستوى الجسدي... وهنا يتكلم صوت الحق تعالى ليخفف عنها ويواسيها في محنتها ويذهب عنها الحزن ومرارة التعاسة التي لا تقضي.

"فناداها من تحتها ألا تحزني قد جعل ربك تحت سرياً، وهزي إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبا جنياً، فكلي واشربي وقري عينا فإما ترين من البشر أحدا فقولي إني نذرت للرحمان صوما فلن أكلم اليوم إنسيا"<sup>1</sup>.

ويختلف المفسرون القدماء حول مصدر هذا الصوت، فيؤكد فريق منهم أن جبريل الملاك هو مصدر الصوت، في حين يرى الفريق الآخر أن مصدر الصوت هو عيسى الصبي تكلم مع أمه وهو في المهد<sup>2</sup>. ومهما يكن مصدر الصوت، فإن المهم في الحاليتين معاً، سواء كان المصدر من الملاك جبريل أم من عيسى عليه السلام، هي الرحمة الربانية التي تجلت في أوسع مظاهرها. إذ في الوقت الذي كانت فيه مريم غارقة في حزنها ومعاناتها، تدخل الخالق لنجدتها بأجمل الكلمات لينتشلها من براثن العذاب. لقد أرسل لها الحق سبحانه رسالة بكلمات مملوءة بالعطف والسكينة تطمئنها وتخفف آلامها وقنوطها... لقد أرسل لها الله كل ما تحتاج إليه، ماء النهر الذي يجري من تحتها والتمر الطري الذي يتساقط من النخلة الميتة التي أحيها الله لسد رمقها، لقد أحست أنها لم تكن لوحدها، بل كانت عناية الله ترعاها وتخفف آلامها. لقد أمرها تعالى: "بأن تتوقف عن البكاء" يا لجمالية هذه السلوي الربانية! فالبارئ جل جلاله يحثها على أن تتمتع بهذه اللحظة الحرجة والصعبة لكنها مجرد مرحلة عابرة... "توقفي عن البكاء" لأن ما ينتظرك، يا مريم، من جزاء سيكون أكبر مما تتصورين! هذا ما قاله الصوت العجيب...

<sup>1</sup> - سورة مريم، الآيات 24-26.

<sup>2</sup> - تفسير الطبري.

## مريم وابنها آية للناس

وعلى ما يبدو فإن الله تعالى، كان يهيبُ مريم من الناحية النفسية، لتجتاز الاختبار

الموالي المتمثل في مواجهة من حولها!

لقد أمرها بأن تصوم عن الكلام أي ألا تتكلم مع أي شخص وجدته في الطريق.

ولمواجهة الآخرين كانت مجبرة على التزام الصمت وهو ما يشهد على مدى عظمة الحكمة

الربانية حيث ستبدل الكلام بالصمت الذي يعبر عن الكرامة الإنسانية... اللحظة حرجة، فلقد

قطعت مريم وعدا على نفسها بالصيام عن الكلام وعليها أن تقي بما وعدت به... لقد أجمع

معظم العلماء على أن الوعد بالصيام عن الكلام هو علامة أو آية خاصة بمريم وابنها، ولا

أحد يمكن أن يصوم عن الكلام بعدها<sup>1</sup>.

استغرق صيام مريم عن الكلام في تفاسير الصوفية تعليقات كثيرة. فالبعض يرى أن

الصيام عن الكلام يشمل كل شيء ما عدا ذكر الله تعالى، حيث ستجد فيه مريم العذراء

وسيلة لطمأنينتها وتسليم قلبها له تعالى، وهنا تكمن خصوصية عدم تكليمها لأي إنسان<sup>2</sup>.

في حين يرى مفسرون آخرون أن هذا الصمت هو تخلى عن اللجوء إلى النفس. "فإذا أردت

أن تتكلمي من أجل أن تبرئي نفسك، فهذا لن يزيد الأمر إلا تنقيدا، في حين سيكون صمتك

مظهرا للقدرة الإلهية الفائقة"<sup>3</sup>.

---

<sup>1</sup> - تفسير الطبري.

<sup>2</sup> - تفسير التستري.

<sup>3</sup> - بيير لوروى.

ويرى أحد المفسرين القدماء أن هذا الصمت هو أحسن إجابة يمكن لمريم أن تقدمها

لأقربائها، لأنه مهما كانت إجابتها وتبريراتها فلن تقنعهم بصدق الوقائع<sup>1</sup>.

وفعلا، فبمجرد رؤيتهم لها والطفل بين يديها، أمطروها بوابل من الشتائم والتهم.

وتخبرنا الآية الكريمة عن هذه التصرفات المشينة في حقها.

"فأنت به قومها تحمله. قالوا يا مريم لقد جنّت شيئا فريا، يا أخت هارون ما كان أبوك

امراً سوء وما كانت أمك بغيا، فأشارت إليه قالوا كيف تكلم من كان في المهد صبيا، قال

إني عبد الله ءاتاني الكتاب وجعلني نبيا"<sup>2</sup>.

يعلم قومها أنها إنسانة عفيفة وطاهرة ومخلصة لخالقها ومع ذلك لم يتسامحوا معها،

فعوض أن تحظى بالمحبة والإعجاب ووجهت بالحق والعداء الكبيرين. وعوض أن يعاملوها

برأفة وحلم، إجلالا لماضيها المشرف، انهالوا عليها بوابل من الشتائم وكل أشكال البغض.

وظلت هي صامته لا تنبس ولو ببنت شفة.

لقد تحملت بهدونها وصبرها الأذى وكل الاتهامات والانتقادات... أما الآن بعدما

أصبحت تعلم أنها ورثة لسر عظيم، بربطها بخالقها مباشرة، وتعرف كذلك أنها محمية وأن

الله يحبها ويوجهها فلن يهملها أي شيء مهما كان.

ظلت مريم صامته، رغم أن أذى قومها لم يتوقف، وفي هذه اللحظة بالذات تدخل

الواحد الأحد وجعل عيسى الصبي يتكلم ليبرءها وهو في المهد بعد ما عرفت كيف تحافظ

<sup>1</sup> - تفسير الطبري.

<sup>2</sup> - سورة مريم، الآيات 27-30.

على السر الرياني... ويعتبر كلام عيسى، وهو الذي مازال صبيًا في المهد، دليلاً قاطعاً يكفي، لوحده، بأن يبرأ مريم أمام القوم. ويرى التفسير الصوفي أن عيسى يرمز، في هذه المرحلة، إلى البعد الداخلي لمريم، حيث شكلا معا وحدة غير قابلة للتجزيء. ألم يشر القرآن الكريم في مناسبتين اثنتين إلى كون عيسى وأمه يمثلان "آية واحدة؟" "وجعلنا ابن مريم وأمه، آية وأوبناهما إلى ربوة ذات قرار ومعين"<sup>1</sup>. وفي آية أخرى: "والتي أحصنت فرجها فنفخنا فيها من روحنا وجعلناها وابنها آية للعالمين"<sup>2</sup>.

من المؤكد أن مريم بمثابة "آية" عظيمة للكون، وينبغي أن نشدد على أهمية هذا المفهوم داخل القرآن الكريم لأنه يستعمل دائما في وصف روعة وعظمة الخالق المبدع. وتجدر الإشارة إلى أنه رغم طابع المعجزة الذي طبع ولادة عيسى، فإن القرآن الكريم وهو يتكلم عنه اعتبره رسولا كباقي الرسل الآخرين، إنسان قبل كل شيء وابن لامرأة طاهرة صديقة اجتباها الله واصطفها لكنها تبقى هي كذلك إنسانة أولا وأخيرا. "ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه، صديقة كانا يأكلان الطعام انظر كيف نبين لهم الآيات ثم انظر أنى يؤفكون"<sup>3</sup>.

إن مريم، التي اختارها الله، والتي أحبها كذلك... ستبقى وللأزل، كما صرح وأقر بذلك القرآن الكريم، شهادة لا يمكن إنكارها لهذا الجمال النسائي الروحاني، تشع نورا وحقيقة وإنسانية.

<sup>1</sup> - سورة المؤمنون، الآية 50.

<sup>2</sup> - سورة الأنبياء، الآية 91.

<sup>3</sup> - سورة المائدة، الآية 75.

وهكذا تنتهي قصة مريم كما ذكرت في القرآن الكريم لتبدأ بعد ذلك قصة ابنها الذي يدعوه الحق د "ابن مريم" والذي يأخذ منها وحدها بنوته الشرعية! وتستمر في القرآن قصة هذا النبي الذي أحبه الله، وناداه بعيسى بن مريم، لكي تذكرها، على الدوام، ولكي لا ننسى أبدا أن هذا النبي كان قبل كل شيء ابنا لمريم...

الجزء الثاني : عندما يتكلم القرآن مع النساء

## هل لغة القرآن لغة ذكورية؟

لقد سبق أن رأينا كيف يتحدث القرآن عن المرأة، وذلك من خلال تقديمه مجموعة من النماذج لشخصيات نسائية شهيرة، رسم لنا صورها بدقة كبيرة وجمال وبلاغة خاصة. إن كلام الله تعالى جاء ليبتدأ من كل الأحكام الاجتماعية المسبقة، والمتبناة باسم الدين، والتي تبيح كل صنوف التمييز ضد المرأة، وتعتبرها كائنا ضعيفا خلق أساسا ليكون تابعا لا غير.

وتتبدى لنا من خلال الآيات القرآنية التي نتحدث عن النساء، إرادة ثابتة للاعتراف بالهوية النسائية، ورد الاعتبار لها. هذه الهوية التي طالما عانت عبر العصور من كل محاولات الطمس. ومن ثم فإن الحديث عن المرأة بوصفها عنصرا ناقلا للإيمان، يمثل مفهوما جديدا للأُنثى، وإعلانا مسبقا لمشروع تحرري محمل بالدلالات وقادر على مواكبة ظروف عصرنا الحالي.

ويتعين علينا بالخصوص أن تسجل في ذاكرتنا الإطار العام الذي جاء فيه الوحي، والذي كان يمثل سياقاً تسود فيه سلطة أبوية متشددة، جردت فيه المرأة من كينونتها البشرية. ففي وسط مجتمع تسوده طباع بدوية قاسية ذات تقاليد قديمة متحجرة ومعادية للنساء غير مبالية بهن، قدم لنا القرآن الكريم نماذج لنساء مسلمات ومؤمنات وذكيات، كما نقل إلينا



صورا تاريخية لسيدات مستنيرات، ونساء صالحات مريبات وعالمات ومقاومات من خلال استعراض شخصيات نسائية من نحو بلقيس و مريم وآسية وكل الأخريات.

ونجد إضافة إلى الآيات القرآنية التي تحدثت عن النساء آيات أخرى تحدثت إلى النساء بطريقة مباشرة وود وتقدير...

إن القرآن كلام الله موجه لكافة البشر على اختلاف نوعهم وعرقهم ولونهم، وكلامه تعالى يخاطب الكائن البشري من خلال أسمى ما فيه: روحه وعقله وفكره.

ويكاد يتفق العلماء المسلمون، على أن كل خطاب جاء في القرآن بصيغة المذكر يشمل ضرورة جنس المؤنث، لأن كلام الله بشكل عام، يخص النساء والرجال على حد سواء ودون أي تمييز<sup>1</sup>. لقد استخدم القرآن المذكر باعتباره جنسا محايدا يحيل على الكائن البشري على وجه العموم. وتعد كلمة "رجال" في اللغة العربية من المشترك اللفظي المتعدد المعاني الذي يحيل على نخبة من الرجال كما يحيل على نخبة من النساء. وهذه الخاصية اللغوية لا تقتصر فقط على الاستخدام القرآني للغة العربية، بل نجد كل اللغات العالمية تستخدم صيغة المذكر كلما أرادت التعبير عن جنس محايد شمل الذكور والإناث. ولا يشمل مصطلح الرجال في اللغة الفرنسية الكائنات البشرية عموما؟ ولعل هذا ما دعا البعض حاليا للتفكير في إعادة النظر بخصوص كلمة "الرجل" باعتبارها صيغة عالمية. وهي الحالة التي تطرح

---

<sup>1</sup> - لقد تقرر مبدأ المساواة بين الجنسين في النص القرآني وعند كثير من العلماء ومن ضمنهم الإمام ابن رشد وابن القيم وابن العربي انظر: تحرير المرأة في عصر الرسالة، أبو شوكة ص 70 منشورات دار القلم الكويت الطبعة الرابعة 1995.

بالحاح في الميثاق العالمي لحقوق الرجل الإنسان والذي يسعى العديد لاستبداله ب "الحقوق الإنسانية"<sup>1</sup>.

ومع ذلك، قد يخاطب النص القرآني النساء في حالات معينة، خاصة عندما يكون مضمون الكلام يهمن بصورة خاصة، أو يجيب على أسئلة تتعلق بهن طرحت في سياق معين، أو يرفع ظلما لحقهن أو غبنا أصابهن. إنه كلام الله الذي نزل من السماوات العلي لأجلهن فقط، بغية تحريرهن ومساعدتهن على تجاوز التقاليد المتحجرة البالية وكذا إعطائهن نفسا جديدا... ويجعل حبهن يزداد يوما عن يوم.

### عندما يستجيب القرآن لمطالب النساء...

إن دراسة أسباب النزول تكشف لنا علاقة مجموعة من النساء سياق نزول عدد من الآيات القرآنية. وهو ما تعكسه على سبيل المثال الآيات القرآنية التالية :

"إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات والقانتين والقانتات والصادقين والصادقات والصابرين والصابرات والخاشعين والخاشعات والمتصدقين والمتصدقات والصائمين والصائمات والحافظين فروجهم والحافظات والذاكرين الله كثيرا والذاكرات أعد الله لهم مغفرة وأجرا عظيما"<sup>2</sup>.

تتعدد تفسيرات المفسرين وتختلف بخصوص أسباب نزول هذه الآية. ولا ينحصر هذا الاختلاف في جانب المعنى فقط بل يتعداه ليتعلق بتحديد الأشخاص الذين كانوا سببا في

<sup>1</sup> -Agnès Callamard, Le sexisme à fleur de mots, Mars 1998, Le Monde Diplomatique.

<sup>2</sup> - سورة الأحزاب الآية 35

نزول هذه الآية، وإن كانت أكثر الروايات شيوعاً وانتشاراً ما رواه الطبري من هذه الآية نزلت بشأن أم سلمة زوجة الرسول صلى الله عليه وسلم. وبالفعل، فحسب هذا التفسير، قالت هند بنت أبي أمية، المعروفة باسم أم سلمة، الرسول في أحد الأيام: "ما لنا لا نذكر في القرآن كما ذكر الرجال؟ قالت: فلم يرعني ذات يوم ظهراً إلا نداؤه على المنبر، وأنا أسرح رأسي، فالففت شعري ثم خرجت إلى حجرة من حجرهن، فجعلت سمعي عند الجريد، فإذا هو يقول على المنبر: يا أيها الناس إن الله يقول في كتابه: إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات (... ) إلى قوله أعد الله لهم مغفرة وأجرًا عظيماً..."<sup>1</sup>. وفي رواية أخرى عن أم سلمة أنها قالت: "يا رسول الله يذكر الرجال ولا نذكر؟"<sup>2</sup>.

وفي رواية أخرى لابن عباس، يقول إن نساء النبي، دون تحديد واحدة منهن، هن اللواتي تساءلن قائلات: "ماله يذكر المؤمنين ولا يذكر المؤمنات؟". وترجع بعض التفاسير هذا الحديث إلى نساء أخريات من المجتمع الإسلامي، غير نساء الرسول. وتنقل لنا تفاسير أخرى أن أسماء بنت عميس رجعت من الحبشة مع زوجها جعفر بن أبي طالب فدخلت على نساء النبي صلى الله عليه وسلم فقالت: هل نزل فينا شيء من القرآن؟ قلن: لا. فأنت النبي صلى الله عليه وسلم فقالت: يا رسول الله إن النساء لفي خيبة وخسار - بدو أنها كانت

---

<sup>1</sup> - تفسير الطبري، و الحديث رواه ابن شيبة.

<sup>2</sup> - تفسير الطبري، والحديث رواه مجاهد.

تقصد النساء اللواتي قد هاجرن من مكة متجهات إلى تلك البقعة الإفريقية- بال: ومم ذلك ؟  
قالت: لأنهن لا يذكرن بخير كما ذكر الرجال<sup>1</sup>.

وأخيرا نجد رواية أخرى معروفة رواها الترميذي تسند المطالب النسوية إلى أم غمارة الأنصارية التي أتت النبي صلى الله عليه وسلم، فقالت: "ما أرى كل شيء إلا للرجال، وما أرى النساء يذكرن بشيء"<sup>2</sup>.

وعلى الرغم من أن العلماء اختلفوا فيمن كان وراء هذا المطالب النسائي، فإنه من الجلي أن المضمون يبقى واحدا هو هو. وفحواه أن هناك نساء عبرن للرسول صلى الله عليه وسلم عن عدم رضاهن اتجاه خطاب قرآني قد تجاهلن حسب رأيهن. وبالإضافة إلى هذا، وبالنظر لتعدد المصادر التي أوردت هذه الرواية، يبدو من المحتمل جدا أن تكون النساء اللواتي قد عبرن عن هذا الاستياء كثيرات...

ويكشف لنا هذا الموقف عن عقلية النساء المسلمات في ذلك العصر. لقد التزمن بالسير في درب الإيمان مثلن مثل الرجال إن لم يكن أكثر، مما جعلهن لا يترددن في المطالبة بمساواتهن بالرجال من خلال الحديث عنهن صراحة في النص القرآني.

لقد رغبين في مساواة يتم النص عليها في القرآن الكريم لتبقى مسجلة للأبد، هذا بالرغم أنهن يعرفن جيدا أن الخطاب القرآني عن طريق نبرته الذكورية المحايدة، يخصهن بالقدر الذي يخص به الرجال. ومع ذلك، وكأنهن قد أحسنن بالغين في لحظة من لحظات التاريخ،

<sup>1</sup> - تفسير البغوي، والحديث رواه مقاتل.

<sup>2</sup> - تفسير القرطبي، والحديث حسن غريب رواد الترميذي.

فأردن أن يعبرن عن خيبة أملهن هاته على مرأى ومسمع كل العشيرة، وذلك من أجل تجديد التأكيد على موقفهن المطالب بالمساواة.

إنه خطاب مطالب، ذو طبيعة نسائية...

إن المطالبة بكافة الحقوق التي يتمتع بها الرجل، تمثل محطة بزوغ وعي نسائي جديد، لم يقتنع بأن يكون ثاويًا ومتضمنًا في المفهوم العام للمؤمن فقط، بل طالب باعتراف خاص يأتي في صورة واضحة ومحددة.

وصراحة، لا يسعنا هنا إلا أن نندهش من شجاعة النساء اللواتي لم تترددن في رفع طلبهن إلى رسول الإسلام ليمنحنهن، وبصورة طبيعية، الاعتراف ذاته الذي منح للرجال، حيث أعرين عن ذلك بواسطة تقديم احتجاج رسمي. فهؤلاء النساء لو لم يكن قد انشرح صدرهن بالإيمان لما كانت لهن القدرة على مساءلة الوحي، والتعبير بوضوح كبير عن ما جيش في صدورهن بهذا الخصوص.

لقد تصرفن بهذه الطريقة لأن هذا الوحي موضع المطالبة والمساءلة هو نفسه الذي دفع بهن نحو ممارسة حقهن في حرية التعبير...

إن هذا الوحي هو الذي علمهن أنهن ولدن أحرارًا، وأن الإسلام لا يقبل بأن تخضعن الأحد سوى للخالق. كما علمهن كيف يتصرفن باعتبارهن مسؤولات ومستقلات... يعبرن حرة عن استنكارهن واحتجاجهن ويطالبن بحقوقهن باسم دينهن. لكل ذلك، انتقدت هؤلاء النسوة ما

بدا لهن من نفس ذكوري في القرآن الكريم. لقد كان عتابهن نابعا من إيمانهن العميق بالعدالة الإلهية.

فهل بإمكاننا أن نتخيل حصول موقف مماثل في مجتمعاتنا الإسلامية المعاصرة دون أن يترتب عن ذلك استنكار وشجب أو ما هو أسوأ منه الاتهام والتعنيف ونحوه؟ فالיום لا يحبذ الخوض في نقاش القضايا الدينية، وكل سؤال لا يكون الغرض منه الاستفسار الديني فحسب بعد تدنيسا وتطاولا على المقدسات.

فهناك رفض لفتح النقاش رغم أن الفهم العميق والواعي للنص الديني لا يمكن أن يتحقق إلا بالنقاش الهادئ والناقد والبناء. إن محاولة الفهم من خلال طرح أسئلة على خطاب ديني معقد شيء مشروع، كما أن مناقشته ستساعد دون شك في ترسيخ الإيمان والاقناع.

إن هذا ما كانت تطمح إليه منذ الوهلة الأولى تلك النساء المؤمنات، فعندما صغن انتقاداتهن بتلك الصورة، كن متعطشات لإيجاد جواب يقوي قناعاتهن ويثلج صد رهن من خلال إعادة التأكيد على موقفهن الفعلي داخل مجتمع تسوده ثقافة السلطة الأبوية الصرف. فهل هناك ما هو أكثر شرعية بالنسبة لهن، من تأكيد حضورهن عن طريق مطالبهن الحصول على أجوية واضحة بشأن مساواتهن الروحية بالرجال، وهن اللواتي كن في بحث دائم عن حقوقهن منذ فجر الدعوة الإسلامية؟ وكيف لنا اليوم أن نرفض في خضم انتشار التفسير الديني القائم على الإقصاء والتمييز منح المرأة نفس الحق الممنوح للرجل، ونسكتها

كلما أرادت أن تقدم نظرة نقدية على ما قد يبدو لها من خلل واضح في قراءة النصوص

القرآنية؟

لم يقدم الرسول جوابا محددًا لشكوى النساء من مجتمعهن. إن صمته يعبر عن

تعاطفه معهن. أفليس هو الذي كان يبدي على الدوام عطفه وتفهمه لمعاناة النساء؟

ومع ذلك فالإجابة لم تتأخر، إذ سرعان ما نزلت من السماء بعد أن استجاب الله

المطلب هؤلاء النسوة... لقد بينت هذه الإجابة التي نزلت فوراً دون تأخير، وعبرت بوضوح

عن هذا المطلب النسائي، أن سؤال النسوة كان مشروعاً.

ويشهد مضمون هذه الآية على الإرادة الإلهية في تحقيق رغبة هؤلاء النسوة

المسلمات. إن ذكرهن صراحة في النص القرآني يعد تكريماً لهن واعترافاً بهن إلى الأبد.

وهذا ما جعل الله عز وجل يميز بشكل صريح في هذه الآية بين الجنسين حتى يؤكد على

مساواة النساء بالرجال

"إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات (... ) أعد الله لهم مغفرة وأجراً

عظيماً"<sup>1</sup>.

إن هذا الجواب الإلهي الذي يعلو عن أي وصف، ويستغني عن أي تعليق، هو ما

يجب ترسيخه في الذاكرة وما يجب معرفة كيفية إعادة قراءته، وكذا إعادة تأويله كلما راودنا

الشال بشأن روح المساواة التي تعكسها رسالة الدين الإسلامي، أو كلما انهالت الحملات

الفكرية الشرسة على الإسلام وعلى المرأة... وأيضاً كلما أردنا أن نطمئن قلوب الرجال و

<sup>1</sup> - سورة الأحزاب الآية 35.

النساء معا... أو كلما أردنا أن نقوم واقعنا نحن المسلمين بالنظر إلى ما ذكر في القرآن الكريم.

"الذين ءامنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب"<sup>1</sup>.

ومن بين الآيات القرآنية الأخرى التي يلي الله من خلالها انتظارات النساء، توجد آية

نزلت بعد احتجاج أم سلمة، زوجة الرسول صلى الله عليه وسلم بشأن هجرة النساء.

وفعلا، لقد عبرت أم سلمة عن خيبتها الشديدة عندما لاحظت أن القرآن لم يتعرض

بالذكر لمشاركة النساء في حدث يمثل مرحلة هامة من تاريخ الإسلام ألا وهو الهجرة إلى

الحبشة.

وقد جاء في الأثر أن أم سلمة قالت للرسول: يا رسول الله لا نسمع الله ذكر النساء

في الهجرة بشيء<sup>2</sup>. وهذا القول كان سببا في نزول الآية التالية: "فاستجاب لهم ربهم أني لا

أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى، بعضكم من بعض فالذين هاجروا من ديارهم

وأوذوا في سبيلي وقاتلوا وقالوا لأكفرن عنهم سيئاتهم ولأدخلنهم جنات تجري من تحتها

الأنهار ثوابا من عند الله والله عنده حسن الثواب"<sup>3</sup>.

وتنقل لنا تفاسير القرآن أن هذه الآيات نزلت مباشرة بعد الطلب الملح لأم سلمة، وهو

ما يعكس أولا وقبل كل شيء، المكانة الخاصة التي كانت تحظى بها عند الله عز وجل،

<sup>1</sup> - سورة الرعد، الآية 28.

<sup>2</sup> - فيما يخص أسباب نزول هذه الآية يمكن الرجوع إلى تفسير الطبري و تفسير ابن كثير اعتمادا على رواية مجاهد.

<sup>3</sup> - سورة آل عمران، الآية 195.



وينضاف إلى هذا أهمية هجرة المرأة بوصفها فعلا شكلا حدثا سياسيا بالغ الأهمية في المنظور القرآني.

لقد كان مطلب أم سلمة مفهوما ومبررا بعد أن سماها الحديث "المرأة ذات الهجرتين" لكونها هاجرت مرتين إلى الحبشة. وينقل لنا التاريخ أنها كانت أول امرأة هاجرت برفقة زوجها الأول أبي سلمة، من مكة إلى الحبشة. كما بين أيضا أن هجرتها معا اضطررا إليها اضطرارا بعد الابتزاز والمضايقة التي تعرضا لها من لدن سادة مكة وكفار قريش عموما.

وهناك قصص طويلة لأم سلمة تروي الأحداث المختلفة التي عاشتها أثناء هجرتها الأولى إلى الحبشة والثانية إلى المدينة. كما تصف المعاناة التي كابدتها بمعية زوجها حين آمنت بالدعوة الإسلامية. وبالفعل، هناك روايات عديدة تحكي عن ما عانته أم سلمة خصوصا عندما فرقت قبيلتها وأسررتها بينها وبين زوجها وطفلها . فبعد أن أرغمت إرغاما على فراق زوجها، وبعد أن احتجز ابنها من طرف أفراد أسرتها، عادت إلى المدينة وعاشت بها وحيدة طيلة سنة كاملة، وأمضت أيامها تبكي ابنها و زوجها.

وبعد العذاب الذي عاشته هذه المرأة، رق قلب أحد كبار أسرتها وتشفع لها عند قبيلتها فاستعادت ابنها وسمح لها بعد ذلك بأن تلتحق بزوجها والمسلمين الآخرين في المدينة.

وسلكت وحدها رفقة طفلها فقط الطريق الطويلة متجهة صوب المدينة رغم المخاطر التي كانت تحفها. لقد قررت أن تلتحق بزوجها لكي يعيشا سلام في المدينة الجديدة تحت

راية الإسلام. مدينة الحرية التي كانت مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم. ولقد اقترح عليها

فارس همام عيد مغادرتها مكة ان يرافقها حتى تبلغ مقصدها دون أن ينالها مكروه.

وقد يبدو من الأهمية بهذا الخصوص، الإشارة إلى أن هذا الفارس الذي قدم مساعدته

و حمايته لهذه المرأة وابنها، لم يكن مسلما حينها، ولم يمنع ذلك أم سلمة من أن تقبل أن يمد

لها يد العون، وأن تقدر موقفه الشهم و شني على تصرفه النبيل الذي لا تشوبه شائبة<sup>1</sup>.

يستخلص من هذه الواقعة القصيرة من تاريخ الإسلام، الكثير من الدروس التي يتعين

علينا أن نتخذها عبرة في حياتنا نحن المسلمين، حيث صار التعصب ورفض الآخر قاعدة

عامة وسلوكا سائدا عند البعض منا. كما أصبحت الحيطة الشديدة والريبة يصاحبان كل

امرأة رافقت رجلا في الطريق بدعوى أن هذه الرفقة غير مشروعة لا تسمح بها الدين. لم

تكن أم سلمة من النساء اللواتي يعقدن الأمور، بل كانت امرأة متحررة وحازمة في الآن ذاته؛

إيمانها القوي بالتصرف النبيل لهذا الرجل الشهم النبيل كان كافيا رغم أنها كانت وحيدة الحما

تتها من أي اعتداء غير أخلاقي.

وأمام مسيرة هذه المقاومة، بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى، وأمام كل المصاعب

التي تكبذتها من خلال هذه الأحداث المتتالية، فهل من الممكن بعد كل هذا، أن نستغرب

من موافقة رسول الإسلام على طلب أم سلمة؟

---

<sup>1</sup> - يتعلق الأمر بعثمان بن أبي طلحة، للمزيد يمكن الاطلاع على الجزء الأول من كتاب أم سلمة أم المؤمنين لأمانة مزيان الحسيني، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية للملكة المغربية .

باسمها الخاص وباسم تلك النساء اللواتي عانين خلال المراحل المختلفة للهجرة، انبرت أم سلمة للتعبير عن مشاعرها الصادقة، وخيبة أملها وتألمها عندما لم يشر القرآن إلى مشاركة النساء في الهجرة التي تعتبر حدثاً من الأهمية بما كان في سياق مسيرة الدعوة الإسلامية.

وقد يبدو أن الرجال هم الذين كوفؤوا على إنجازاتهم بعكس النساء اللواتي لم يعترف لهن قط، من أمثال أم سلمة وغيرها اللاتي ضحين بحياتهن وحياة أطفالهن من أجل الدفاع عن إيمانهن و معتقداتهن...

لذلك فإن الله العادل المقسط الذي يخاطب بكلامه كل إنسان، أكان رجلاً أم امرأة استجاب الدعاء أم سلمة وأعلن الالتزام الروحي والسياسي الذي يتساوى فيه الذكور بالإناث. "أنى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى، بعضكم من بعض"<sup>1</sup>.

لقد كانت هذه الآية رداً منه تعالى على أم سلمة. وعدا إلهيا أبديا يتجاوز حدود الزمان والتاريخ.

الوعد بعدم إضاعة أجر البعض على حساب البعض الآخر... الوعد بأن يكون عدله تبارك وتعالى شاملاً دون تمييز بين الجنسين، وكيفما كانت طبيعة الظروف ونوعية الأفعال... إن الله جلّمه وفضله تظمن قلب هذه المرأة وقلوب كل النساء الأخريات، يؤكد من خلال هذه الآية على المساواة بين الجنسين.

<sup>1</sup> - سورة آل عمران، الآية 195.

وبالفعل، فإن أحد المفسرين القدامى بين أن قوله تعالى "منكم من ذكر وأنثى" والذي يليه "بعضكم من بعض" يدل على أن الله عز وجل، يؤكد على مفهوم مساواة المرأة بالرجل باستعمال هذه الصورة الجامعة للرجال والنساء معا "بعضكم من بعض"<sup>1</sup>.  
وغني عن البيان أن هذه الآية تؤكد على الأصرة القوية التي يجب أن تربط بشكل طبيعي الرجال والنساء بعضهم البعض، كما تؤكد من جديد على الأصل المشترك الجامع بينهما.

ويذكر الله هنا بعدم وجود أي فرق بين الناس لأن خالقهم واحد وأصلهم واحد، ويؤكد من جهة ثانية علماء آخرون أن هذه الآية مماثلة لآية أخرى وهي: "والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر"<sup>2</sup>.

إن المنظور القرآني يؤكد على ارتباط الجنسين فيما بينهما ارتباطا تاما كما يحملهما مسؤولية مشتركة وهذا ما يجعلنا نعتبره دليلا قاطعا على ضرورة تحديد معايير العلاقة بين الرجل والمرأة.

هذه الآية وحدها تشكل المحور الذي تدور حوله مسألة المساواة، كما تلخص أيضا جوهر العمل السياسي الذي يقع على عاتق الفاعلين في المجتمع من نساء ورجال معا.  
إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مهمة أساس لا تقع فقط على عاتق السلطة السياسية المسؤولة، بل يتحملها كذلك كل مسلم ومسلمة.

---

<sup>1</sup> - تفسير البعوي.

<sup>2</sup> - سورة التوبة، الآية 71.

من هنا يتعين على كل واحد منهما أن يحارب القمع، ويبذل كل ما في وسعه لتحقيق

العدالة الاجتماعية، ويسعى جاهدا من أجل توزيع للثروة.

عندما يفى مجتمع ما، بهذا المبدأ الأساس في الدين الإسلامي، وهو الأمر بالمعروف

والنهي عن المنكر، بعد مجتمعا عادلا.

إن هذا الأمر الإلهي الذي يبحث المؤمنون والمؤمنات معا على التضامن في القيام

بهذا العمل السياسي الأساس، يبرهن بشكل لا يحتاج إلى نقاش، على أن الرؤية القرآنية تقوم

على المساواة بين الجنسين.

ولذلك، نأسف كثيرا عندما نرى بعض النصوص عند بعض المفسرين القدامى

تتعارض تماما مع القيم التي يجب أن تجمع بين الرجال والنساء كالانسجام والاتحاد

والمساواة انطلقا على حد ما يستفاد من المفهوم القرآني.

إن هناك بعض العلماء مازلوا قابعين في سجن السياق الثقافي القديم لا يستطيعون

التخلص من أسرته إذ ليس لهم القدرة على فهم و تفسير هذا النوع من الآيات إلا برؤية

تقليدية عتيقة، وذلك على الرغم من رجوعهم إلى النص القرآني، وإقرارهم منذ البداية بوجود

مساواة روحية بين الجنسين.

إن هؤلاء يغضون الطرف عن الآيات القرآنية التي رغم وضوحها ورغم صور معاني

المساواة التي تعكسها، لا يترددون في إخضاع نص هذه الآيات التفسير لا تحمل إلا

دلالات التمييز بل والتحقير أيضا.

هذا التفسير الذي يحمل كراهية للنساء، يتوارثه المسلمون جيلا من بعد جيل، مما جعلهم ينغلقون داخل دائرة القراءة التقليدية، بل انتهى بهم الأمر إلى استبدال الرسالة القرآنية بهذه القراءة المتحجرة التي أصبحت بمثابة المبدأ الإسلامي الراسخ.

## المباهلة أو عندما يحث القرآن النساء على المشاركة الاجتماعية

هناك آية في سورة آل عمران، يطلق عليها أيضا اسم "حادثة المباهلة"، يخاطب فيها الله عز وجل رسوله قائلا: "فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنت الله على الكاذبين"<sup>1</sup>.

لقد نزلت هذه الآية بمناسبة مجيء طائفة من المسيحيين من قبيلة نجران، يريدون الحديث إلى الرسول صلى الله عليه وسلم. فاستقبلهم صلى الله عليه وسلم في مسجده بالمدينة، ويروى في الحديث أنه سمح لهم بالقيام بشعائرهم الدينية في حرم المسجد<sup>2</sup>.

لقد دخل كبار رجال الدين من الطائفة المسيحية في مناقشة عقديّة مع الرسول صلى الله عليه وسلم تضمنت العديد من الأسئلة منها ما هو جدلي مثل روح القدس عيسى ومنها ما كان متعلقا بمفهوم الثالوث. لقد طغت على حديثهم مع الرسول صلى الله عليه وسلم نعمة الجدل كلما تعرضوا لبعض قضايا المعتقد. ولما أصر بعض المسيحيين منهم إصرارا لحد أن ضاق صدر الرسول بهم ذرعا لأن يجيب صلى الله عليه وسلم على تساؤلاتهم بشكل مباشر،

<sup>1</sup> - سورة آل عمران، الآية 61.

<sup>2</sup> - تفسير الطبري، يمكن أن نظيف شيئا في هذا الصدد. انظر ص 37 يرجع أيضا لمفهوم المباهلة في الإسلام.

فأنزل الله هذه الآية داعيا فيها رسوله لأن يدعو طائفة المسلمين والمسيحيين إلى جمع كبير لفتح باب الجدل والنقاش.

طبقا للأمر الإلهي اقترح عليهم الرسول اللجوء إلى المباهلة وهي مواجهة كلامية تعرف كذلك باسم التحكيم الالهي. وهو تقليد قديم طالب فيه الطرفان المتحاربان بأن يتواجهوا في مبارزة كلامية يعرض فيها كل منهما دعاويه استنادا على العدالة الالهية التي تملك دون غيرها شرعية الحكم لصالح أحد الطرفين.

وقد تقدم الرسول مع أفراد أسرته المكونة من حفيديه الحسن والحسين وابنته فاطمة الزهراء وصهره علي في يوم الموعد الذي ضرب للقاء طائفة المسيحيين.

ويروي الإخباريون أن الطائفة المسيحية ألغت اللقاء خوفا من لعنة إلهية من جهة، ومن تبعات الحزينة التي سيكون لها أثر سيئ على معنويات مرافقيها من جهة ثانية. لقد اقترح الزعماء الدينيون المسيحيون على الرسول صلى الله عليه وسلم بعد ذلك، أن يوقعوا اتفاق سلام وصدافة مع المسلمين، وقد قبل الرسول عقد هذا الاتفاق مؤكدا من جديد على أن الإسلام دين يدعو إلى التعايش مع الديانات السماوية الأخرى أولا وقبل كل شيء، وذلك في ظل احترام العلاقات الجيدة وحرص على استمرارها.

وهناك معلومات متعددة يمكن أن نستخلصها من هذا الحدث التاريخي كإهتمام الخاص الذي أولاه الرسول صلى الله عليه وسلم لأولئك الذين يسميهم الحديث أهل الكتاب، وسكوته عن جد لهم الديني وهو ما ينم عن احترامه لهم وقدرته على قبول الآخر مهما كانت

معتقداته، وينضاف إلى كل ذلك دعوة الله جميع عباده نساء ورجالا بوصفهم مؤمنين إلى التشارك في كل المناسبات الاجتماعية كيفما كانت أهميتها.

وهذه الآية تحمل رسالة واضحة من الخالق، تتجلى في دعوة النساء وتشجيعهن - المسلمات منهم وغير المسلمات على المساهمة في النقاش العمومي. كما تظهر إرادة إلهية حقيقية تسعى لجعل المرأة شريكا في بناء أي مشروع مجتمعي مثلها في ذلك مثل الرجل. إننا نلحظ باستمرار، واعتمادا على مقاصد الشريعة عزم الدين الإسلامي على إشراك المرأة في كل مناحي الحياة.

يعتبر حدث المباهلة الذي كان مسرحه في أماكن عامة في ذلك الوقت، مناسبة لكشف الحقيقة باستعمال صيغ لعنية - مثل اللعنة التي وجب أن تنزل على أولئك الذين يمتنون الكذب - كانت في ذلك الوقت أحسن طريقة لاختبار حسن النوايا بالنسبة للخصمين معا.

وإذا أردنا أن ننظر إلى المباهلة بمنظور وقتنا الحاضر، يمكن أن تخيلها بمثابة حوار غني أو مناظرة بين خصمين حيث كل منهما يقدم حجته أمام قاض يتمتع وحده بسلطة قرار إصدار الحكم.

إن هذا النوع من المناظرة العمومية، أراد به الله به أن يشرك النساء، فلم يتردد الرسول صلى الله عليه وسلم بل لبي ندائه عز وجل وعين امرأة تمثل نساء أسرته، وكانت ابنته المحبوبة فاطمة الزهراء هي المرشحة للقيام بهذا الدور.



لم يقم الرسول صلى الله عليه وسلم إلا بالامتثال إلى أوامر الله تعالى والحضور لهذا اللقاء العام الذي سيجمع الطائفتين، مصطحبا معه جميع أفراد طائفته من نساء ورجال وأطفال. لقد بادر صلوات الله وسلامه عليه بالذهاب إلى هذا اللقاء الحدث، بمعية مثل عن كل فرد من أفراد أسرته ليكون مثلا يحتذى.

ولا تقدم لنا مصنفات شرح الحديث ولا تاريخه تفاصيل دقيقة عن هذا الموضوع. فلم نتحدث مثلا عن حضور باقي أفراد الطائفة المسلمة الآخرين هذا اللقاء. ولم تقدم لنا معلومات عن حضور نساء أخريات إلى جانب ابنة الرسول فاطمة الزهراء. كما أن إلغاء الحدث من قبل الطرف الخصم لا ساعدنا على تقدير المشاركة الفعلية للنساء المسلمات والتي كانت ستعتبر مهمة للغاية.

وفي كل الأحوال، فإن مثال الرسول بعد عبرة لمن يعتبر، إنه يعلمنا المكانة الحقيقية للمرأة في مجتمع بريد لنفسه أن يعيش على الالتزام بالمبادئ الأساس التي انبنى عليها الإسلام. هذا في وقت تقترح علينا فيه نظرة مخيفة جدا، إن لم نقل متحجرة كلساء تنسب نفسها للإسلام، وتبعد أي مشاركة اجتماعية للمرأة في النقاش العمومي؛ معتمدا في ذلك أن الإسلام منع ما يسمى بالاختلاء فأصبح هذا الأخير بشكل بالفعل مفهوما مفرعا بالنسبة للمجتمعات الإسلامية التي تتشبه بممارسة شعائرها الدينية على الوجه الأكمل. ويمكن أن تساءل في هذا الصدد عن أي اختلاط يتحدث هؤلاء بالتحديد، علما أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يتردد البتة في إشراك النساء إلى جانب الرجال عند كل عمل اجتماعي كيفما

كانت درجة أهميته. وهذا أيضا ما علمه للمؤمنين وما عكسه سلوك أقاربه صلى الله عليه وسلم. وتروي لنا أم المؤمنين أم سلمة، وهي من أوسع نساء عصرها علما بسنته صلى الله عليه وسلم، أنه في أحد الأيام، وبينما كانت خادمتها تمشط لها شعرها، سمعت نداء الرسول من على المنبر يقول: "أيها الناس"، فقامت لتلتحق بالمجلس فذكرتها خادمتها أن هذا النداء لا يعني النساء. فأجابتها أم سلمة قائلة: "لكنني من الناس"<sup>1</sup>.

وفي السياق ذاته، يمكن أن نضيف إلى ما سبق قصة امرأة أخرى كانت في طليعة المقاومات وهي أسماء بنت أبي بكر التي كانت تشكل بالنسبة للرسول صلى الله عليه وسلم في فترة من فترات التاريخ الإسلامي الدعامة المادية والمعنوية الأساس. وتحكي هذه المرأة أنها في أحد الأيام، وبسبب الضوضاء التي عمت أرجاء مسجد المدينة، لم تستطع أن تسمع ما ختم به الرسول كلامه، فطلبت ذلك من رجل كان يجلس بجوارها<sup>2</sup>.

وبين هذا النوع من الأحاديث، من بين أحاديث أخرى كثيرة، أنه لم تكن أبدا حواجز مادية أو نفسية بين المؤمنين والمؤمنات في فترة الوحي. إن المؤمن من هذا المنطلق، رجلا كان أو امرأة، يستقبل رسالة الإسلام باعتبارها رسالة روحية تخاطب كينونته البشرية أولا وقبل كل شيء، وهذا ما التزم رسول الإسلام صلى الله عليه وسلم بتعليمه ونقله إلى صحابته رجالا ونساء على حد سواء.

---

<sup>1</sup> - رواه مسلم.

<sup>2</sup> - حديث أسماء بنت أبي بكر، ذكره الحافظ بن حجر عن البخاري. يمكن هنا تذكر الحديث المترجم.

إن التاريخ الإسلامي مليء بالقصص التي تبين كيف أن المجتمع الإسلامي في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم كان مجتمعاً يضم النساء والرجال، الكل يعمل جنباً إلى جنب من أجل المصلحة الجماعية، ولم يتيهوا في دروب الاعتبارات الثانوية أو الجزئية. لقد كان إيمانهم كافياً ليحميهم من هذا الضياع كما كانوا في غنى عن حواجز عائلة يحتمون من ورائها لتجنب الانحرافات الأخلاقية<sup>1</sup>.

كيف وصلت بنا الحال اليوم، إلى التفكير باسم الإسلام في خلق أشكال للتفريق بين الجنسين عند أي جمع يحمل طابها اجتماعياً، وابتكار خطط لا مثيل لها؛ همها الوحيد التفريق داخل الفضاء الواحد بين الإناث والذكور. وكل هذه المبتدعات غرضها أن تؤكد على أن العمل الاجتماعي في حد ذاته هو عمل إسلامي محض؟ إننا من خلال هذا المنظور تشبث بالمظاهر بشكل مرضي، في حين أن ما يجب أن نحرص عليه، حتى يكون إسلامياً، هو سلوكنا تجاه بعضنا البعض... وكان من الأولى بنا أن لا نضيع طاقتنا والتفنن في صنع حواجز متخيلة، عوض أن نركز الجهود على تربية هؤلاء النساء والرجال على البعد الحقيقي الذي تعكسه روح الشريعة الإسلامية. هذا المنظور سيجعل من التقوى، أي التعلق بالقيم الأخلاقية، المعيار الأوحد لاختبار كل واحد منا. فمن خلال هذا المنحى فقط، يمكن أن يزول الفرق بين الجنسين ويمكن أن يرى أحدهما في الآخر مرآة لإنسانيته.

---

<sup>1</sup> - يمكن الرجوع في هذا الصدد للكتاب القيم الذي ألفه عبد الحليم أبو شوكت بعنوان "موسوعة المرأة في الإسلام"، منشورات القلم 2000.

ثم بعد كل هذا، هل هناك مثال أحسن فيما يخص الاختلاط، من الاختلاط الإسلامي الذي يجسد بصورة رائعة في شعيرة الحج حيث الرجال والنساء سواسية يطوفون جنباً إلى جنب حول الكعبة في مكة المكرمة. أفليست هذه اللحظة وحدها تحمل دلالة تذكرنا على الدوام بروح المساواة في الإسلام؟

### المهاجرات أو اللاجئات السياسيات

منذ أن بدأ الرسول في نشر دعوته، تعرض صلى الله عليه وسلم بمعيته المسلمين الأوائل لاضطهاد حقيقي لاسيما من وجهاء مكة في قبيلة قريش. لقد أقامت رسالة الإسلام قطيعة صارمة مع النظام الاجتماعي القديم، الذي تأسس على التقاليد والمصالح التجارية واستغلال المعوزين من الفقراء. وشكل مفهوم وحدانية الله الذي أعلن عنه الرسول صلى الله عليه وسلم خطراً سياسياً واقتصادياً حقيقياً للعرب في ذلك الوقت. لقد أعاد بناء هرم النظام الاجتماعي في الجزيرة العربية والقائم على أساس الوثنية والسلطة والمال والموروث التقليدي الذي وجد العرب عليه آباءهم وأسلافهم والمتمثل بامتياز في سلطة الأخلاق القبلية.

إن مئات الأصنام التي كانت معروضة على جوانب الكعبة في ذلك الوقت، لم توضع هناك الغاية ثقافية. لقد كانت كل واحدة منها تمثل حسب مصدرها وبعدها الرمزي السلطة الاقتصادية القبلية المجاورة. إنها طريقة من طرق التأمين والتقويم تقع في أيدي نخبة من

أغنياء قريش يمنحونها وفق مصالحهم ويستعملونها ورقة لحماية المبادلات التجارية بين هذه العشائر ومكة.

وسرعان ما اكتشف المستفيدون والزعماء المتحكمون في هذه السلطة، أن رسالة الإسلام تهددهم بشكل واضح لكونها تدعو للتحرر من كل الأنظمة المحتكرة والقامعة، وتلتزم بالخضوع لله الخالق الواحد الأحد.

لم تعد تشكل لا السلطة ولا المال ولا الأرسقراطية ولا هوية العشيرة أي تأثير على الإنسان الذي صار واعيا بالإضافة إلى إيمانه برسالة الإسلام، بقيمة حرته بوصفه فردا. لقد نظر أصحاب المصالح من الزعماء وغيرهم أن حدث ظهور الإسلام بعد رسالة مخفوفة بكل المخاطر خصوصا وأن هذا الدين الجديد ظهر في وسط مدينة مثل مكة، كانت تشكل حينذاك ملتقى للطرق التجارية ومركزا أساسا لمختلف الديانات.

من هذا المنطلق قام زعماء قريش - بعد اتساع دائرة المؤمنين بالرسالة الجديدة، وتزايد الانتقادات بخصوص نظام حكمهم، وضعف قوتهم يوما بعد يوم، بتنظيم حملة قمع حقيقية ضد أول المعتنقين للإسلام. وتمثلت أولا في المقاطعة الاقتصادية ثم التقتيل المستهدف بممارسة كل صنوف العقاب والعنف الجسدي.

ومع ارتفاع وتيرة هذا الاضطهاد رغم توالي الأيام والشهور، اضطر الرسول صلى الله عليه وسلم في بداية الأمر أن ينصح أتباعه بالهجرة إلى الحبشة<sup>1</sup>، خاصة منهم أولئك الذين أصبحت حياتهم مهددة. لقد كانت الحبشة مكانا آمنا لهم، يحكمها نجاشي مسيحي أثنى الرسول صلى الله عليه وسلم على عدله ونزاهته.

وقد دعا الرسول صلى الله عليه وسلم أتباعه المؤمنين في وقت لاحق إلى هجرة أخرى تمت بشكل تدريجي صوب مدينة المستقبل هذه المرة، إنها المدينة المنورة المدينة الجديدة للإسلام.

لقد تمت الموجة الأولى للهجرة نحو الحبشة، بطوعية ودون إجبار أو فرض، كما كان طابع هذه الهجرة مؤقتا من حيث الزمان، بخلاف الهجرة الثانية إلى المدينة المنورة التي كانت مفروضة على كل من اتبع الرسالة الجديدة، كما كانت تهدف إلى الاستقرار النهائي وليس العرضي أو المؤقت من حيث الزمان والمكان. لقد مثلت هجرة الرسول للمدينة المنورة بداية التاريخ جديد في العصر الإسلامي، حيث جسدت في العصر الجاهلي انشقاقا حقيقيا بكل ما تحمله الكلمة من معنى، انشقاقا في عالم لا قوانين فيه، في عالم يطغى عليه الجهل... جهل بوجود بالله ووحدانيته وجهل برسالاته، وانطلاقا من الشعور بالانتماء عن طريق البعد الروحي للإسلام استطاع المؤمن أن يعي الغرض من وجوده في هذه الدنيا، ويفكر في مستقبله وفي موته وفي عاقبته في الدار الأخرى، فرفض الخضوع لأوامر

---

<sup>1</sup> - إن وصية الرسول لأتباعه المسلمين بالذهاب إلى أرض مسيحية (الحبشة) فيها إشارات دالة تؤكد على أن الغرض من رسالة الإسلام ليس القضاء على الديانات الأخرى كما يريد أن يقنعنا البعض، بل إعادة تأهيل المفهوم الأساس الذي تجتمع حوله كل الديانات ألا وهو العدالة العالمية.

المشركين والانصياع لهم. إن عزم القيام بالهجرة في ذلك الوقت من التاريخ، فيه رفض للنظام القائم، وتطلع لحرية من أجل الإيمان وممارسة الشعائر.

لقد عرف المسلمون والمسلمات من خلال الهجرة الأولى نحو الحبشة والثانية نحو المدينة اغترابا حقيقيا بعدما تركوا منازلهم وممتلكاتهم وعائلاتهم أيضا، وتخلوا عن الأرض التي ولدوا فيها من أجل هدف وحيد هو حماية إيمانهم و قناعاتهم.

وهذه الهجرة شكلت تحولا في النظام السياسي لذلك العصر، كما كانت سببا رئيسا في سرعة انتشار الرسالة الإسلامية واتساع رقعة المؤمنين بها ونجاحها المتصاعد. لذلك كان الرجال والنساء معنيان بهذه المبادرة السياسية على حد ما بينه القرآن عند ذكره للمهاجرات على وجه الخصوص.

وبالفعل يتحدث القرآن عن المهاجرات، مستعملا صيغة جمع المؤنث السالم التي تشير فقط إلى النساء بوصفهن مهاجرات أو لاجئات سياسيات، وذلك في مقابل صيغة جمع المذكر السالم (المهاجرون) والتي تحيل على الرجال. يقول الله تعالى بهذا الخصوص :

"يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن، الله أعلم بإيمانهن"<sup>1</sup>.

نستخلص على هذا الأساس، أن الله يعترف اعترافا تاما للنساء بوضع المهاجرات، أو بمعنى أدق اللاجئات السياسيات. وعلى الرغم من اختلاف السياق التاريخي، فإن تعريف مجاهدات ذلك العصر يمكن أن يتطابق تماما مع اللاجئات السياسيات تبعا لما هو متعارف عليه اليوم في التشريعات العالمية. وبالفعل هذا الوضع يمنح لكل شخص معرض في بلده

<sup>1</sup> - سورة الممتحنة الآية 10.

الأصلي للخطر والأذى، أو الخوف على نفسه بسبب عرقه أو دينه أو إثنيته أو آرائه السياسية.

ومن المؤكد أن المهاجرات في ذلك الوقت مثلن مثل الرجال، لقد كان وضعهن وضع اللاجئات السياسيات اللاتي اضطررن لمغادرة بلدن الذي نشأن فيه. وواجهن مثل الرجال ابتلاءات مؤلمة وخضعن نتيجة لذلك لأسوء أشكال التعذيب وقاومن جميع أشكال الابتزاز.

وسنطيل كثيرا إذا أردنا في هذا السياق كل الشهادات التاريخية لصنوف الاضطهاد الذي تعرضت له النساء المسلمات الأوائل واللواتي مثلن شرائح مختلفة ومنتوعة من المجتمع، بدءا من الأكثر غنى ووصولا إلى الأكثر فقرا وخصاصة، مرورا بالأكثر نبلا ووجاهة اجتماعية. إن هناك العديد من القصص التي تبين لنا إلى أي حد وصل صمود النساء وثباتهن على إيمانهم، رغم ما تعرضن له من تعذيب جسدي لا يقل عما تعرض له الرجال<sup>1</sup>.

### سمية

من الجدير بالذكر أن نشير إلى أن أول شهيد في الإسلام أي أول شخص لفظ أنفاسه الأخيرة تحت التعذيب سبب ثباته على إيمانه كان امرأة، وهي سمية أم عمار التي طعنها أبو جهل - أحد أبرز زعماء مكة والعدو للدود للرسول صلى الله عليه وسلم - بحربة في قبلها بعد ما عرضها لأقصى أشكال التعذيب والتكيل.

<sup>1</sup> - انظر أسماء النساء اللاتي تعرضن للتعذيب في دراسة قامت بها أسماء أحمد زياد، "دور المرأة السياسي...ص 115.



لقد كانت هذه المرأة من بين السبعة الأوائل اللواتي اعتنقن الإسلام. فرغم أنها تنحدر من طبقة اجتماعية متواضعة جدا، لم تخش إعلان إسلامها وأن تصرخ عاليا أمام الجميع معلنة اعتناقها للإسلام، وفي الوقت الذي كان فيه مسلمون آخرون، رجال منهم على وجه الحديد، فضلوا إخفاء إسلامهم. كانت امرأة متواضعة لم ترد التراجع عن قناعاتها، رغم التعذيب الجسدي الذي اضطرت لمواجهته والتصدي له بمعية أفراد عائلتها. ولم يستطع أي شيء أن يبذل رأبها أو ينتزع التنازل منها ولو شفويا ظاهريا فقط، على نحو ما قام به ابنها الذي أوصاه الرسول صلى الله عليه وسلم بإنكار انتمائه للإسلام، أمام عجزه عن تحمل آلام التعذيب التي تعرض له من طرف المشركين...

لقد رفضت سمية بإصرار وصمود، أن تتراجع عن إسلامها لتتقذ نفسها من هلاك محتوم، وظلت تؤكد تحت سياط التعذيب التزامها النهائي وانتماءها الذي لا رجعة فيه، إلى أن لفظت أنفاسها الأخيرة مجرية أبي جهل. وإذا كانت درجة التحمل الجسدي معيارا مهما في الاختلاف الحاصل بين الرجل و المرأة، فأنها تفقد أحيانا كل قيمتها أمام نموذج كهذا، حين يصل الأمر إلى مستوى من التحمل النفسي يفوق كثيرا كل القدرات الجسدية الممكنة.

إن مثال سمية لوحده، يقوم شاهدا على الحجم الذي شاركت به نساء ذلك العصر في السياسة، وعلى حجم فهمهن لرسالة الإسلام التي مثلت بالنسبة لهن مسؤولية جسيمة اضطلعتن بمهمة القيام بها. وقد منح لهن هذه المسؤولية السياسية النص القرآني حيث يتكرر ذكرها في العديد من الآيات. إن القصة المفصلة لتلك المهاجرات المذكورة بتفصيل وإسهاب

في الكتب الأولى للتاريخ الإسلامي، والتي تروي مقاومتهن وشجاعتهن وتضحياتهن. وبالرغم من ذلك سنلاحظ فيما بعد، كيف تم تهميش مشاركتهن وأصبح من النادر أن تعطاهن القيمة التي تليق بهن عن جدارة واستحقاق<sup>1</sup>.

### زينب

ويمكننا ذكر مثال اخر من أمثلة المهاجرات ستخلصه من قصة زينب بنت الرسول. لقد أصيبت بجروح خطيرة خلال سفرها إلى المدينة على يد جماعة من المقاتلين جاءوا من مكة، فأجهضت على اثر هذا الاعتداء، ثم توفيت في المدينة بعد فترة من معاناتها من النزيف الدموي الذي أصابها بسبب الإجهاض<sup>2</sup>.

### أم شريك

وهناك قصة أخرى كقصة أم شريك، وهي امرأة من عشيرة دوس، اعتنقت الإسلام خلال إقامتها في مكة. ولعبت دورا كبيرا في نشر رسالة الإسلام في المرحلة السرية الأولى للدعوة الإسلامية، كانت تليق مختلف منازل النساء ذوات المال والجاه في مجتمع مكة لدعوتهن لاعتناق هذا الدين الجديد. لقد أدت حركتها ونشاطها القوي في الاتصال والاستخبار إلى كشفها من طرف أهل قريش الذين أرجعوا إلى أهل عشيرتها، بعد أن ساموها سوء العذاب وكل صنوف العنف النفسي من أجل أن ترجع عما هي عليه، وتخلي عن إيمانها وقناعاتها. وتروي لنا بنفسها كيف تم تعذيبها وتركها تحت الأصفاد طوال أيام،

---

<sup>1</sup> - الفهرس الكامل للمهاجرات في الطبقات الكبرى لابن سعد.

<sup>2</sup> - تاريخ الطبري.

ودون ماء في قيظ شمس الصحراء المحرقة. ورغم كل ذلك لم تستسلم رغم كل هذه العذابات، وكانت ترفع سبابتها للأعلى مشيرة إلى تأكيد إيمانها بالإنس والإله الواحد الأحد. لقد وجدت نفسها فيما بعد، بمفردها، وحيدة تواجه قدرها الحتم، ورغم ذلك لم تكن منشغلة سوى بفكرة واحدة هي الوصول إلى المدينة المنورة ولقاء الرسول صلى الله عليه وسلم والمسلمين الآخرين. لقد كانت الطريق إلى المدينة طويلة ومحفوفة بالمخاطر والصعاب، خصوصا بالنسبة لامرأة وحيدة، لذلك كان عليها أن تجد رجلا يحميها ويرافقها في الطريق ولم تجد رغم جثها الطويل إلا رجلا يهوديا رق لحالها وأشفق عليها لما عرف قصتها، فتطوع لمرافقتها واصطحبها إلى المدينة<sup>1</sup>. وتذكر بعض التفاسير أن هذه المرأة لما وصلت إلى المدينة المنورة بعد رحلتها الشاقة في الصحراء عرضت نفسها على النبي صلى الله عليه وسلم ليتزوجها. ويشير القرآن هذه الخطوة غير العادية ويشير لأم شريك بصفة المؤمنة.

"وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبي"<sup>2</sup>.

إن أقل ما يمكن أن يقال عن هذا السلوك سواء في ذلك العصر أو في العصر الحاضر أنه تصرف جريء من أم شريك، إذ لم ينتقده النص القرآني أبدا، بل على عكس ذلك نجده يصفها بالمؤمنة واستعمال وصف كهذا في الخطاب القرآني يحمل قيمة كبيرة،

---

<sup>1</sup> - رواه أبو هريرة من قصة يونس ابن بكير. القصة كاملة مأخوذة من محمد سعد مايبيد، موسوعة حياة الصحابييات، طبعة الغزالي، سوريا 2000 ص 144.

<sup>2</sup> - سورة الأحزاب الآية 50.

وشهد على موافقته على هذا الفعل الذي تلقاه البعض باستتكار شديد في ذلك العصر، بما في ذلك عائشة زوجة الرسول صلى الله عليه وسلم<sup>1</sup>.

ويمكن أن نرى في هذه التسمية مؤمنة شهادة اعتراف من القرآن يشهد فيها على كفاح هذه المرأة في سبيل إيمانها، كما يقدر قيمة سلوكها وتصرفها الجريء دون شك والذي يبرز في الآن ذاته الشخصية القوية التي كانت تتمتع بها. لقد اقتنعت برسالة الإسلام منذ اليوم الأول للدعوة الإسلامية، واتخذت لنفسها مساراً مثالياً، مسار أول مجاهدة مسلمة كافحت عن طريق العمل السري، فسجنت وعذبت جراء ذلك مرات عديدة، وهو ما مكنها فيما بعد على الحصول على صفة اللجوء السياسي.

إن هذا النوع من النساء ذوات الشخصية القوية، المتفتحة والصادقة والشجاعة هن من أشار إليهن الله في القرآن. ولم يشر أبداً إلى المرأة الخاضعة والمهمشة والخنوع على الدوام وهي صفات أصبحت تمثل الصورة النموذج التي تلصق بالمرأة المسلمة في عصرنا الحالي.

### أسماء بنت أبي بكر

وهناك مثال آخر بجسده أسماء بنت أبي بكر التي عرفت هي كذلك مساراً مذهلاً، ولعبت دوراً حاسماً خلال المراحل المبكرة لنزول الوحي. أليست هي التي عرفت كيف تخفي

---

<sup>1</sup> - رواية أم شريك والانتقاد الذي وجهته عائشة، القصة كاملة مأخوذة من محمد سعد مايبيد، موسوعة حياة الصحابيات، الطبقات الكبرى لابن سعد.. الإشارة إلى ذلك المرجع.

تاريخ ذهاب الرسول صحبة أبيها بكر الصديق إلى المدينة، بعد المراقبة الشديدة التي وضعت تحتها من طرف الأعداء من قرشي مكة؟

إن أهل قريش وعلى رأسهم أبي جهل نفسه، جاؤوا لاضطهاد أسماء بنت أبي بكر باحثين عن الرسول صلى الله عليه وسلم، وأمام تكتمها وصمتها صفعها أبو جهل صفة شديدة ساخطا عليها بعد أن لم تمده بالمعلومات الكافية التي تساعد على القبض على الرسول صلى الله عليه وسلم. وقد كانت كذلك هي من يحمل المؤونة والزاد سرا للرسول ولأبي بكر خلال اختبائهما في الغار عند طريق هجرتهم إلى المدينة. وفي هذه المناسبة لقبها الرسول بذات النطاقين أي ذات الحزامين لأنها كانت تخفي الطعام الذي كانت تجلبه للرسول ولأبيها بكر الصديق داخل حزامين اتخذتهما نطاقا لها.

كانت أسماء بنت أبي بكر من الذين شرمهم الرسول صلى الله عليه وسلم بالجنة<sup>1</sup>، وهذه شهادة على الدور الذي لعبته خلال الهجرة، إذ كانت بمفردها تحمي الرسول وتساعدته وتدعمه أثناء ذهابه إلى المدينة، التي كانت تمثل المستقبل والأمل بالنسبة للإسلام والمسلمين. لقد ساهمت هذه المرأة خلال وقت حاسم من تاريخ الدعوة الإسلامية، في تدبير هجرة الرسول وتنظيمها بشكل هائل يتعذر وصفه. ولعل هذا ما يوجب التذكير مرة أخرى بأن هذه الهجرة مثلت خطوة حاسمة لمستقبل البعثة النبوية.

وأخریات...

<sup>1</sup> - محمد سعيد مايبید، موسوعة حياة الصحابيات.

سمية اول شهيدة في الإسلام، وزينب بنت الرسول التي جازفت بنفسها وهي حامل وهاجرت بدينها، فتعرضت لاعتداء في الطريق فقدت على إثره حياتها. أم شارق التي تعرضت للتعذيب والسجن، هاجرت هي الأخرى إلى المدينة والتزمت بالوضع الجديد، ووجدت رجلا فاضلا من أصل يهودي قبل اصطحابها خوفا عليها من مها لك الطريق. أسماء التي عملت وحدها على تنظيم هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم، دون أن ننسى أم سلمة التي كما رأينا، قررت مأمّن الهجرة وحدها ولم تجد رغم جثها الطويل من يرافقها إلا رجلا غير مؤمن قبل اصطحابها وتبليغها المدينة... كل هذه الأمثلة، من بين أمثلة أخرى كثيرة لنساء تم اضطهادهن وإهانتهم وتعذيبهن ونقيهن. أليس في هذه الأمثلة دليل قاطع على الدور الكبير الذي لعبته المرأة المسلمة في هذه المرحلة الدقيقة والمصيرية: مرحلة الهجرة؟

لا يمكن لأحد أن ينكر أيضا أنه بفضل هجرة هؤلاء النساء تمكن المسلمون من بناء المدينة الإسلامية الجديدة. فهذه النماذج النسائية، وغيرها كثير، بعد شهادة عن الازدهار السياسي الكبير الذي عرفته هذه الفترة من جهة، وعن فعالية المشاركة النسائية في هذه الدينامية. لقد كانت المرأة حاضرة على الدوام سواء عندما كانت الدعوة الإسلامية ما زالت في إطار العمل السري، عندما أمرها وزج باتباعها في السجون حيث ساهم الكفار سوء العذاب ومارسوا عليهم أنواع التنكيل، أو عندما تقرر أن ينظم المؤمنون هجرتهم إلى المدينة

ويقرون بدينهم، ورغم كل ذلك لم يردع هؤلاء النساء أي رادع، ولم يشهم عن التزامهم النهائي بالإسلام أي شيء.

ومن أجل هذا، وحتى يمكن اختبار درجة التزام هؤلاء النساء ومعرفة ما إذا كان فعلهم هذا خالصا لوجه الله تعالى، نزلت هذه الآية التي تتحدث عن المهاجرات لتؤكد على شيء أساس وهو الضرورة المطلقة لتوافر الإيمان الصادق بهذه القضية الروحية وذات البعد السياسي الأكبر أيضا. وبالفعل يقول القرآن في الموضوع: "يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن الله أعلم بإيمانهن فإن علمتموهن مؤمنات فلا ترجعهن إلى الكفار لا هن حل لهم ولا هم يحلون لهن"<sup>1</sup>.

ونجد في كتب التفسير القديمة، أن هذه الآية نزلت عندما جاء رجلان من أهل قريش طالبان الرسول صلى الله عليه وسلم باسترجاع أختهما أم كلثوم بنت عقبة التي اعتنقت الإسلام، وهاجرت إلى المدينة للحاق بمجتمع المسلمين<sup>2</sup>. وتجدر الإشارة هنا أن الرسول في هذه الفترة كان قد وقع مع قبيلة قريش المعادية، معاهدة هدنة يطلق عليها صلح الحديبية، ومن بين شروط هذه المعاهدة التي نصت على وقف الاقتتال طيلة عشر سنوات، شرط بنص على أن أي رجل أو امرأة من أهل قريش، التحق بالرسول في المدينة، دون إذن من وليه أو الوصي عليه، يجب تسليمه وإرجاعه فورا إلى مكة.

<sup>1</sup> - سورة الممتحنة، الآية 10.

<sup>2</sup> - ابن كثير، تفسير ابن كثير

إن أم كلثوم هي الوحيدة التي اعتنقت الإسلام من بين أعضاء عائلتها، فاضطرت للهروب من محيطها جراء العنف والعدوانية التي مورست عليها، فتوسلت للرسول بأن يبقيها في المدينة وأن لا يردها لأهلها بعد أن كرهت العيش بينهم وبعد أن ضاقت ذرعا بمعاملتهم القاسية لها<sup>1</sup>. لقد نزلت هذه الآية لتمنع الرسول صلى الله عليه وسلم من تسليم النساء اللاتي اعتنقن الإسلام، حتى لا يتعرضن للانتقام من عائلاتهن. وامتنالا للأمر الإلهي امتنع الرسول عن تسليم أهل مكة النساء المهاجرات، والتزم بند المعاهدة في ما يخص الرجال فقط.

وأمام زيادة عدد النساء المهاجرات إلى المدينة، بدأ أهل قريش يحكون مؤامرات ضدهن ويطلقون الإشاعات التي تشكك في عفتهم وصدق إيمانهم، بل وينعتونهن بالفجور وفساد الأخلاق<sup>2</sup>.

ولوضع حد لكل هذه الإشاعات المغرضة، وحتى لا تصبح هجرة النساء مدعاة للشك، دعا الله رسوله صلى الله عليه وسلم لاختبار تلك النساء المهاجرات للوقوف على صدق نياتهن، وإن كان الله وحده، كما جاء في القرآن الكريم، الأعلم بدوافعهن الحقيقية. وقد تمثل الاختبار إجمالاً، تبعا لمجموعة من التقاسير، في إشهدهن أن هجرتهم لن تكون شرعية إلا إذا كانت خالصة في سبيل الله، والإيمان برسوله.

---

<sup>1</sup> - الفاسي، العقد المتين في كتاب أسماء زيادة ص 151 وما بعدها.

<sup>2</sup> - تفسير الطبري، الجامع لأحكام القرآن.



ويهدف المنهج التربوي الإلهي هنا، إلى تحميل المسؤولية لهؤلاء النساء، وتذكيرهم

بأن التزامهم بالإسلام، التزام ينبغي أن يبنى على الصبر والمقاومة.

إن هذا الميثاق الذي كانت النساء وفيات له بالإجماع، بالنظر إلى عدد المهاجرات يميل بتدفق باستمرار من مكة إلى المدينة، رغم الصعوبة الشديدة للظروف الجغرافية والمناخية، وندرة وسائل النقل والمعاناة الناتجة عن قلة الماء والزاد وبالنظر أيضا للخطر الذي قد يتعرضن كالاغتداء والسطو، ومواجهة المجهول.

لا شيء من كل هذا تثنى هؤلاء النساء، عن تحقيق آمالهن، واللاحق بمجتمع الإيمان الحديث النشأة، همهن الوحيد أن يحملن جميعا لكي ساهمن فعليا في بناء المجتمع الذي طال انتظاره.

إن الشهادة التاريخية عن ولاء هؤلاء النساء المهاجرات مؤثرة جدا لقد كان في مستوى عال من تحمل هذه المسؤولية الروحية التي كانت تعني بالنسبة لهن الشيء الكثير، والدليل على ذلك أن المؤرخين أنفسهم أجمعوا على غياب أي حالة تم فيها تسجيل رجوع امرأة من هؤلاء النساء المهاجرات إلى أعداء الدعوة الإسلامية في مكة، و لم يثبت عن أي واحدة أنها أخلت بند من بنود المعاهدة التي عقدها الرسول مع أهل مكة بخصوص الهجرة وشروطها<sup>1</sup>.

إن الهجرة بوصفها فعلا سياسيا، كانت وسيلة للمرأة المسلمة في ذلك العصر، لتؤكد حضورها باعتبارها عضوا نشيطا في المجتمع، ذلك من خلال مساهمتها الكاملة في المفهوم

---

<sup>1</sup> - حسب الإمام الزهري، انظر ابن حجر، فتح الباري، فصل الشروط خلال معاهدات السلام ص 418 ج15.

الجديد للعمل السياسي الذي نص عليه الإسلام. ولم يطلب منها أبدا أن تظل ساكنة في بيتها تنظر الرجال حتى ينتهوا من إنشاء أسس الدولة الإسلامية الجديدة.

لقد كانت المرأة عنصرا نشيطا في تاريخ الهجرة، رغم ما كان يحف هذه الأخيرة من أخطار، ورغم ما قد يترتب عن ذلك من معانات وتضحيات جسام. وهذا كله يعتبر شهادة راسخة عن مدى التزام النساء بما حضت عليه الدعوة الإسلامية. إن الإسلام بخلاف ما يتردد بشأنه اليوم، يحكم على القدرات وعلى القيم المستبطنة عند كل شخص، دون أن يعير اهتماما لنوع الجنس أو العرق.

وبكل تأكيد مثلت الهجرة السياسية لحظة تاريخية جاءت نتيجة ظروف العصر، وانتهت بانتصار الإسلام في أرض الحجاز، غير أن روح الهجرة لم تنته بل ظلت حية في نفوس المسلمين وكما قال الرسول صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع: المهاجر من هجر الخطايا والذنوب<sup>1</sup>.

وبعبارة أخرى، يجب أن نعرف ما هي الهجرة الداخلية التي تكون العميقة في أغوار النفس، حتى نستذكر الحالة الذهنية التي دفعت المهاجرين والمهاجرين إلى القيام بما قاموا به، ونعرف مثلهم كيف يمكن أن نضحى، وتخلي عن الامتيازات، وتحمل المعانات، ونواجه الأسوأ إن اقتضى الأمر ذلك، من أجل هجر كل القوى السلبية والخبیثة المتعددة والتصدي لها بصرامة وحزم لأنها هي المسؤولة بالتأكيد عن تحويل إيماننا إلى عذابات.

---

<sup>1</sup> - هذا الحديث رواه ابن ماجة والنسائي. كما رواه مسلم في شعب الإيمان باب ما يحب الرجل لأخيه.

ووحدها هجرة القلب، بوصفها هجرة داخلية، يمكنها أن تزيل أو تخفف على الأقل من غلواء الانفعالات الثانوية في الأعماق، والتي تعكس مدى تحملنا لعالم خارجي عنيف أحيانا كثيرة.

علينا أن نعرف من حين لآخر كيف نهاجر داخليا في أعماق نفوسنا، ونهجر الآخرين أيضا حتى يصبح إيماننا أكثر قوة وتوهجا.

وعلى هذا الأساس يمكن أن تصور ما يمكن أن يلعبه مفهوم الهجرة اليوم.

### **المبايعات أو الالتزام السياسي للنساء**

إن لفظ مبايعات مشق من بيعة، والتي يطلق عليها أيضا العهد أو يمين الولاء، والمبايعات هن النساء اللواتي بايعن الرسول صلى الله عليه وسلم. وقد كن كثيرات جدا. وطوال فترة الوحي جئن من كل حذب وصوب من أجل مبايعة الرسول صلى الله عليه وسلم، الزعيم الأول للأمة الإسلامية في ذلك العصر.

ويرتكز مفهوم البيعة<sup>1</sup> من وجهة النظر الإسلامية على ثلاثة أركان: ممثل الأمة والمؤمنون الذين يكونون هذه الأمة، والتشريع الذي تقوم عليه هذه المعاهدة. وهناك شرطان أساسيان للصحة هذا التعاقد: أولهما مبدأ الشوري، الذي يكون بين الزعيم وأعضاء الأمة، وثانيهما مبدأ الطاعة أي ولاء الأمة للزعيم. إن الطاعة هنا ليست طاعة مطلقة بل بقصد

---

<sup>1</sup> - إن تأدية يمين البيعة في شكلها التقليدي مازال معمولا به في المملكة المتحدة على سبيل المثال، وكذلك في إطار الاحتفال بالحصول على الجنسية في ولايات الأمم المتحدة الأمريكية. شروط البيعة (المرجع) تخريج الحديث.

تحمل الأمة لمسئوليتها الشديد وحرصها على أن يتمثل الزعيم للقانون. وهذا ما يؤكد عليه بوضوح حديث الرسول صلى الله عليه وسلم الذي يقول: لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

ومن الواضح أنه على طول التاريخ الإسلامي، لم تحترم هذه المبادئ بصورة تامة إلا لماما ومن المؤسف أيضا أن نقول إن مبدأ الشورى غالبا ما تم اختزاله بل وإبعاده بشكل كامل، مقابل مبدأ الطاعة الذي وهو أصيل ممنهج ممقدر لم يستعمل دائما وفق هذه الأصالة والمنهجية والمقدرة التي موقعه بها الشارع استراتيجيا في النسيج التشريعي الحكيم المراعي المصالح العباد، والمقدم دائما لمصلحة اللئيف والجماعة ما دامت مشروعة على مصلحة الفرد.

إن انشغال الرسول صلى الله عليه وسلم الرسمي بالثبوت للروابط القوية والدائمة التي يجب أن تجمعها بالمؤمنين، وإضفاء الشرعية على هذه الرابطة الإسلامية الفنية، جعله يتعاقد مع كل الرجال والنساء الذين قبلوا الرسالة الإسلامية والتزموا باحترام قواعدها وواجباتها ومسئولياتها أيضا. إن عقد البيعة كما سنه الرسول صلى الله عليه وسلم يحمل المسؤولية أولا للمؤمنين لأنهم بايعوه مجرية وطوعية وليس جبرا وإكراها، كما يمكنهم ثانيا من الانصهار في بوتقة مجتمع الإيمان حيث كل الناس فيه سواسية، وكل ملزم بمد يد المساعدة والعون.

ويعدد التاريخ الإسلامي طيلة مراحل نزول الوحي، الكثير من مراسيم عقد البيعة التي

تمت بين الرسول والمؤمنين، رجالا ونساء وفي مناطق متعددة وبين قبائل مختلفة.

ويذكر لنا القرآن فيما يخص النساء المبايعات، بعض المسائل التوجيهية على حد ما

نجد في الآية التالية: "يا أيها النبي إذا جاءك المؤمنات يبایعنك على أن لا یشرکن بالله شیئاً

ولا یسرقن ولا یزنین ولا یقتلن أولادهن ولا یأتین ببهتان یفترينه بین أيديهن وأرجلهن ولا

یعصینک فی معروف فبایعنهن واستغفر لهن الله إن الله غفور رحيم"<sup>1</sup>.

غالبا ما ترد هذه الآية باعتبارها نصا مرجعا بخصوص بيعة النساء. ويعتبر الأمام

النووي<sup>2</sup> هذه البيعة، بيعة شرعية بكل معنى الكلمة لأنها انعقدت بناء على توجيهات تمس

أمورا مختلفة، روحية واجتماعية وقانونية كما تمس اسس تصور مجتمع جديد.

ومن المفيد أن نسجل هنا، أن هذه البيعة لا يمكن أن تكون الوحيدة التي اختصت

النساء. وإن كانت كتب التاريخ الإسلامي على كثرتها لا تقدم لنا صورة حقيقية عن العدد

الدقيق لمراسيم البيعة التي شاركت فيها النساء.

وبالفعل فطوال فترة الوحي، شاركت النساء في العديد من مراسيم البيعة مشاركة

فعالة. وقد أظهرت دراسة حديثة أنه كان هناك على الأقل خمس مناسبات من هذا النوع،

وهو ما يمكن اعتباره مؤشرات تاريخية مهمة. علما أن قائمة المناسبات هاته ليست نهائية

---

<sup>1</sup> - سورة الممتحنة، الآية 12.

<sup>2</sup> - صحيح مسلم حسب شرح النووي على صحيح مسلم

لكونها لا تأخذ بعين الاعتبار كل المرات التي بايع فيها الرسول من طرف النساء اللواتي اعتنقن الإسلام في ظروف خاصة<sup>1</sup>.

فقبل الهجرة الأولى، وفي البدايات الأولى لسنوات الوحي، تمت أول بيعة في مكة بحضور أربعة عشر امرأة. وبما أن الأمر يتعلق ببداية الدعوة فقد ارتكز عقد البيعة أساساً على شهادة أن لا إله إلا الله، وعلى اتباع المبادئ الروحية لهذا الدين الجديد، مع كل ما يترتب عنه من أخلاق وقيم يجب اعتمادها في هذه الحياة<sup>2</sup>.

وبعد ذلك بيعة العقبة التي تمت على مراحل. ونجد في المرحلة الثانية منها نجد مبايعة امرأتين للرسول هما نسيبة بنت كعب الملقبة بأُم عمارة، وأسماء بنت عمر. لقد كانتا من بين ثلاث عشر رجلاً جاؤوا لتقديم يمين البيعة<sup>3</sup>. لقد كانت الظروف التي تمت فيها هذه البيعة شديدة الصعوبة، لأن مهمة الرسول صلى الله عليه وسلم كانت ما تزال سرية من جهة، ولأن عداء أهل قريش ومحاربتهم للرسول صلى الله عليه وسلم وصلت إلى ذروتها. ولهذا السبب وضع الرسول صلى الله عليه وسلم في عقد البيعة بنوداً صعبة ملزمة جراً السياق العدواني لتلك الفترة. فقد طلب الرسول صلى الله عليه وسلم من المسلمين الحاضرين الالتزام إلى جانبه بالجهاد في سبيل الله. والعمل على ضمان حمايته ومساعدته في دعوته، وأداء اليمين على الوفاء له في السراء والضراء.

<sup>1</sup> - أسماء أحمد زيادة، "دور المرأة السياسي في عهد النبي والخلفاء الراشدين"، دار السلام 2001.

<sup>2</sup> - أسماء المبايعات - بكل أنواع البيعة و أشكالها وردت في كتاب أسماء أحمد زياد التي قدمت لائحة تضم 388 امرأة استفتتها من كتاب لابن حجر فتح الباري. تعريف هاتين المبايعتين.

<sup>3</sup> - المرجع السابق ص 164.

لقد ظلت أم عمارة والتي كانت حاضرة في بيعة العقبة، وفيه طيلة حياتها لبيعتها للرسول صلى الله عليه وسلم والتزامها بالإسلام. لقد جرحت في غزوة أحد ثلاثة عشرة مرة، ولما رآها الرسول صلى الله عليه وسلم تقاثل وتحارب بشجاعة وإصرار رغم إصاباتة قال لها : ومن يطيق ما تطيقين يا أم عمارة؟ كما قال عنها صلى الله عليه وسلم في نفس الغزوة إن مقام أم عمارة خير من مقام فلان وفلان.

لقد حضرت لأهم أحداث ذلك العصر كصلح الحديبية، وغزوة حنين وغزوة اليمامة التي فقدت فيها إحدى يديها<sup>1</sup>.

أم عمارة امرأة كل المعارك، وكانت حاضرة في كل الأماكن، في المساجد وفي الاجتماعات التي يدعوها الرسول صلى الله عليه وسلم لها، فضلا عن مشاركتها وبلاءها في ساحة المعركة البلاء الحسن... لقد كانت على الدوام حاضرة ومستعدة تمام الاستعداد لتلبية نداء الواجب. وإنها مثال جيد عن المشاركة السياسية للمرأة المسلمة، والتي ظلت وفيه للعهد المبرم مع رسول الإسلام لم تتكت ولم تتراجع، وظلت وفيه لأقصى درجة من درجات الالتزام.

استقبل الرسول صلى الله عليه وسلم بعد هجرته إلى المدينة، عدة وفود من النساء حضرت لمبايعته بعد المشاركة في صياغة بنود عقد البيعة. ومن أشهر هذه البيعات تذكر البيعة التي صادفت العيد والتي كان عدد النساء الحاضرات فيها كبير جدا، بدليل أنهم قدموا

---

<sup>1</sup>- ذكر هذا الحديث في الطبقات ص 444 موسوعة حياة الصحابييات مصر 829 محمد سعد مبيد.

امرأة مثلتهم أمام الرسول صلى الله عليه وسلم، وتحدثت باسمهن كما ناقشت بنود عقد البيعة مع الرسول صلى الله عليه وسلم نيابة عنهن<sup>1</sup>.

وفي المدينة المنورة، كان الكل يعمل من أجل بناء أسس أمة جديدة، حيث يؤلف الإيمان بين قلوب المسلمين، وحيث يتم احترام قيم العدل والوفاء. وفي هذا الخضم ألح الرسول صلى الله عليه وسلم هذه المرة على المسؤولية الملقاة على عاتق كل امرأة اتجاء الجماعة، وأهاب بكل المشاركات على ضرورة تكثيف أنشطتهن عن طريق دعم الأعمال الخيرية، وتقديم المساعدة المالية لكل المشاريع الجديدة التي تقام في أول مدينة في الإسلام.

ثم بعد ذلك جاءت بيعة الرضوان والتي عرفت ببيعة الشجرة.

لقد جاءت هذه البيعة في غمرة صراع الحديبية<sup>2</sup> وكانت الشروط الأساسية التي تقوم عليها هي: مقاومة العدو بالتصدي أو الجهاد والصبر وقوة التحمل...

ولهذه البيعة دلالة خاصة بما أنها ذكرت في القرآن بكلمات تنم عن مكانتها الجليلة وإن الذين يبائعونك إنما يبائعون الله يد اللي فوق أيديهم فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ومن أوفى بما عهد عليه الله فسيؤتيه أجرا عظيما"<sup>3</sup>.

---

<sup>1</sup> - يتعلق الأمر حسب كاتب الدراسة بأمر سلمة الأنصارية، تبعا لما ذكره ابن حجر في شرحه لحديث الطبراني.  
<sup>2</sup> - بما أن الرسول كان يصاحبه 1500 مؤمن، يقيمون في مخيمات الحديبية على بعد 20 كلم من مكة، حيث قرر القيام بالعمرة، لكن القرشيين رفضوا دخوله للأراضي المقدسة. وأسفرت المحادثات عن توقيع معاهدة الحديبية.  
<sup>3</sup> - سورة الفتح، الآية 10.



ونجد ثمانية نساء ذكرن في كتب التاريخ الإسلامي، من بين تلك اللواتي شاركن في

بيعة الشجرة. وقد كان كثيرات رغم غياب جرد دقيق لأسمائهن جميعاً<sup>1</sup>.

وأخيراً وخلال دخول الرسول صلى الله عليه وسلم إلى مكة، يذكر لنا التاريخ واحدة

من أكبر مراسيم البيعة التي شارك فيها النساء والرجال<sup>2</sup>، حيث أدى المبايعون في بداية

الأمر اليمين بالشهادة أن لا إله إلا الله، واتباع طريق الإسلام، ثم بعد ذلك شرع الرسول

صلى الله عليه وسلم في استقبال المبايعين من الرجال والنساء.

ويمكن أن نلاحظ في هذا الإطار أن النساء قد شاركن مشاركة فعالة في أغلب

مراسيم البيعة، حتى تلك التي كانت تتم البيعة فيها على الجهاد المسلح والصبر على ما هو

أت، والمساعدة المادية والمعنوية للرسول صلى الله عليه وسلم ولقضيته النبيلة. فلم يكن

هنالك بالنسبة للرسول صلى الله عليه وسلم أي فرق بين بيعة المرأة وبيعة الرجل. لقد كان

يعتبر النساء فاعلات نشيطات لا يمكن الاستغناء عنهن في هذا المجتمع الجديد الذي يجب

أن يقوم على أسس العدالة الاجتماعية.

ومما يثير الانتباه أننا عندما نتصفح كتب التاريخ الإسلامي القديم والمعاصر، نلاحظ

أن أغليبتها الساحقة تجد صعوبة في الاعتراف للمرأة بمساهماتها - على قدم المساواة مع

الرجل - في هذا المسار السياسي. بل نراهم يقلصون حجم هذه المساهمة ويتجاهلوننا أحيانا

كثيرة، ولا يركزون إلا على بعض الاعتبارات الثانوية. ويتضح هذا الأمر بجلاء عند الرجوع

<sup>1</sup> - الرجوع إلى كتاب أسماء زيادة ص 180.

<sup>2</sup> - الإمام أحمد ص 182.

إلى المفسرين للاطلاع على ما جاء عند هم بخصوص تفسير الآية المذكورة آنفا والمتعلقة ببيعة النساء. لقد أولى المفسرون أهمية خاصة للبيعة في حد ذاتها، ولم يلتفتوا للمشاركة المرأة في هذا العمل السياسي إلا من خلال نظرة تبسيطية اهتمت فقط بشروط البيعة وصحة انعقادها للنساء كما الرجال.

وبالفعل إذا تمعنا جيدا في الشروط التي بينها الله عز وجل في الآية القرآنية عند ذكره للآية، نستنتج منها أولا وقبل كل شيء، مقارنة كلها إجلال وتقدير لحرية الاختيار عند النساء. وتبدأ الآية يا أيها النبي إذا جاءك المؤمنات يبایعنك.

إن (إذا) تفيد الشرط لإنجاز الفعل<sup>1</sup>، أي لا يصبح الاتفاق ساري المفعول إلا إذا جاء النساء المبايعات عن طواعية. وبالفعل لقد جاءت النساء المبايعات بملء إرادتهن للمشاركة في هذه المبادرة ولم يجبرهن أحد على القيام بذلك، ولم يفرض عليهن أن يتبعوا أزواجهن أو آبائهن أو باقي أفراد عائلتهن من الذكور.

وهناك العديد من القصص التي تحكي حكايات عن النساء اللواتي اعتقن الإسلام دون علم أزواجهن، بل وحتى دون علم عشيرتهن، وخضن ثورة حقيقية ضد عائلاتهن لأنهن فضلن الالتزام بالإسلام.

وقد استقبل الرسول صلى الله عليه وسلم هؤلاء المبايعات في جلسة خاصة بهن لم يحضرها الرجال. وكان غرضه صلى الله عليه وسلم إبراز الاستقلال السياسي الذاتي الذي

---

<sup>1</sup> - الرجوع إلى ما قاله النحاة في هذا الشأن.

يجب أن يتمتع بها هؤلاء المبايعات. وبالنظر إلى البيئة الاجتماعية السائدة في ذلك العصر، والتي كانت تفرض على المرأة أن تتبع أبها أو زوجها أو الوصي عليها، كان من الممكن بالنسبة للرسول صلى الله عليه وسلم أن يكتفي من النساء ببيعة مفوضة لرجال يمثلهن تمثيلاً شرعياً، لكنه لم يفعل ذلك، لأنه كان مقنعا قناعة راسخة، بضرورة المساهمة الفعالة للنساء. فجاءت الآية لتدعم تصرفه هذا، وتسير في اتجاه تحرير المرأة. إن استقباله للنساء لوحدهن كان اتباعاً للأوامر الإلهية التي تغييت إعطاء صورة جديدة للمرأة، تنسجم ووضعها بوصفها كائناً حراً، مستقلاً و مستؤلاً.

إن ما قام به الرسول صلى الله عليه وسلم بهذا الصدد، يحمل دلالات مزدوجة، فباستقباله الشخصي لهؤلاء النساء أراد أن يؤكد على الدور الفعال للمشاركة السياسية للمرأة من جهة، وأراد من جهة أخرى أن يبين أن منح النساء حرية الاختيار شيء أساس في هذا الدين الجديد.

ويذكر القرآن في الآية نفسها، الشروط التي يجب أن تتضمن في عقد البيعة، حيث تبدأ بمبدأ يعد من المبادئ الأساس لأي التزام روحي، وهو الإيمان بالإله الواحد الأحد، وتأتي بعد ذلك شروط ذات طابع عام تخص المبادئ الأخلاقية كتحريم السرقة والزنا والبهتان والافتراء ووأد البنات - خصوصاً البنات الصغيرات اللواتي يدفن أحياء كما كان شائعاً في ذلك العصر - وكل هذه الجرائم معروفة عند الناس أجمعين بوصفها أعمالاً دنيئة ومحرمة.

وتنتهي الآية بشرط يمثل بشكل من الأشكال، قاعدة إسلامية، تشترط موافقة المبايعات لكل القرارات التي يتخذها الرسول في كل ما من شأنه أن يدخل في إطار القيام بالخير و"المعروف": ولا يعصينك في معروف.

إن كلمة "معروف" تحيل على مفهوم عام، بمعنى أنها تحيل على ما يمكن أن نصلح عليه بالمصلحة العامة التي تقوم عليها كل القيم الأخلاقية. كما يحتوي هذا المفهوم بالإضافة إلى ذلك، على كل ما يوافق المثل العليا للأخلاق والعدالة. ويدعو الله النساء المبايعات في هذه الآية، لطاعة الرسول صلى الله عليه وسلم كلما دعاهم للأمر بالمعروف، وذلك بوصفه القيم الوحيد على هذه المصلحة العامة. ومن المهم إذن معرفة الكيفية التي تمر بها اشتراط الله تعالى للطاعة الخاصة بالمعروف، حتى وإن تعلق الأمر بالرسول صلى الله عليه وسلم المعروف براءته من كل العيوب الأخلاقية، وعصمته من كل فعل أو عمل مناف للسلوك القيم. وهذا يجعلنا نفكر على سبيل المثال في أولئك الذين يدعون لطاعة المرأة لزوجها ويقدمون هذه الطاعة بوصفها مبدأ أوليا لا يمكن أن تستغني عنه أي امرأة تقية ومسلمة. إنها طريقة غريبة لفهم الأشياء، رغم أن الله لم يدع أبدا في كتابه العزيز لطاعة كهذه - أو طاعة مطلقة للزوجة اتجاه زوجها . وهذا المفهوم المتسلط الذي يفترض في الزوج دائما الكمال واستحقاق الطاعة مهما كانت الظروف، ينبثق عن ثقافة السلطة الأبوية التي سادت منذ القديم، ووضعت المرأة في حال تبعية دائمة، وعملت جاهدة تبحث

عبر المفاهيم الدينية المختلفة اختلاقا عن الأدلة والبراهين التي تدعم سياستها الإقصائية هاته.

رغم كل ذلك فلا نجد بخصوص العلاقة الزوجية، في أي آية من آيات القرآن، ما يفيد مفهوم التبعية أو خضوع المرأة لزوج يفترض أنه يتمتع بحقوقه كاملة دون نقصان. إننا ننسى في الكثير من الأحيان أن القرآن يتحدث عن الزواج بوصفه ميثاقا غليظا<sup>1</sup>. يقوم أساسا على مفهوم العقد الذي يقضي وجود شريكين متساويين في الحقوق والواجبات. إن وصف عقد الزواج بالميثاق الغليظ جاء للتأكيد على أهمية الالتزام المتبادل للشريكين. ومن المفيد الإشارة هنا لقوة وكثافة مفهوم الميثاق الغليظ والذي استعمله القرآن في آية أخرى تخص الالتزام الذي يجمع الرسل بالله تعالى<sup>2</sup>. إن التعاقد الذي يجمع بين الزوجين يتوافق مع الميثاق الذي يجمع الرسل بالخالق.

فعلى الشريكين معا حسب الرؤية القرآنية أن يحبا ويحترما بعضهما، وأن يسيرا طبق الميثاق الذي يجمع بينهما في إطار التفاهم المتبادل، وعليهما معا أن يعملوا على توفير الظروف الملائمة للعيش في سكينة وسعادة. وقد استخدم سبحانه عدة مرات في كتابه العزيز، كلمتين اثنتين في وصف العلاقة التي يجب أن تجمع بين الزوجين، هما التراضي أي

<sup>1</sup> - وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض وأخذن منكم ميثاقا غليظا سورة النساء الآية 21.

<sup>2</sup> - وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح ومن إبراهيم وموسى وعيسى بن مريم وأخذنا منهم ميثاقا غليظا سورة الأحزاب الآية 7.

الاتفاق المشترك، والتشاور الذي يعني طلب معرفة رأي الآخر<sup>1</sup>. فالزوجان معا يتشاوران فيما بينهما ليتفقا فيما بعد على القرارات التي يجب اتخاذها، কিفما كانت أهميتها وخطورتها، ويقدم لنا القرآن في هذا الخصوص مثالا عن فطام الأطفال الصغار الذي يجب أن لا يتم إلا بعد الاتفاق المشترك بين الزوجين.

إن هذين المبدأين: مبدأ التشاور ومبدأ التراضي يعتبرهما النص القرآني أساس كل علاقة زوجية طاهرة ومتألفة، وهذا بخلاف العلاقة الزوجية التي تقوم على الطاعة العمياء للزوجة اتجاه زوجها حيث تحول في بعض الأحيان إلى رمز لكل أنواع الاستبداد وكل أشكال الإحباط الأسري. وإذا كان من الضروري أن تكون هناك طاعة ما، فمن الأولى أن تكون من الاثنين لله تعالى، لأنه خلقهما كائنات بشرية على حد سواء.

وهناك زعم يقول إن الزوج بوصفه رجلا يعلو على الزوجة بناء على أفضلية منحه الله إياها، ولذلك على المرأة أن تطيع الرجل مهما كانت الظروف والأحوال. وهذا قول لا يستند على أساس ويمثل شكلا من أشكال الوثنية، ويتنافى دون شك مع جوهر الرسالة القرآنية القائمة على وحدانية الله.

وفي السياق ذاته، نجد أولئك الذين يدعون أن الله تعالى فضل الرجال على النساء، يقيمون زعمهم هذا على مفهوم القوامة المعروف<sup>2</sup> الذي يجعل الرجال قوامين على النساء على حد ما جاء في الآية القرآنية. لقد غاب على هؤلاء أن القوامة ما هي إلا فريضة واجبة

<sup>1</sup> - القرآن 24/4، 232/2، 233/2.

<sup>2</sup> - القرآن 34/4

مترتبة عن مبدأ أعم هو مبدأ التكليف، والذي يقضي ضرورة المشاركة المالية في تدبير الشؤون المنزلية، وليس في الأمر أي علاقة بتشريف يخص الرجال دون النساء.

إن كلمة قوامة هذه، كانت دائما تفهم خطأ وتشرح على أنها تفضيل للرجال على النساء، وقد رسخت القراءة الأبوية هذا المفهوم وصيرته مرادفا للاستبداد، كما جعلت منه امتيازاً دينياً خاصاً بالرجل المسلم.

وقد استغللت للأسف هذه القضية بطريقة خطيرة من طرف بعض المسلمين. وبالفعل فإن إضفاء الطابع الديني على طاعة النساء، يجعل أنصار هذا النوع من الخطاب، يقدمون الدين الإسلامي على أنه دين إقصاء وتمييز، ولا يجدون حرجاً في خلق أزمة ضمير عند كل مسلمة أرادت أن تحترم قناعتها ورأيها وإن كانت تعيش أسوأ أنواع الظلم والمهانة. ويذهب بعض العلماء إلى أبعد من ذلك، متأثرين بسياق سوسيو ثقافي معاد للمرأة، وذلك عندما يشبهون مؤسسة الزواج بالسجن حيث يكون الرجل فيه سيداً على الإطلاق، والمرأة تابعة له خاضعة لسلطته كما مثل السجينة<sup>1</sup>. ولقد ذهب الفقه الإسلامي بعيداً من خلال نظريته القاسية الضابطة بصرامة لمؤسسة الزواج حيث ابتدع مبدأ فقها مشيناً للمرأة، وهو "بيت الطاعة" أي إجبار الزوجة التي تطلب الطلاق وترفض العيش مع زوجها أن تعود أو تظل في بيتها بالقوة، وإن اقتضى الحال تدخل الشرطة أو أمراً من المحكمة<sup>2</sup>.

<sup>1</sup> - ابن قيم الجوزية، إعلام الموقعين ج2 ص107--130.

<sup>2</sup> - هذا المفهوم القانوني ظل ساري المفعول إلى يومنا هذا وفي كثير من نصوص مدونات الأحوال الشخصية للدول الإسلامية وخاصة مصر.

وإذا كان مبدأ "بيت الطاعة" قد اختفى عن الوجود الآن، فإن مفهوم الطاعة ظل من أبرز العناصر الأساسية المدونة الأحوال الشخصية في معظم الدول الإسلامية<sup>1</sup>، بل نجد في بعض الدول الإسلامية أن قانون الأحوال الشخصية المعمول به إلى حد الآن، ينص على أن الزوج له الحق في منع الطعام والشراب على زوجته كلما شفت عليه عصا الطاعة<sup>2</sup>.

إننا من هذا المنطلق بعيدون تماما عن التصور القرآني الذي يحرم كل أشكال الاستبداد والظلم، رغم أن كل ما جاء في الرسالة الإلهية يحث على العدالة والمساواة. إن هذا النوع من الطروحات يدعو إلى حبس المرأة وإخضاعها لقوانين جائرة ناتجة عن سلطة أبوية استبدادية، لا يماثلها في ذلك سوى السلط السياسية المستبدة.

ومن المهم جدا وضع مقارنة بين مظهرين من مظاهر الطاعة، الأول طاعة الزوجة لزوجها والثاني طاعة المسلم أو المسلمة لولي الأمر. وفي الاصطلاح الإسلامي تبقى كلمة "الطاعة" مرتبطة كثيرا بمفهوم السلطة، سواء تعلق الأمر بسلطة الزوج أو سلطة ولي الأمر. وهما معا وجهان لعملة واحدة. وتجد بعض فقهاء السلطان سخروا الأحكام الفقهية لرغبات السلطة السياسية، وجعلوا أحكام الفقه الإسلامي برمتها تدور حول مفهوم الطاعة. إن المرأة التي تقبل على نفسها عيشة المذلة والهوان، ستتقل ذلك لا محالة للأجيال القادمة. كما أن المرأة التي تقبل بالعيش تحت ظل الظلم الأسري، لن تعلم أولادها إلا نتحمل كافة أنواع الظلم، وستجعل منهم كائنات ميالة للانصياع والخضوع والديكتاتورية.

<sup>1</sup> - يمكن الرجوع إلى مدونات الأحوال الشخصية للدول الإسلامية الآتية، الجزائر والأردن ومصر والكويت وسوريا وغيرهم.

<sup>2</sup> - مدونة الأحوال الشخصية المصرية



وفيما يتعلق بمبدأ ولا يعصينك في معروف أي الطاعة في المعروف على حد ما ذكر في نهاية الآية، لاحظ أن تفسيرها تم اختزاله في العديد من نصوص كتب تفسير القرآن. وبالفعل، يبدو من الغريب أن نرى بعض المفسرين حصروا دلالة هذه العبارة القرآنية في تحريم النياحة التي كانت تقليدا سائدا في الجنائز عند العرب في ذلك العصر.

وكان يطلق على هذا التقليد القديم لفظ النياحة، ونجد جميع كتب التفسير الكلاسيكية تورد تأويل ابن عباس لهذه الآية، حيث قال فيه إن النساء طلين من الرسول صلى الله عليه وسلم أن يدعو للإقلاع عن ممارسة عادة النحيب والنياحة<sup>1</sup>.

وصحيح أننا نجد في السيرة النبوية رواية ترويها امرأة تدعى أم عطية الأنصارية تتحدث فيها عن بند يحرم النياحة كان ضمن بنود عقد بيعة حضرتها.

ويبقى صحيحا أنه في عصر الجاهلية كان من تقاليد النساء مرافقة الميت بالابتهاال والعويل والنحيب وقد يصل بين الأمر أحيانا إلى شق الجيوب ولطم الوجوه، بل كانت منهن من تستأجر امرأة أخرى للقيام بهذه الوظيفة كلما هلك لها هالك، ومنهن أيضا من تتطوع وتقدم هذه الخدمة بالمجان وتبكي ميت عائلتها صديقتها أو قريبتها<sup>2</sup>.

---

<sup>1</sup> - البحث عن الحديث ابن عباس تفسير الطبري وابن كثير.

<sup>2</sup> - من المهم أن نشير أن هذه العادة لا تقتصر على العرب فحسب بل نجدها في كل الحضارات وعند كل الأجناس لقد عرفت منذ العصر القدم وكانت النساء هن من يقمن بهذه العادة، وما زالت إلى يومنا هذا بعض المناطق البدوية في العالم العربي تمارس السنة فيها والنياحة والندب رغم موقف الإسلام الصريح منها.

اشتهرت أم عطية مع باقي نساء قبيلتها بالندية والنياحة، لذلك جاء حديث الرسول صلى الله عليه وسلم بخصوصها<sup>1</sup>. لقد كانت الغاية من إصرار الرسول على تحريم هذه العادات والتقاليد أن يعلم النساء المسلمات الثبات والرزانة والصرف اللاق واتباع السلوك القويم. ويحسه التربوي الخاص وعن طريق سموه الروحي والمكارم والحياء الأخلاقي، حاول عليه السلام تغيير هذه العادات والتقاليد القبلية الموروثة عن الأجداد. وتحريمها إن اقتضى الأمر إذ من شأن ذلك تعليم وتربية النساء المسلمات على المعاناة في صمت، والبكاء مع الحفاظ على الوقار والحشمة. كما سيترسخ في أذهانهم في نفس الوقت الإيمان بفكرة الموت، والإيمان بالقدرة الإلهية، وبأمل اللقاء في الآخرة، وذلك أفضل للصابرين.

ونجد القرطبي وهو من كبار المفسرين القدماء ينتقد في تفسيره النظرة التبسيطية لمفهوم المعروف، ويبين أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان خطأ به يتفاوت بتفاوت الأشخاص المخاطبين. وليوضح أكثر ما ذهب إليه أعطى مثالا بهذا الخصوص يتعلق بالمعاهدة التي أبرمها الرسول صلى الله عليه وسلم مع قبيلة عبد القيس، وهي قبيلة عرفت باستهلاك أهلها المفرط للخمر، ولذلك أصر الرسول صلى الله عليه وسلم على أن تتضمن المعاهدة بندا تمنع استهلاك الخمر، كما اشترط أن تكون لهذا البند أولوية قصوى بالنسبة لباقي بنود المعاهدة<sup>2</sup>.

---

<sup>1</sup> - ابن كثير تفسير الآية المذكورة.

<sup>2</sup> - القرطبي "التفسير الآية مدار الحديث وهناك مفسرون آخرون يسيرون في نفس الاتجاه انظر قول الضحاك الذي أورده الطبري ووهب بن جرير الذي أورده ابن كثير .

من الواضح البين أن الأمر هنا لا يتعلق بالبحث في مدي صحة تفسير واحد من أول وأشهر علماء التفسير وهو ابن عباس، هذا العالم الذي كان من أبرز مؤسسي مدرسة التفسير التي اعتمدت على سنة الرسول صلى الله عليه وسلم ("أهل الحديث" أو "رجال الحديث") في تفسيرها للقرآن. وبالفعل، لقد فسر قصة أم عطية حسب السيرة النبوية بدقة وأمانة، غير أن هذا النوع من التفسير يمكن أن يؤدي إلى نوع من التأويلات الحرفية التقليدية التي قد تختزل معنى الآية اختزالاً كبيراً يصل إلى حد التقليل والمغصان الدلالي. مع العلم أن هناك نوعاً من الأحاديث - كهذا الحديث الذي يدور عليه الكلام - يظل مرتبطاً بظرف مخصوص، وهذا ما جعل الإمام القرطبي وهو أيضاً من أهل الحديث، يولي أهمية كبيرة للاجتهاد عند تفسير الآية من خلال توسيع زاوية النظر، ومن ثم جاء رفضه للمعنى الضيق الذي أعطي لمفهوم المعروف.

يجب أن تحدد بداية، أن مضمون آية البيعة المذكورة أعلاه، سبق للرسول صلى الله عليه وسلم أن ذكره في عدة مناسبات سواء تعلق الأمر بالنساء أو بالرجال. وتذكر لنا أيضاً بعض الأحاديث أن الرجال الذين حضروا بيعة العقبة - ولم يحضرها النساء كما هو معلوم - وافقوا على كل شروطها الواردة في الآية السالفة الذكر<sup>1</sup>.

---

<sup>1</sup> - تفسير ابن كثير ص 327 ينظر حديث رواه أحمد وصححه البخاري ومسلم. لقد أكد ابن كثير اعتماده على حديث عبادة بن الصامت في أن شروط بيعة العقبة الأولى كانت هي نفس شروط بيعة النساء وهي التي تم عرضها في سورة الممتحنة.

إن مضمون الآية إذن لم يكن مخصصا للنساء دون الرجال، ومع ذلك فرغم الغموض التاريخي الذي يلف حول تسمية "بيعة النساء"، ورغم تعدد السياقات، ورغم المشاركة الفعلية للنساء، يبقى مضمون هذه الآية واضحا وهو أن المشاركة السياسية للمرأة المسلمة واجبة مثلها في ذلك مثل الرجل. كما أنها إضافة ذلك فعل نابع من الإيمان وواجب على كل امرأة مسلمة مقتنعة تماما أنها معنية برسالة الإسلام.

إن الإسلام منذ البداية، جعل المرأة تتخرط في مسلسل اختيار زعيم الأمة، لأن البيعة من منظور الإسلام هي إجراء شرعي بموجبه يلتزم الزعيم باحترام القوانين ويتعهد باحترام إرادة الأمة، في مقابل البيعة التي له في أعناق المبايعين.

ماذا وقع بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم؟ أين هي باقي المبيعات التي شاركت فيها المسلمات؟ بكل بساطة، لم تعد النساء تشاركن في أي: بيعة بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم. ومن المؤسف حقا أن نلاحظ أن المشاركة السياسية للنساء، والتي حث عليها القرآن الكريم، وكانت لها مكانة غالية عند الرسول صلى الله عليه وسلم، ظلت بمثابة مشروع سرعان ما تم إقباره بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم<sup>1</sup>.

ولا يمكننا في هذا الصدد إلا أن نستفسر عما حدث بالفعل وفي تاريخ الإسلام، وكيف أصبحت المبادئ الأساسية التي تدعو لمشاركة المرأة في الأمور السياسية عطلت وحلت إلى حد كبير، بل أصبحت في بعض الأحيان ينظر إليها نظرة كلها توجس وخيفة

---

<sup>1</sup> - حيث تشارك النساء إلى جانب شقاتهن الرجال في هذه البيعة التي تتجدد كل سنة.

وكانها مبادئ معادية للإسلام ومناقضة لتعاليمه. مع العلم أن كل الخطوط العامة للخطاب القرآني تسير برمتها في منحى التحرر الحقيقي للمرأة المسلمة سواء على المستوى الاجتماعي أو المستوى السياسي. ومع الأسف لقد أصبحت هذه المبادئ ذاتها مرادفا للقمع والميز الدائم.

إن التراجع الخطير الذي عرفه وضع المرأة عبر العصور وإلى يومنا هذا، كما هو الحال في العديد من الدول الإسلامية، خاصة تلك الدول المحافظة التي تشبث بتطبيق أحكام الشريعة وتصر على منع المرأة من المشاركة السياسية، يقوم دليلا على انحطاط وتفقر الفكر الإسلامي وعدم قدرة المسلمين على وضع تصور ديني قوي ومنسجم<sup>1</sup>.

وحسب كتب التفسير القديمة، نجد بخصوص الآية المتعلقة بالبيعة، مجموعة من الأحاديث التي تتعرض للإجراءات الخاصة التي تتعلق فقط ببيعة النساء.

وفعلا، لقد كانت البيعة تتم عادة بين الرجال بواسطة المصافحة باليد، بين المبايع والمبايعين المنتمين للجماعة التي اختارته أن يتولى أمرها. لقد كانت المصافحة علامة على أن العهد قد قبل وصادقت عليه الأطراف المعنية.

أما فيما يخص النساء فلم يتحدث التاريخ الإسلامي عن أبي معاهدة تمت بين النساء بالمصافحة، بل كان ذلك يتم بقرار من الرسول صلى الله عليه وسلم الذي كان يخبر النساء

---

<sup>1</sup> - نذكر على سبيل المثال من بين هذه الحالات حالة دولة الكويت التي قبلت مؤخرا أن تمنح النساء حق التصويت، ومن بعد سنوات من النضال والحوار وكذا المعارضة القوية التي جوبه بها المشروع الذي عرضه الفريق النيابي الإسلامي على البرلمان.

شفويا بذلك. وهناك حديث نبوي مشهور في هذا الصدد ذكرته مجموعة من كتب الحديث، وهو حديث لعائشة زوجة الرسول صلى الله عليه وسلم رضي الله عنها، قالت: والله ما أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم النساء قط إلا بما أمره الله تعالى، وما مست كف رسول الله صلى الله عليه وسلم كف امرأة قط، وكان تقول لهن إذا أخذ عليهن البيعة: "قد بايعتكن كلاماً"<sup>1</sup>. فالرسول صلى الله عليه وسلم لم يمد يده للنساء خلال البيعة بل كان يتلقى موافقهن شفويا.

وبغض النظر عن البعد الرمزي لتصرف الرسول صلى الله عليه وسلم الذي دون شك له قيمته الخلقية، يبقى من المفيد أن نرى كيف أخذ هذا التصرف أبعادا غير محسوبة العواقب في الدراسات الإسلامية، خاصة منها تلك الدراسات الحديثة التي بلغ بها الأمر إلى تهميش وزرارية العمل السياسي المؤسس للبيعة.

لقد ركزت الكتابات التي تحدثت عن البيعة على مسألة المصافحة باليد، وخلفت أدبيات غزيرة دارت كلها حول ما أصبح شعارا أخلاقيا أولا قبل كل شيء، وهو تحريم المصافحة باليد بين الرجل والمرأة. إن الفكرة الأساس بالنسبة لمجموع الدراسات التاريخية التي تناولت بيعة النساء في الإسلام اختزلت في حدث اعتبر عندها بالغ الأهمية وهو أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يصفح بيده النساء المبايعات بل اكتفى بالكلام معهن لا غير. لقد حجبت مسألة عدم المصافحة ما كان من المفروض أن يعتبر ثورة على عادات

---

<sup>1</sup> - صحيح البخاري كتاب الطلاق، باب بيعة النساء..

وأعراف ذلك العصر، وخصوصا المشاركة السياسية للمرأة التي تنتظر إليها للأسف الكثير من العلماء المعاصرين على أساس أنها مسألة ثانوية جزئية ليس إلا.

ونجد قد وصل الحد بالبعض إلى درجة إبطال جواز بيعة النساء بدعوى أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يصفحن بيده. إن غياب المصافحة هنا بدل في نظر هؤلاء على أن عقد بيعة النساء لم يكن إلا مظهرا شكليا لا غير، يرجع أساسا إلى مكارم الأخلاق الدينية الإسلامية التي تحت على سلوك اللياقة واللفظ والرفق مع النساء. كما أن هناك آخرين لم يحتفظوا بشيء من حدث البيعة سوى بمضمون عقد البيعة الذي جعله الرسول صلى الله عليه وسلم أساسا للخلق وللإيمان الصحيح وشعارا للمسلم الصادق الذي يمارس شعائره الدينية ويتشدد في أدائها على الوجه الكامل، ويعمل جاهدا على احترام أدق دقائق أركان الإسلام وسنة الرسول صلى الله عليه وسلم.

إن القول الذي يقلل من شأن عقد بيعة النساء بدعوى أن الرسول لم يصفحن باليد، قول خاطئ في حد ذاته، والتاريخ يشهد على ذلك. لقد بين تحليل الأحداث السياسية لتلك الفترة، أن عقد بيعة النساء كان رمزا قويا في تاريخ الإسلام، وأن غياب المصافحة لا يمكن أن بعد مبررا لإلغاء عقد من هذا الحجم، أقره القرآن والرسول صلى الله عليه وسلم والشواهد التاريخية للعلماء المسلمين الأوائل.

إن تقرير هذا الرأي الذي يقصي منطق إدماج المرأة في العمل السياسي، ومشاركتها الفعالة في مستقبل مجتمعا، ويعطي الأولوية للاستنتاجات الثانوية الجزئية، يعبر للأسف

الشديد عن الأعراض المرضية للفقر الثقافي - الذي يثير الغيظ الشديد - عند المجتمعات التي تتعت بالإسلامية. لقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم بخلاف هذا، فقد عمل بجهد جهد على تطبيق المبادئ القرآنية، والحث على إشراك المرأة اجتماعيا وسياسيا في مشروع بناء مجتمع عادل ومتخلق. غير أنه للأسف الشديد لا يذكر من ذلك كله إلا أنه لم يصافح النساء بيده عند ما جشن ليقدمن له البيعة.

ولا يتعلق الأمر هنا باستخفاف أو احتقار مشكل علاقي واجهه الكثير من المسلمات والمسلمين الصادقين والمصريين على اتباع سنة الرسول صلى الله عليه وسلم، ولكننا نريد أن تنتقد أولئك الذين جعلوا من هذا المشكل أولوية وأساسا لا مندوحة عنه وذلك على حساب مبادئ أخرى تعتبر في حقيقة الأمر أكثر أهمية بالنسبة للإسلام والمسلمين.

إن التضحية بكل هذا التراث التاريخي الممتد طوال ألف وخمسمائة سنة، والذي قدر المرأة حق قدرها، ودفعها إلى أخذ مكانها كاملا إلى جنب الرجل في كل مشروع مؤسس الجماعة جديدة، فيه جور وظلم للمسلمين أنفسهم، وتدمير حقيقي لهذا الدين الذي لا يراه الأجانب عنا إلا دينا مقننا، محنطا ومتشددا إلى أبعد الحدود.

دين يضحي بأغلبية وقته وطاقته وكفاءاته من أجل الدفاع عن أمور سطحية، ويغيب بشكل حاد وقاس أي محاولة لمناقشة القضايا الحقيقية التي تعالج عمق الأشياء، وتساعد على التقدم إلى الأمام...



إن اختزال أساس رسالة الإسلام، في دعوة النساء إلى المساهمة في تدبير الحياة السياسية أو في البحث عن أسباب منعهن من مصافحة الرجال، من شأنه أن يسيء للإسلام، ويعطي فرصة ذهبية لكل أولئك الذين يريدون جعله حصان طروادة" من أجل وضعه في موقع يساعد على النيل منه بنعته بمختلف صنوف وأنواع القدح والتحقيق.

### المجادلة، عندما يسمع الله لشكوى امرأة

تذكر السيرة النبوية قصة خولة بنت ثعلبة، التي جاءت الرسول<sup>1</sup> صلى الله عليه وسلم تشكوه زوجها، وحسب ما جاء في رواية عائشة أم المؤمنين، فإن خولة جاءت للرسول تشكوه سوء معاملة زوجها، الذي بعد سنوات طويلة من العيش سويا، أساء لها مساء يوم عندما راجعته شيء فغضب منها وقال: أنت على كظهر أمي. وهذا القول بمثابة قسم طلق عليه "الظهار كان شائعا عند العرب في الجاهلية، إذ كلما أراد الرجل تطليق زوجته شبهها ب"ظهر أمه" بمعنى أن زوجته أصبحت عليه محرمة كحرمة ظهر أمه ويترتب عن هذا النوع من الطلاق أن الزوجة تصبح معلقة لا هي حرة وسيدة نفسها ولا يمكنها أن تتزوج مرة أخرى. لقد بثت خولة للرسول صلى الله عليه وسلم حزنها وألمها وأسأها الكبير جراء سلوك زوجها الذي لم تدخر وسعا في إسعاده طيلة الستين التي عاشتها معه، وكان رده أن متخلى عنها بعد أن تجاوزت ربيع العمر<sup>2</sup>.

<sup>1</sup> - هذا الحديث ورد بروايات كثيرة في كتب التفسير تختلف فيما بينها اختلافا لفيها، والرواية الواردة هنا هي تلك التي روتها عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها. ينظر الطبري، الطبقات الكبرى، فيما يخص أسباب نزول سورة المجادلة.

<sup>2</sup> - يوجد النص الكامل لهذه القصة في تفسير ابن كثير، سورة المجادلة .

إن خولة هنا تصف حال الإحباط الذي تعيشه المرأة، وهي حالة معروفة منذ غابر الأزمان، تتتاب النساء المتزوجات من وقت لآخر كلما أحسنن بالإهانة، أو مسن في أعز وأعمق وأخص ما لديهن.

وعلى إثر هذه المسائية التي عبرت عنها امرأة جرحت في حبها، نزل الوحي على الرسول صلى الله عليه وسلم سورة المجادلة. لقد جاء الوحي الإلهي ليجيب على تخوفات هذه المرأة، وليثبت مرة أخرى أن الله موجود في كل مكان، وحاضر باستمرار، ليسمع الشكاوى الجميع...

إن الآية مدار الحديث هنا، والتي نزلت لتجيب على طلب خولة هي: "قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله والله يسمع تحاوركما إن الله سميع بصير، الذين يظاهرون منكم من نسائهم ما هن أمهاتهم إلا اللاتي ولدنهم وإنهم ليقولون منكرا من القول وزورا وإن الله لعفو غفور"<sup>1</sup>.

هذه الآيات تؤكد بوضوح على مجموعة من المبادئ المهمة، أولها الإنصات للمرأة واحترام شكواها، ثانيها التأكيد على حقها في حرية التعبير، وثالثها الأمر الإلهي بضرورة الإسراع في إصلاح المنظومة الاجتماعية تجذف هذه العادة "الظهار" المهينة للنساء.

<sup>1</sup> - سورة المجادلة، الآيتان، 1-2

في ما يخص هذه النقطة الأخيرة، أدان القرآن ما اعتبره خطأ فادحا، مبرزاً في الوقت ذاته من خلال باقي الآيات<sup>1</sup> أنماط الكفارة عن هذا القسم.

لقد وقف الله تعالى إلى جانب هذه المرأة وأجاب على تساؤلاتها ذاماً ومنتقداً هذه الأعراف والتقاليد وواضعا مجموعة من العقوبات الزجرية الصارمة لثني أولئك الذين ما زالوا مصرين على ممارستها.

فمن أعلى عليين سمع الله عز وجل شكوى هذه المرأة وأعطى أهمية كبيرة لقلقها وحزنها الذي شه للرسول صلى الله عليه وسلم. وقد أصغى صلى الله عليه وسلم لها واهتم اهتماماً كبيراً بمعاناتها، وعاملها بمنتهى اللطف والرفق. إن هذا السلوك من طرف الرسول صلى الله عليه وسلم لم يكن مقتصرًا على هذه المرأة بل كان يشمل كل النساء خصوصاً تلك اللواتي يحتجن إلى حلم ومودة خاصتين.

لقد أبدى الله ورسوله استعداداً تاماً للاستماع للمؤمنين. وبين الوحي ضرورة ووجوب الإنصات للآخرين على اختلاف ما يريدون طرحه من مواضيع وطلبات وما يريدون بثه من شكوى ومعاناة.

فكثيرات من النساء اللواتي انفطر قلبهن جراء الإهانات المتكررة يومياً، ولما لم تجدن من يرق لحالهن ويستمع إلى شكواهن انغلقتن على أنفسهن ودخلن في صمت عميق. وقد

---

<sup>1</sup> - الكفارة هنا تكون حسب طاقة كل فرد فإما عتق رقبة أو صيام شهرين متتابعين أو إطعام ستين مسكيناً. يمكن هنا عرض آية الكفارة.

جرت العادة أن ينظر إلى المرأة نظرة ناقصة، باسم الإسلام، كلما حاولت البوح بمشاكلها، والتصريح بآمالها ومتمنياتها وخصوصياتها، بل وحتى صراعاتها الداخلية. ورغم أن الإسلام يدعو دائما إلى الرحمة والرفق، فإن الجانب الذي يخص بث الشكوى أو البوح بالخصوصيات لشخص آخر، كان دائما محط التهميش والإقصاء، على حساب التشدد الصارم الذي صار صورة فعلية لأهم ما جاءت به الرسالة الإسلامية. فكلمات كالحب والمودة والرفق والود أصبحت غائبة عن المعجم الإسلامي، على خلاف الآيات القرآنية مثل هذه التي بين أيدينا، حيث نجد بروزا تاما لدرجة قربه تعالى من عباده المؤمنين ووده وحلمه ورأفته بهم.

وهناك مبدأ آخر شددت عليه الآية، هو حق المرأة في حرية التعبير، وهذا جانب يكشف بدقة عن روح رسالة الإسلام، ويفسر المناخ العام الذي كانت تتعم به النساء المسلمات في ذلك الزمان، حيث يعبرن بجرية عن أفكارهن، ومتمنياتهن وغضبهن أيضا.

وبالفعل، كان من الممكن لخولة أن تحكي سرها الأليم إلى بعض النساء، إذ لا بد أن يكون من بينهن من سبق وعاشت مع زوجها الحبيبة نفسها، أو أن تنتقل رسالتها إلى إحدى زوجات الرسول صلى الله عليه وسلم التي كانت ستقوم بما يجب فعله في مثل هذه الحالات. غير أن كل هذا لم يقع، لأن قوة الإيمان وتولد الأمل في الرسالة الجديدة، سمحا لخولة أن تتجاوز تلقائيا كل الضغوط التي تفرضها الأسرار والمسائل الخصوصية. كانت لخولة شجاعة كبيرة لما لجأت إلى الرسول صلى الله عليه وسلم، لتحكي قصتها إلى الله تعالى، لقد

اشتكت من التقاليد والأعراف القديمة، وأدانت باسمها وباسم نساء أخريات بعض السلوكات الطائرة والمشينة السائدة في ذلك الوقت، كبعض أشكال الطلاق التي لم تصبح عرفاً انتهى العمل به وانقضى أجله، بتغيير الزمان وتبدل الأحوال، بل ظل حياً يفعل فعله إلى اليوم بصور وأشكال مختلفة كلها ألم وحزن وحسرة لا تقل عما كانت عليه فيما نقبل.

هذه الشهادة النسائية التي صدرت في ذلك العصر، تتم عن درجة عالية من النضج الفكري الذي كانت تتمتع به النساء المؤمنات. لقد استمددن من نور الإيمان الشجاعة المعنوية عند تقديم مطالبهن، وإدانة ورفض النظام القائم الذي أقامته التقاليد السلطوية الأبوية الجائرة.

لقد مثل هذا الوعي عند النساء ولادة جديدة لهن، جعلهن تثرن باسم الإيمان ومن منطلق مبدأ العدل الإسلامي. ولعل سورة المجادلة خير دليل على آثار هذا الفكر النسائي الإسلامي الجديد، الذي حاول القرآن أن يرسخه بتركيز وثبات شيئاً فشيئاً طوال ثلاث وعشرين سنة من الوحي.

ونجد بهذا الخصوص نماذج كثيرة لنساء مسلمات تمتحن في بداية نزول الوحي، مجرية التعبير وأب في الوقت ذاته عن استقلالية عجيبة في كل اختياراتهن الخاصة، فشككن بذلك طائفة مهمة استطاعت أن تحتل مكانة مرموقة في السيرة النبوية. ومن المؤسف حقا أن نرى هؤلاء النسوة لا تحظين بالانتباه والاهتمام اللازم في الأدبيات الإسلامية القديمة، ولا تذكرن إلا شهادات على أحداث أخرى، في الوقت الذي من المفروض فيه، أن يقدمن في

سياق بناء منهج حقيقي وهادف لتحرير المرأة. شخصيات نسائية طبعت تاريخ الإسلام منذ بداية نزول الوحي تذكرن دون ملل أو كلل ليس بوصفهن نماذج مستقلة بذاتها، بل بوصفهن نائبات فقط في تمثيل هذا الدور، لا تمثلن إلا صورا سلبية في التاريخ، صورا ثانوية من الدرجة الثانية أو الثالثة بالمقارنة مع دور الذكور الذي يعتبر النموذج الأمثل.

ويمكن أيضا أن نضيف هنا كشاهد على حرية التعبير النسائية حديثين اثنين روبا في كتب الأحاديث، يمدنا بمعلومات مهمة في الموضوع.

الأول هي قصة "بريرة" الأمة التي صارت حرة بعد أن أعتقتها عائشة زوجة الرسول صلى الله عليه وسلم. لقد كانت "بريرة" زوجة شاب يدعى مغيث لم تحبه يوما لأن اقترانها به كان قهرا بسبب وضع العبودية الذي كانت عليه، وعندما صارت امرأة حرة ترك لها الرسول صلى الله عليه وسلم حرية الاختيار بين أن تبقى مع زوجها أو أن تتفصل عنه، فاختارت الانفصال لأن هذا الزوج لم تختره بمحض إرادتها وإنما فرض عليها فرضا. لكن "مغيث" ظل يحب "بريرة" بلوعة وجنون. وتروي كتب السيرة أنه كان يلاحقها أينما حلت وقد ابتلت لحيته بدموعه الغزيرة. إثر هذا المشهد تأثر الرسول صلى الله عليه وسلم وسأل عمه "العباس" الذي كان يرافقه "يا عباس ألا تجعب من حب مغيث بريرة، ومن بغض بريرة مغيثا". فاقترح عليه العباس أن يصلح بينهما، ففعل الرسول صلى الله عليه وسلم فطلب من بريرة أن تعود

لزوجها قائلاً: "لو راجعته"، فردت قائلة: يا رسول الله تأمرني، قال: "إنما أنا أشفع. قالت لا حاجة لي فيه"<sup>1</sup>.

هذا مثال للمرأة المسلمة الحازمة، التي تتخذ قراراتها طبقاً للحرية والحقوق التي منحها الإسلام، حين حررها مرتين، مرة من العبودية ومرة من أعراف زواج الإكراه. لقد قالت لا للرسول صلى الله عليه وسلم، لكنها ظلت حريصة كل الحرص على الفصل والتمييز بين ما يقوله الرسول صلى الله عليه وسلم ويندرج في تعاليم الرسالة النبوية، وبين ما هو مجرد تدخل إنساني منه غايته تقريب ذات البين لا غير. ولم تكن مستعدة - خارج نطاق التعاليم الدينية التي من شأنها خدمة الدعوة الإسلامية أن تقدم أي تنازل عن حقها في حرية الاختيار، حتى ولو كان للرسول صلى الله عليه وسلم نفسه، مع العلم أنه صلى الله عليه وسلم أعطى لحرية الاختيار المكانة اللائقة بها وقدر قيمتها حق قدرها، واعتبرها حقاً لا مندوحة عنه بالنسبة لكل الكائنات البشرية، وخصوصاً النساء لأنهن أكثر عرضة للغمط وسلب الحقوق. ولذلك لم ستعمل صلى الله عليه وسلم قوته في الإقناع بصفته رسولاً، لكي يؤثر عليهن أو يخرجهن أو يجبرهن على الموافقة! بل أراد أن يزيل أي غموض قد يحصل موضحاً حقيقة الموقف بقوله: "إنما أنا أشفع" وهو قول يكشف عن مدى احترامه لحقوق النساء، وإقراره بجريبتهن في التعبير والاختيار، وشهادة على سمو روحه صلى الله عليه وسلم.

---

<sup>1</sup> - هذا الحديث رواه البخاري في صحيحه في كتاب الطلاق باب خيار الأمة تحت العبد .

وهناك مثال آخر يسير في نفس الاتجاه، نستخلصه من الحديث الذي رواه ابن ماجة في كتاب النكاح باب من زوج ابنته وهي كارهة، ويحكي عن قصة فتاة شابة، جاءت الرسول صلى الله عليه وسلم تشكو أباهما الذي زوجها من ابن عمها دون أن تطلب رأيها، ولا ترك الرسول الأمر إليها في حرية الاختيار بين أن تتفصل عن زوجها، أو تظل تحت عصمته. ردت قائلة "قد أجزت ما صنع أبي ولكن أردت أن تعلم النساء أن ليس إلى الآباء من الأمر شيء"<sup>1</sup>.

ورغم كل ما تقدم تبقى هذه المضامين غريبة عن واقع المجتمعات الإسلامية المعاصرة التي غالبا ما تحكمها مدونات. قانونية رجعية مخالفة لمبادئ الحرية التي دعا إليها الإسلام. إن الأقطار الإسلامية في عصرنا الحالي تعج بأمتلة كثيرة ودالة بهذا الخصوص، حيث تكثر زيجات الإكراه، وزيجات المصلحة المرتبة سلفا من أفراد أعضاء العائلة رغم أنف صاحبة الشأن، وغيرها كثير يزداد وينتشر يوما بعد يوم في الأوساط الإسلامية في كافة أرجاء المعمور.

وعندما نقف على الأضرار التي تسبب فيها زيجات الإكراه عند الجاليات الإسلامية التي تعيش في الغرب، نصاب بالحيرة والذهول جراء الجهل المطبق والمنتشر. ومما يثير الانتباه أن زيجات الإكراه هاته، والتي تدان باستمرار من طرف المنظمات العالمية لحقوق

---

<sup>1</sup> - ابن ماجة، السنن، كتاب النكاح، باب من زوج ابنته وهي كارهة .



الإنسان، تمثل مظهرا من مظاهر الاضطهاد الديني الذي يمارس في حق النساء المسلمات حتى أصبح الدين الإسلامي في نظر البعض مصدرا لكل الأضرار والمشاكل.

لكن لماذا الإحساس بالإهانة جراء هذه الأحكام الجائرة والمجحفة الذي يطلقها علينا الآخرون، في الوقت الذي نجد فيه المسلمين أنفسهم مقتنعين بأن كل الممارسات السابقة الذكر مطابقة للشريعة الإسلامية، فنقودهم إلى إصدار هذا النوع من الأحكام المسبقة التي تنتسب عن باطل إلى الإسلام.

وقد حصل اغتباط في ربيع 2005 حين أدان مفتي الملكة العربية السعودية ممارسة "زواج الإكراه للنساء" (وهي ممارسة من خلالها يفرض الوصي الشرعي الذي يكون رجلا كالأخ أو الأب على الفتاة زواجا يختاره هو) لقد حرم المفتي السعودي هذا الزواج بوصفه منافيا للشريعة الإسلامية ومصدرا للظلم والجور. وبعد إصدار هذه الفتوى، منعت المملكة العربية السعودية زواج الإكراه في 2005 ملتحقة بذلك بزمرة الدول الإسلامية التي كانت قد بادرت إلى ذلك.

ولنا الحق في أن نتساءل، لماذا انتظرنا قرابة ألف وخمسمائة سنة، لنسن القوانين والتشريعات في هذا المجال رغم أن مصادر التشريع المقدسة لا يوجد ما هو أوضح منها في هذا الموضوع؟

إن احترام الدعوة الإسلامية للحق المطلق للمرأة، سواء في اختيار زوج المستقبل، أو في ممارسة حرية التعبير، تعارض تماما مع ما تنقله - إلى حد اليوم - ثقافة تصف نفسها

الإسلامية وإن كانت في الواقع تسير في الاتجاه المعاكس، وتبذل كل ما في وسعها من أجل التأكيد على أن المرأة المسلمة لا حق لها في حرية التعبير ولا رأي لها في اختيار الشريك.

في الكثير من البلدان الإسلامية تبقى المرأة كيفما كان وضعها الاجتماعي قاصرة من الناحية القانونية لكونها تظل تحت وصاية: الزوج أو الأب أو الأخ. وكل هؤلاء الرجال لهم كل الحق في التصرف باسمها سواء في الاختيار أو في الحديث أو في اتخاذ القرار فيما يخص ما يرونه في مصلحتها بل وفي مضرتها أيضا ، وكل هذا الفكر تدعمه بطبيعة الحال، قراءة منحرفة للدين، تروج لاختيارات عتاة المدافعين عن طاعة النساء للرجال.

ولذلك بطبيعة الحال، نلاحظ أنه كلما عرف بلد من هذه البلدان الإسلامية إصلاحات تهدف إلى منع هذا النوع من الممارسات إلا وتم التصفيق له وتهنئته بما يقوم به من مجهودات مهمة، في سبيل تحقيق الحداثة والتحرر من القوانين الدينية الظلامية.

والتعديل الحديث الذي شهدته مدونة الأسرة بالمغرب خير مثال على ذلك، لقد جاء نتيجة توافق ومسار طويل من المشاورات بين مختلف الفاعلين الاجتماعيين والسياسيين والدينيين المغاربة تحت الرعاية الملكية. غير أنه لا يجب أن ننسى أن هذا المسار هو أولا وقبل كل شيء نتاج كفاح طويل خاضته بعض الحركات النسائية العلمانية في هذا البلد حيث أدانت باستمرار الوضع المتخلف للمرأة المغربية في هذه المدونة. هؤلاء النسوة العلمانيات انبرين للقيام بذلك من منطلق وعيهم وقناعتهم، غير آبهات بأي مرجعية دينية، في حين رفضت النساء المنتميات لتيارات سياسية "دينية" أو "تقليدية" مدونة الأسرة رغم كل

ما جاءت به من تعديلات جديدة، وعملت باسم الإسلام على نبذها واتهامها وبالولاء والخضوع للغرب. هؤلاء النسوة الملتزمات رفضن هذا التعديل لأنه يجسد أمام أعينهن رضوخا للوصاية الغربية. إن رد فعلهن هذا، جاء بدافع الخوف على الهوية الدينية. ومن ثم عملن جاهدات على إقصاء هذه المدونة، لأنها لا تستند على مرجعية دينية إسلامية . مع العلم أنها لم تكن سوى تأويل من بين تأويلات أخرى لبعض المصادر الدينية الإسلامية ذات التجاوب والانسجام مع ما جاء به المذهب المالكي. وفعلا يمكن إدانة الرؤية الغربية المهيمنة، لكن ذلك لا يجب أن يؤدي إلى إعطاء شرعية لممارسات الإقصاء والتمييز التي تتعارض والمبادئ الأساسية للإسلام.

وإنه لحزن حقا أن نرى كيف صار الدين الإسلامي عرضة باستمرار الاتهام والتجني عليه بعيوب ونقائص هو منها براء. ويزعم مجموعة من المثقفين المسلمين أن كل هذه الممارسات القائمة على الإقصاء والتمييز تتسجم كل الانسجام مع القرآن الكريم، في حين يحاول بعض المثقفين الآخرين تبرير هذه الممارسات نفسها بتقديم طائفة من الأدلة والبراهين الفقهية، وذلك دون استخدام عبارات من نحو: "الإسلام لا يعمل إلا على حماية المرأة".

وبالمناسبة، يبدو من المؤلف أن نجد كتبا تتحدث عن المرأة المسلمة كما تتحدث عن جوهرة في علبة حلي، أو وردة يجب الحفاظ عليها، والدفاع عنها وإنقاذها من عدو خارجي أبدي يتربص بها في كل وقت وحين. ولا ضير على هذا الأساس من تقييدها

وسجنها إذ في ذلك صلاحها وحمايتها من كل سوء. غير أن القرآن لم يحدث قط عن المرأة كوردة أو كجوهرة يجب الحفاظ عليها.

وتظل الرؤية القرائية للمرأة في تعارض تام مع الصورة الطفولية التي تحاول أن ترسمها لها بعض الثقافات الإسلامية. فالمرأة بالنسبة للدين الإسلامي تمثل أولا وقبل كل شيء، الكائن البشري الحر والمرهف الحس والذكي والعاقل . ولعل نموذج خولة، المرأة التي من أجلها أنزلت "سورة المجادلة"، خير دليل يعارض كل هذه الادعاءات والانحرافات الشائعة بهذا الخصوص . فبأداتها لكل الممارسات التي تهين المرأة وتقصدها مارست خولة حقها في حرية التعبير، وجاء الوحي الإلهي ليعيد بإصلاح اجتماعي شامل يعيد للمرأة مكانها. لقد كانت خولة امرأة ذات شخصية قوية، وزاد من قوتها دون شك نزول سورة قرآنية خصيصا لأجلها والإجابة على تساؤلاتها، وهو ما منحها مكانة مرموقة في المجتمع الإسلامي، خولت لها بعد مرور السنين أن تسدي النصيحة لرجل من مثل عمر بن الخطاب بعدما أصبح أميراً للمؤمنين.

فحسب ما روي في كتب التفسير، أنها أعطت لنفسها الحق في أن يتعظ عمر بن الخطاب. و يذكر القرطبي في تفسيره أنها التقت ممر بن الخطاب رضي الله عنه في خلافته والناس معه على حمار فاستوقفته طويلا ووعظته وقالت: يا عمر قد كنت تدعى عميرا، ثم

قيل لك عمر، ثم قيل لك أمير المؤمنين، فاتق الله يا عمر، فإنه من أيقن بالموت خاف الفوت، ومن أيقن الحساب خاف العذاب"<sup>1</sup>.

استمع عمر بن الخطاب رضي الله عنه لكلام خولة، وأصغى لحديثها حتى النهاية، مما أثار رد فعل أحد أصحابه الذي تفاجئ من سلوك أمير المؤمنين بإضاعة وقته مع سيدة عجوزة تمشي في الطريق فخطبه قائلاً: "يا أمير المؤمنين أتقف لهذه العجوز هذا الوقوف؟ قال عمر بن الخطاب: والله لو حبستني من أول النهار إلى آخره لا زلت إلا للصلاة المكتوبة، أتدرون من هذه العجوز؟ هي خولة بنت ثعلبة سمع الله قولها من فوق سبع سموات، أيسمع رب العالمين قولها ولا يسمعه عمر؟"<sup>2</sup>.

إن قصة عمر بن الخطاب مع خولة تقدم لنا مجموعة من المعلومات الغنية عن كل تعليق أو زيادة. فالرجل والمرأة متساويان أمام الخالق في فهم واستيعاب معنى الرسالة الإسلامية. إن هذه العلاقة التي جمعت بينهما تدل على المساواة الروحية والاجتماعية والسياسية، بالمعنى الذي فهمت به في ذلك العصر! فهل يمكن أن نجد في وقتنا الحاضر هذا النوع من العلاقات بين حاكم ومواطنة عادية وبين مسلم ومسلمة؟

---

<sup>1</sup> - تفسير القرطبي، سورة المجادلة.

<sup>2</sup> - تفسير القرطبي، سورة المجادلة

## وماذا عن الآيات الأخرى؟

وماذا عن الآيات الأخرى التي تذكر مباشرة كلما تم الحديث عن الإسلام والنساء؟  
هذه الآيات التي تطرح دائما خلافا وجدلا يواجهنا في كل وقت أردنا فيه الدفاع عن وضعية  
المرأة في الإسلام؟

آيات تشكل سهام اتهام أبدي الإسلام يضطهد المرأة، استطاعت في نهاية المطاف  
للأسف الشديد، أن تتجح في حجب بقية الرسالة القرآنية. وهي آيات تبيح تعدد الزوجات،  
وتعطي للمرأة في الإرث نصف حظ الرجل، وتجعل شهادة امرأتين معادلة لشهادة الرجل،  
كما تعطي للرجل الحق في ضرب زوجته حتى وإن كان هذا الضرب ليس مبرحا، لكنه يبقى  
ضربا في كل الأحوال.

هذه الحال المعبرة وما يصاحبها من أحكام وإن كانت ناتجة عن رؤية سطحية قاصرة  
وسرعة تظل تفرض نفسها في الواقع المعيش لدرجة يصعب معها الدفاع عن مبادئ مخالفة  
أو الانتصار لها.

ولا تريد هنا أن ندخل في أدق تفاصيل كل مفهوم من هذه المفاهيم المشكلة، لأن هذا  
سيطلب كتابا خاصا يقوم على دراسة دقيقة للموضوع، تعتمد تحليلا نقديا تمنح من الكتب  
الدينية القديمة كما يعتمد في الآن ذاته على الكتابات المعاصرة الغزيرة في هذا الموضوع<sup>1</sup>.

---

<sup>1</sup> من الكتب المعاصرة بخصوص هذا الموضوع بجد بحثا مهما وغنيا بالمراجع والوثائق للدكتورة شيما أصراف تحت  
عنوان "أحكام المرأة بين التقليد والتجديد" دار القلم باريز 2001.

إن دراسة جامعة مانعة في الموضوع ليس هذا مكانها، إذ حسبنا من هذا الكتاب أن يكون أولاً وقبل كل شيء محاولة متواضعة لإعادة بناء هذه المفاهيم الأسطورية وفق مقارنة جديدة للنص القرآني الكريم.

فالهدف إذا هو محاولة إعادة القراءة على ضوء الخطاب القرآني برمته والذي كما رأينا أسس مفهوماً جديداً لهوية المرأة. فمنذ أن خلق الإنسان الأول، مروراً بالنماذج النسائية التي احتفظ التاريخ بصورتها الدالة والمثيرة، ووصولاً إلى مختلف المبادرات التي تم القيام بها من أجل ترسيخ صورة أفضل للأنثى، إذ أرسى الخطاب القرآني دعائم رؤية جديدة للمرأة، تقوم أكثر فأكثر على العدالة والاستقلالية. رؤية متحررة جداً بالنسبة لعصرها - وكذلك بالنسبة لعصرنا الحالي لأن تحرر المرأة لم يبدأ في البلدان المتقدمة إلا عند بداية القرن العشرين<sup>1</sup>. لقد كان الغرض الأساس للدعوة الإسلامية هي تحرير المرأة تدريجياً من نظام السلطة الأبوية غير العادل بتاتا.

فكيف يمكن أن تصور وجود آيات قرآنية تسيّر في الاتجاه المناقض تماماً لمتطلبات العدالة التي تشكل دعامة أساسية من دعائم الخطاب الروحي في الإسلام؟ وهل هذه الآيات التي نتحدث عن تعدد الزوجات والإرث والشهادة وحق الزوج في ضرب زوجته، تتعارض كلياً مع بقية الآيات؟ وهل هذه الآيات بالفعل مجحفة في حق النساء؟

---

<sup>1</sup> - فالقانون الذي كان معمولاً به من 1917 إلى 1983 يعتبر أن المرأة تولد بعاهة الإعاقة العقلية الخلقية.

وفعلا إذا أخذنا الآيات السالفة بمعزل عن نص القرآن الكريم، وإذا قمنا بقراءة حرفية لا تأخذ بعين الاعتبار شمولية الخطاب القرآني، ولا تحفل بمبادئه الأساسية، فلا مناص لنا بعد ذلك من أن نجيب بنعم على كل الأسئلة السالفة الذكر . على خلاف إذا قرأنا هذه الآيات بعناية وتؤدة وحاولنا استيعابها من خلال سياقاتها المختلفة، ومن خلال دلالة وغرض الخطاب القرآني في كليته، فالجواب سيكون بالنفي دون تردد.

ولا يمكن أن نكتفي في هذا العمل بالنسبة لهذا النوع من الآيات على وجه الخصوص، بالقراءة الشاملة. فهناك آيات لا يمكن دراستها إلا بموازاة آيات أخرى من جهة، وعلى ضوء السيرة النبوية من جهة ثانية. وفي الاتجاه ذاته إذا أخذنا آية واحدة وعزلناها عن مجموع آيات النص القرآني، فسيكون الحاصل تأويلا مختلفا نسبيا إن لم نقل مناقضا تماما للتأويل المستخلص من مجموع الآيات القرآنية ومن المعطيات الكبرى المتعلقة بالسياق العام الذي نزلت فيه هذه الآيات. وتجدر الإشارة في هذا الصدد، إلى أن هناك قاعدة معروفة في علم أصول الفقه في الإسلام تؤكد على أن القرآن الكريم يفسر بعضه بعضا.

إن التأويل الحرفي لا يمكنه أن يوصل أساس الرسالة القرآنية، لأنه يقفز على المبادئ الأساس التي تشكل البنية الداخلية للنص. فإله عز وجل قد حدد في كتابه العزيز أنماط هذا التأويل مركزا على ضرورة الفهم العميق للرسالة: "وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون"<sup>1</sup>.

---

<sup>1</sup> - سورة النحل، الآية 44.



نسجل من خلال هذه الآية ثلاث مراحل متتالية بهذا الخصوص: مرحلة الوحي (النص) ثم مرحلة شرح النبي لهذا النص (التأويل) وأخيرا مرحلة تبصر الناس (فهم النص). هذه المقاربة التي أعلن عنها بوضوح القرآن الكريم، تتعارض مع المقاربة الحرفية التي توقف عند معنى الكلمة لا غير، إن القراءة الحرفية قراءة لا تتجاوز ظاهر اللفظ، وبالتالي فهي لا تطرح أي تساؤل عن المعنى العميق الذي يمثل المعنى الباطن للفظ. إن الإمام أبو حامد الغزالي أكد في كتابه مشكاة الأنوار على أن الاكتفاء بالقراءة الظاهرية فيه تشويه لمعنى الخطاب بخلاف القراءة الباطنية الروحية.

إن فهم القرآن الكريم يرتبط إذن بشكل وثيق، مع الاتساق الداخلي. له كما يتحدد من خلال عدد من الأصول والقواعد التي يجب نهجها كلما أردنا اكتشاف وإدراك المعنى الحقيقي للرسالة القرآنية. ومن القواعد المعتمدة في هذا المجال دراسة النصوص - القرآن الكريم والسيرة النبوية في كليتها، وهو ما أسماه العلماء "الشمولية" التي تساعد على مقارنة النص من منظور إجمالي.

يشير الشيخ يوسف القرضاوي عند حديثه عن منهج تفسير القرآن إلى مستويات تتفاوت من حيث درجات الأهمية، فهناك تفسير القرآن بالقرآن ثم تفسير القرآن بالسنة الصحيحة ثم هناك مراعاة سياق الآية وأهمية معرفة أسباب النزول<sup>1</sup>.

---

<sup>1</sup> - يوسف القرضاوي، كيف نتعامل مع القرآن العظيم، دار الشروقي، الطبعة الثانية 2000، القاهرة 215. وتخير الإشارة أن الشيخ يوسف القرضاوي تحدث عن مستر بين آخرين هما الأخذ بمطلق اللغة واعتبار القرآن أصلا تابعا لا متبوعا، وكل هذه الأصول نحل عرضا مفعلا لهما في كتب علوم القرآن المترجم.

وهناك مقارنة أخرى للقرآن الكريم يجب أخذها بعين الاعتبار عند كل محاولة لتأويل آية ما، يمكن أن نسميها الفلسفة القرآنية في التغيير أو بيداغوجية التغيير بالترج، وهو ما يصطلح عليه بسنة التدرج، وهو مبدأ أساس من المبادئ التي ذكرها القرآن الكريم، والتي تترجم الإرادة الإلهية التي تهدف وفق قانون التدرج إلى إحداث التغييرات شيئاً فشيئاً. وباستثناء الأصول الثامنة التي لا تقبل التغيير، كوحداية الله، والعبادة والقيم الأخلاقية الكلية، تستدعي كل الآيات القرآنية الأخرى مقارنة تدرجية لتغيير العلامات والممارسات وذلك لجعل الوعي الإنساني مستعداً أكثر لقبول التحولات اللازمة.

### تعدد الزوجات

إذا أردنا أن نؤول بشكل صحيح الآية القرآنية التي ذكر فيها تعدد الزوجات، لا بد من أن نستحضر السياق الذي كان يدعم هذه العادة في ذلك العصر، ومدى متجذره العميق في الثقافة البدوية العربية . إن الآية القرآنية التي تحدثت عن تعدد الزوجات - وهو تقليد قديم كان قبل الإسلام ولما جاء الإسلام قيد شرعيته ولم يعمل على إدماجه أو تبنيه في منظومته الجديدة - تبقى المثال النموذج للفلسفة القرآنية المتضمنة في آيات القرآن الكريم والتي تعمل على التغيير التدريجي المحمود.

لقد حاول القرآن احترام النظام الاجتماعي القائم الذي كان متسامحاً إلى حد كبير فيما يخص العلاقات الزوجية والعلاقات غير الزوجية التي لم تكن تنحصر في عدد محدد من النساء، لكنه في الوقت ذاته كان يعمل على تقديم مقارنة جديدة لرابطة الزواج تحكّمها

شروط صارمة جدا. ومن بين هذه الشروط: تحديد عدد الزوجات في أربع، والعيش في إطار علاقة زوجية يسودها الاحترام المتبادل، واقتران إباحة التعدد بشرط العدل بين الزوجات. وتعتبر هذه الشروط هي أول خطوة رادعة مكنت من تقادي الانشقاقات الاجتماعية المبالغية، وعدم الانسياق والخضوع لها، وهذا ما يمكن أن نستشفه من الآية التي تحدثت عن التعدد وقيدته في نهاية الآية بما يلي: "خفتم ألا تعدلوا فواحدة"<sup>1</sup>.

إن هذه الشروط الملزمة من المفروض مبدئيا، أن لا تشجع على التعدد بالنسبة لأولئك الذين أدركوا في أعماق عقولهم ووعيمهم الهدف الرئيس الذي جاءت من أجله الآية وهو الاحترام المفروض بين الزوجين والإنصاف والعدالة. إن هذه الآية تقول بمعنى آخر، إن الزواج بواحدة هو الزواج الصحيح والأمثل.

إضافة إلى هذا، فالسياق الذي أنزلت فيه هذه الآية يرجع إلى الظروف التي سادت بعد غزوة أحد حيث فقد الكثير من رجال المسلمين، مما جعل النساء اليتيمات عرضة للظلم والاستغلال. وعندما أباح القرآن للتعدد فقد كان ذلك بغاية حمايتهن من كل علاقة تخالف الشرع. لقد جاء هذا الحل المؤقت إذن في سياق كان فيه حماية النساء اليتيمات والأرامل ضرورة قصوى وألوية الأولويات. غير أن هذه الرخصة يجب أن لا تعتبر مباحا، إذ الرخصة تقدر بقدرها ولا تعمل إلا في مراعاة تامة للظروف والأحوال في استحضر دائم لكون الغاية الأساس لهذه الآية هي ضمان العدالة. ولا يستساغ أن يكون تعدد الزوجات

---

<sup>1</sup> - سورة النساء، الآية 3.

مباحا على الإطلاق وخارج الظروف الخاصة التي يمر منها عصر من العصور لأن ذلك سيؤدي لا محالة إلى السقوط في الظلم وتعليق الأحكام الإلهية الزاجرة لكل أنواع التجبر والطغيان. ولذلك نجد أية قرائية أخرى تبين عدم قدرة الرجل على العدل المطلق اتجاه زوجاته: "ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم"<sup>1</sup>.

يتضح لنا بعد شرح هذه الآية أن القرآن الكريم نص على أن تعدد الزوجات يقود إلى ظلم الزوجة مهما كانت درجة نزاهة الزوج. وهنا نجد أحد أمثلة التربية البيداغوجية الإلهية التي تروم الوصول إلى الأهداف بصورة تدريجية وفي انسجام وتوافق تامين مع الواقع البشري. إننا إذا قرأنا القرآن بهذه الطريقة، سنفهم مباشرة أنه حاول إيقاف هذه الممارسة وحذفها تماما لأنها لا يمكن أن تكون إلا منبعاً للظلم، ودعم في الآن ذاته الزواج بامرأة واحدة فقط، واعتبره مثلاً أعلى يجب أن يتبعه كل مسلم مخلص للمبادئ الإسلامية وحريص على تنفيذ الأوامر الإلهية.

إن تعدد الزوجات في هذا السياق، يشكل خروجاً عن القاعدة العامة والتي هي الاقتصار على زوجة واحدة لا غير. وبالمناسبة، أفلم ير الرسول صلى الله عليه وسلم استنكاره واستهجان المسألة تعدد الزوجات عندما سمع أن علياً كرم الله وجهه، زوج ابنته فاطمة، يريد الزواج بامرأة ثانية؟

---

<sup>1</sup> - سورة النساء، الآية 129.

ورغم أن الأحكام القرآنية إذن تضبط تعدد الزوجات بجملة الضوابط المذكورة آنفاً، فإننا نرى للأسف - وعلى مر التاريخ الإسلامي وإلى يومنا هذا الاستعمال غير الملائم لهذه الرخصة، والأضرار المتعددة التي تسببها داخل المجتمعات الإسلامية وخارجها أيضاً، من خلال تشويه رسالة الإسلام الروحية. لقد أصبح تعدد الزوجات مرتبطاً بالإسلام فقط، ووسيلة بواسطتها تعطى المشروعية لإقصاء الإسلام. وهناك مجموعة من المسلمين الذين فهموا قليلاً أو لم يفهموا على الإطلاق التوجيهات القرآنية التي تطالب بحذف هذه العادة شيئاً فشيئاً. لقد صار الزواج بأكثر من واحدة عند بعض المسلمين امتيازاً خاصاً منحه الله لهم. إن الآية المتعلقة بتعدد الزوجات تعتبر مثلاً يحتذى به فيما يخص كل الآيات التي نزلت تبعاً للظرف خاص، وبالتالي لا يمكن أن نسقطها على واقعنا الحالي، كما هو الأمر بالنسبة لبعض الآيات المتعلقة بالعبودية، وغنائم الحرب والعقوبات الجسدية أي الحدود بلغة الفقهاء. وهناك بعض العلماء المسلمين الذين فكروا في تعليق هذه العادة والغائها من واقعنا الحالي، أولاً بسبب تأويلها الخاطئ من طرف بعض المسلمين، وثانياً بسبب نتائجها السلبية على الصعيد الأسري والاجتماعي، وأخيراً لكونها تشكل عائقاً نفسياً أمام تشرُّ وفهم الرسالة الإسلامية اليوم<sup>1</sup>.

---

<sup>1</sup> - نذكر من بينهم الإمام محمد عبده في المشرق وعلماء آخرين في المغرب الوطني المصلح علال الفاسي في كتابه النقد الذاتي مطبعة الرسالة 1979 المغرب.

## الشهادة

القول إن شهادة امرأتين في الإسلام تعادل شهادة رجل واحد، اعتمادا على آية وحيدة ومنفردة، فيه اختزال كبير ومضلل في نفس الوقت. وفعلا فإن الآية موضوع النقاش تقول: "أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه (.....) واستشهدوا شهيدين من رجالكم فإن لم يكون رجلين رجل وامرأتان من ترضون من الشهداء أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى"<sup>1</sup>.

يجب الإشارة بادئ ذي بدء إلى أن الآية موضوع النقاش لا تتحدث عن الشهادة بكل ما تحمله الكلمة ولكن تتحدث عن الإشهاد<sup>2</sup>. وشتان بين الشهادة والإشهاد.

فالشهادة فعل يحصل أمام قاض، يمثل الجهة الوحيدة المؤهلة من الناحية القانونية التقرير صدق أو صحة تلك الشهادة. وهذه الشهادة المطابقة لهذا الإجراء الشرعي محبذة في الإسلام ولا تعبر أي اعتبار للجنس حيث إن الذكر كالاتي. أما الذي يأخذه القاضي بعين الاعتبار فهي القيمة المقدرة لشخصية الشاهد وصحة شهادته سواء كان رجلا أو امرأة.

أما الآية موضوع النقاش فتعلق بفعل مختلف تماما عن الشهادة، لأن المقصود منها هنا هي الشهادة التي تقوم بين شخصين تداينا بدين.

---

<sup>1</sup> - سورة البقرة الآية 182.

<sup>2</sup> - للمزيد من التفصيل يمكن الرجوع لكتاب المفكر المصري محمد عمارة، التحرير الإسلامي للمرأة، منشورات دار الشروق، القاهرة 2002 ص 82

ويتفق أغلب العلماء على أن هذه الآية، لها منحنى الإرشاد وليس التشريع، فغرضها الإرشاد وإسداء النصيحة للدائنين.

وبالفعل، فالتعاملات المالية من هذا النوع، تدخل في إطار المجال الاقتصادي الخاص بكل فرد، والآية تحت الدائن على حماية حقوقه شهادة موثقة تصون حقوقه وتحميها بالكامل. وهذا هو السبب الذي جعل عددا كبيرا من فقهاء القانون المسلمين<sup>1</sup>، يؤكدون على أن هذه الآية تتعلق بحال خاصة، وبالتالي لا يمكن اعتمادها أساسا في التشريع.

وتقدم لنا هذه الآية أيضا مثالا دالا، يعكس منهج التدرج الذي اعتمده القرآن الكريم في القيام بالإصلاحات الضرورية التي تكفل الإدماج الاجتماعي للمرأة. ففي هذا العصر وعلى غرار العديد من المجتمعات الأخرى في العالم، جرت العادة أن يكون تسيير الشؤون التجارية من اختصاص الرجل، غير أن القرآن الكريم أوصى بمشاركة المرأة أيضا، وحضورها في هذا النوع من المواثيق<sup>2</sup>، رغم أنف أولئك الذين يريدون لها أن تبقى بعيدة عن هذا المجال. فمن خلال هذا المثال الذي يتحدث عن المعاملات التجارية، سمح القرآن الكريم للمرأة المسلمة في ذلك العصر، أن تلج بتواضع عالما ذكوريا مغلقا لا يرتاده إلا الرجال.

لقد كان هدف هذه الآية، أولا وقبل كل شيء، العمل على فتح باب المشاركة الفعلية للنساء في هذا المجال، وإن كانت قد اشترطت، في بداية الأمر، شهادة امرأتين مقابل شهادة

---

<sup>1</sup> - من بين هؤلاء الفقهاء بحد قديما ابن تيمية وتلميذه ابن قيم الجوزية، ويحد من المحدثين الشيخ محمد عبده والشيخ محمد شلتوت.

<sup>2</sup> - Dr Taha Jaber Al-Alwani , The testimony of Women in Islamic law, www.alhewar.com

رجل واحد. غير أن بعض العلماء للأسف قاموا بقراءة هذه الآية قراءة كلها إقصاء وميز وجعلوا منها دليلاً قاطعاً على علو مكانة الرجال وتفوقهم على النساء.

وبالمقابل نجد علماء آخرين مثل ابن تيمية فهموا المقصود من هذه الآية، وأكدوا بيقين تام، على قبول شهادة المرأة الواحدة، شرط أن تكون لديها تجربة وثرية في مجال المعاملات التجارية. لقد كان الأهم بالنسبة للصور القرآني هو أن يتم إدماج المرأة في نظام التسيير الاقتصادي الخاص من جهة، وحماية ذوي الحقوق من جهة ثانية.

وهذا ما فهمه دون شك، عمر بن الخطاب رضي الله عنه عندما عين في منصب الحسبة إبان خلافته، امرأة تدعى شفعى بنت عبد الله. لقد كان هذا المنصب الإداري يوازي في وقتنا الحاضر وظيفة المراقب المالي. وبالفعل فقد تكلفت، شفعى بنت عبد الله بمراقبة المعاملات المائية، وكذا السهر على مراقبة الفساد الأخلاقي في الأسواق التجارية. وهنا أيضاً نجد مثلاً آخر التطبيق توجيهات القرآن الكريم، والتي لم يتردد الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن الاستجابة لها وترجمتها على أرض الواقع بعد فترة قصيرة من وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم.

أما بالنسبة للشهادة بكل ما تحمله الكلمة من معنى، فالقرآن الكريم لم يفرق أبداً بين شهادة امرأة وشهادة رجل. وقد اعتمد الشيخ محمد شلتوت هذه الآيات الاستدلال على رأيه وهي : "والذين يرمون أزواجهم ولم يكن لهم شهود إلا أنفسهم فشهادة أحدهم أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين، والخامسة أن لعنت الله عليه إن كان من الكاذبين، ويدروا عنها



العذاب أن تشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين" فهذه الآيات تتحدث عن اللعنة المتعلقة بالخيانة الزوجية، والتي بينت كما هو واضح من النص أن شهادة المرأة تساوي شهادة الرجل<sup>1</sup>.

وأما بالنسبة لابن قيم الجوزية فيؤكد على المساواة القانونية في الشهادة بين المرأة والرجل بالاعتماد على آية أخرى وهي: "وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا"<sup>2</sup>.

إن الأمة التي يتحدث عنها القرآن الكريم هنا أمة تتألف من الرجال والنساء معا، ومن ثم فلا يمكن أن نفرق في الشهادة بين جنسين بشريين ينتميان معا لأمة المسلمين.

وأخيرا من المفيد أن نذكر في هذا السياق بالقاعدة الفقهية الإسلامية التي تنص على أن المرأة والرجل متساويان في نقل الحديث. ومعلوم أن نقل الحديث بشكل شهادة على الرسول صلى الله عليه وسلم، وإذا كان الأمر كذلك، فكيف عقل أن نؤكد على قبول شهادة المرأة الواحدة بالنسبة لأقوال وأفعال الرسول صلى الله عليه وسلم، ونعترض على قبول شهادتها عندما يتعلق الأمر بأشخاص عاديين؟<sup>3</sup>.

---

<sup>1</sup> - سورة النور، الآيات، 6-8.

<sup>2</sup> - سورة البقرة الآية 143

<sup>3</sup> - محمد عمارة، التحرير الإسلامي للمرأة، منشورات دار الشروق، القاهرة 2002 ص 83.

## الإرث

إن الغالبية من غير المسلمين والأكثرية من المسلمين أيضا، لديهم مفهوم جاهز عن قانون الإرث الإسلامي الذي يتلخص حسب رأيهم في قاعدة واحدة هي: للذكر مثل حظ الأنثيين.

وبالفعل توجد في النص القرآني آية كريمة تقول: "يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين"<sup>1</sup>.

أولا وقبل كل شيء، من المفيد معرفة الظروف التي نزلت فيها هذه الآية، لأنه إذا أخذناها بمعزل عن سياقها ، فقد تعطينا معنى يبدو من ظاهره ظلم وإجحاف في حق للنساء. وقد قرر معظم المفسرين القدامى أن هذه الآية نزلت عندما جاءت امرأة عند الرسول صلى الله عليه وسلم تشكو شقيق زوجها الذي جاءها ليسلب منها ما تبقى لها ولابنتيها اليتيمتين مما ترك زوجها الحالك. وفي الواقع، كان العرب قبل مجيء الإسلام يجهلون قوانين حقوق الإرث بالنسبة للنساء والأطفال، وكانوا يعتبرون أن الحق في الإرث يقتصر فقط على الرجال الراشدين الذين يقدرون على المشاركة في الحروب والدفاع عن القبيلة. إن نزول هذه الآية وجميع الآيات المتعلقة بالإرث أحدثت ضجة كبيرة داخل الجماعة الإسلامية

---

<sup>1</sup> - سورة النساء، الآية 11.

في ذلك العصر، حيث لم تستطع هذه الأخيرة أن تتصور بأن يكون للنساء والأطفال نصيب معلوم في الإرث، لهم الحق في الحصول عليه، مثلهم في ذلك مثل الرجال<sup>1</sup>.

ونزول هذه الآية رد القرآن مرة أخرى، على امرأة جاءت لتطالب بحق - لم يخطر ببال أن يفكر فيه أحد في ذلك العصر بله المطالبة به - وتدعو الرسول صلى الله عليه وسلم لأن يرفع عنها الظلم الاجتماعي الذي كان سائداً بشكل كبير في تلك الفترة.

إن تفسير هذه الآية من خلال السياق الخاص الذي نزلت فيه، يبين إلى أي درجة حاول القرآن التغلب على القوانين العديدة الجائرة التي كانت تطبق على الفقراء والمعوزين دون غيرهم في ذلك الوقت. ومن جهة أخرى فإن الغموض الكبير الذي ظل يلف مسألة الإرث يرجع مصدره إلى ربط إجراءات تطبيقه وحصرها في مضمون آية واحدة لا غير. وفعلاً فإنه يتم إغفال شيء مهم في هذا السياق وهو أن هذه الآية لا تستحضر إلا حالة واحدة من الحالات الممكنة في الإرث والتي ذكرت في القرآن الكريم. إن الآية التي يدور حولها الحديث تستحضر حالة خاصة، وهي حالة أخت ورثت نصف المبلغ الذي ورثه شقيقها، وهذه المسألة لا يمكن اعتبارها قاعدة عامة بموجبها يمكن اعتمادها أصلاً والقول بالتالي إن الله سبحانه وتعالى جعل نظام الإرث يقوم على قاعدة واحدة هي للذكر مثل حظ الأنثيين.

---

<sup>1</sup> - تفسير ابن كثير

ومن جهة أخرى فإن رجال القانون المسلمين أكدوا أن قوانين الإرث في القرآن تعلق - ضمن ما تتعلق به من أشياء أخرى بدرجة القرابة التي تربط الوارثين بالهالك والمسؤولية المالية التي تكون على عاتقهم اتجاه باقي أفراد العائلة الآخرين. من هذا المنطلق نجد حالات متعددة تخص الإرث ذكرت في القرآن الكريم، كأن ترث المرأة حصة أكبر من حصة الرجل (هناك أكثر من عشر حالات). وهناك أيضا حالات أخرى نجد فيها المرأة ترث والرجل لا يرث، وحالات أخرى متعددة يكون للمرأة فيها نصيب مثل نصيب الرجل<sup>1</sup>.

إن قانون الإرث في الإسلام متشابه جدا لدرجة لا يمكن اختزاله في قاعدة واحدة. ويمكن مثلا أن نأخذ حالة على سبيل المثال لا الحصر تمثل واحدة من بين الحالات الموقع حدوثها في الإرث، كما تبين بما لا يدع مجالا للشك أن قانون التقسيم لا يأخذ دائما سين الاعتبار جنس الذكر أو الأنثى. وفعلا يمكن مثلا أن نجد حالات توفي فيها رجل ويترك بنتا واحدة ووالديه أيضا. ويكون التقسيم حسب التشريع الإسلامي أن ترث الابنة الحصة الأكبر بحيث يكون لها الحق في نصف التركة، ولا يحق لكل واحد من الوالدين إلا السدس ما ترك. إذن تلاحظ هنا أن والد الهالك الذكر سيرث حصة أقل من حصة ابنة بنته الأنثى، كما سيكون نصيبه مساو لنصيب زوجته (والدة الهالك) وهي أنثى أيضا بطبيعة الحال.

---

<sup>1</sup> - لقد تم تصنيف أكثر من ثلاثين حالة يكون فيها حظ المرأة في الإرث مساويا أو أكثر من حظ الرجل، وهناك أربع حالات فقط ترث فيها المرأة نصف ما يرث الرجل... يمكن الرجوع في هذا الصدد: محمد عمارة، التحرير الإسلامي للمرأة ص 79. وللمزيد من التفصيل يمكن الرجوع إلى دراسة : صلاح الدين سلطان التي تحمل عنوان ميراث المرأة وقضية المساواة، منشورات دار النهضة، مصر 1999.

وبعيدا عن الآيات الخاصة التي نتحدث عن قانون تقسيم التركة وتحدد بدقة للمسلمين نصيب كل واحد في الميراث، هناك آية تشكل مبدأ عاما يمثل الأساس الذي يقوم عليه قانون الإرث.

"للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون مما قل منه أو كثر نصيبا مفرضا"<sup>1</sup>.

هذه الآية تبين كيف أن النص القرآني ينطلق من مبدأ عام مفاده أن للمرأة الحق في أن ترث نصيبا مساويا لنصيب الرجل. غير أن الغريب في الأمر هو أن هذه الآية لا تم ذكرها عند الحديث عن الإرث بنفس القدر الذي يتم فيه الحديث عن الآية التي تعطي للذكر مثل حظ الأنثيين. إن آية للذكر مثل حظ الأنثيين "تقدم دائما وكأنها الوحيدة فقط التي تتعلق بنظام الميراث في الإسلام.

وفي القرآن الكريم، لا نجد دائما لاختلاف الجنس اعتبارا خاصا في الإرث، اللهم إذا كانت مسؤولية الإعالة المالية مهمة وعلى عاتق الرجل لوحده، كما هو الحال بالنسبة للآية التي يكون فيها نصيب الأخ في الإرث ضعف ما ترثه أخته. بالفعل، وحسب المبادئ القرآنية وطبقا للعادات وتقاليد ذلك العصر، تلقى على عاتق الرجال مسؤولية تلبية حاجات عائلاتهم وزوجاتهم وأطفالهم وكل شخص يبلغ من الكبر عتيا من أفراد العائلة. إن المنطق الذي يكمن وراء مسؤولية الإعالة المالية الإضافية التي يطالب بها الرجل دون غيره، لم تولد

---

<sup>1</sup> - سورة النساء، الآية 7.

مع ظهور الإسلام، بل على العكس من ذلك، كان معمولاً بها دائماً على مر التاريخ، وموجودة في جميع الحضارات. غير أن هذا المنطق يأخذ، حسب السياق والزمن، دلالات مختلفة، وتم تأويله في الثقافات ذات السلطة الأبوية، وكذا الثقافات المتوسطة، والعربية واللاتينية الأمريكية، وكأنها امتياز خاص بمنح للرجال دون النساء وذلك لأنه غالباً ما يتحول إلى طغيان سلطوي أبوي.

وبالفعل، لقد شدد القرآن الكريم في كثير من الآيات على هذا الواجب الذي يبحث الرجال على النفقة لتوفير كل ما تحتاجه نساؤهم، بغض النظر عن الوضعية المالية للرجل - يسري هذا الواجب على الفقير كما يسري على الغني - كما تم تحديد مسؤولية النفقة أساساً في إطار الخلية الأسرية وبروح واجب الرعاية المادية من جهة ثانية، وهو ما يصطلح عليه الفقهاء القوامة.

ولا يجب في هذا السياق أن تفهم هذه المسؤولية الملقاة على عاتق الرجال بوصفها وسيلة تجعل المرأة تابعة، تعامل على أنها تحتاج دوماً لمن يعوها ويقوم بتوفير حاجياتها إذ في هذه الحالة يصبح هذا الوضع المتميز سبباً في جعل النساء دون مكانة الرجال، وسيساعد تبعاً لذلك على ممارسة الميز والإقصاء الاجتماعي في حقهن. وفي الواقع، يمكننا القول إن القرآن من خلال هذا الصنيع لا يمنح للنساء سوى أمن إضافي في هذا العالم الشديد الصعوبة ذي السلطة الأبوية الجامحة. إن وضع المسؤولية على عاتق الرجل جاء لكون المرأة قد تكون غير قادرة من الناحية المالية على تسيير حاجيات الأسرة، وتوفير كل

ما تحتاج إليه، خصوصا في حالة الحمل وكذا في حالات أخرى ذاتية، وعند هذه الحالات يمكن أن نقول بالفعل إن هناك امتياز خاص منح للنساء. والواقع أنه بالنظر في المصطلحات التي يضمها المعجم القانوني الحالي، يظهر لنا جليا أن القرآن الكريم كان متقدما جدا لأنه قام من ذلك الوقت بما يسمى التمييز الإيجابي اتجاه النساء<sup>1</sup>.

ويترتب عما سبق أن الأخ حتى وإن كان نصيبه من الإرث ضعف ما ترثه أخته، فإن بين ميراثه وميراثها اختلاف مهم، أي بعبارة أدق، يمكننا أن نقول إن المبلغ الذي ترثه الأخت هو مبلغ صافي ينضاف إلى أموالها، بعكس المبلغ الذي يرثه الأخ والذي يجب النظر إليه باعتباره مبلغا خاصا من المفروض أن تستخلص منه مصارف إعالة الأشخاص الآخرين الذي مسؤوليتهم على عاتقه<sup>2</sup>.

ومع ذلك يجب علينا أن نعترف بأن المبادئ القرآنية المتعلقة بالإعالة والمسؤولية المالية الواجبة على الأقارب من الذكور، لا تحترم ولا تطبق على الوجه المطلوب، بل تبقى الأسف الشديد حاضرة على المستوى النظري ليس إلا، ولا تجد لنفسها سبيلا لتحقيق على أرض الواقع في المجتمعات الإسلامية في العالم بأسره. وينضاف إلى كل هذا الاضطرابات التي تعيشها الأغلبية الساحقة من العائلات المسلمة والتي اختل توازنها الداخلي جراء الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية الجديدة، ومن هذا المنطلق يمكن أن نتخيل ببساطة حجم

---

<sup>1</sup> – Aziza al-hibri, Droits des femmes musulmanes dans le village mondial Défis et opportunités, p113.

<sup>2</sup> – Aziza al-hibri, Droits des femmes musulmanes dans le village mondial : Défis et opportunités, p115.

الخسائر التي يمكن أن تسبب فيها القراءة المغلوطة لبعض الآيات القرآنية والحكومة بالسلطة الأبوية ذات النظرة الضيقة.

فإذا كان هذا المبدأ القرآني ثابتاً لا يغير من حيث مطالبته أولاً وقبل كل شيء بالعدل والمساواة - على حد ما رأينا في الفقرات السابقت - فإن الذي يتغير هي الظرفية الاقتصادية والاجتماعية، ومن ثم صار لزاماً علينا أن نعيد دراسة بعض الأسئلة المتعلقة بالميراث على ضوء السياق الجديد الذي نعيش بين ظهرانیه.

فإذا كانت الأحكام المتعلقة بالإرث قد جاءت وفق المسؤولية الاقتصادية التي يتحملها الرجل حسب ما جاء في القرآن، فأين نحن اليوم أمام وضعية الرجل الذي لا يستطيع إعالة عائلته ولا يقدر على توفير حاجياتها الكاملة لوحده من المرأة التي تضطلع بنفس المسؤوليات الاقتصادية وقد تتحمل أحياناً الأضعاف المضاعفة منها؟

إن المرأة بدورها أصبحت تعمل على إعالة عائلتها، رغم أنه لا يوجد في أي نص من النصوص الشرعية، ما يجبرها على فعل ذلك، اللهم المحيط الاجتماعي والاقتصادي الذي يتفاقم يوماً عن يوم، وعدم قدرة الزوج على تلبية الحاجيات الضرورية اليومية لأسرته. إن هذه المسؤولية الأسرية أو ما يصطلح عليه بالقوامة مشروطة في القرآن بتلبية حاجيات أفراد الأسرة الآخرين، فهل يصح بعد كل ما سبق، أن تبقى حكرًا على الرجال؟

أو هل من الممكن إعادة التفكير في هذه القوامة، وإعطائها طبقاً للنص القرآني معنى

ينسجم مع سياقنا الحالي، يكون أكثر شمولاً وملاءمة، ونقصد تحديداً مفهوم التساوي؟



قوامة الرجل وقوامة المرأة، كلاهما مسؤول وواع بأهمية الواجبات والأعمال الضرورية التي يجب أن يضطلع بها كل واحد منهما على حدة، داخل نواة حساسة وأساسية هي الأسرة.

كما أنه من الممكن أن يتم التفكير في وضع قوانين جديدة قد تلزم الرجال بأداء واجبهم كاملا اتجاه نساء الأسرة<sup>1</sup>. والتفكير في شكل من أشكال تعويض النساء اللواتي يتم التخلي عنها من طرف أقاربهن الرجال رغم مختلف أنواع الأواصر التي قد تجمع بينهما كالزوج والأخ والعم. هؤلاء الذين كان من المفترض فيهم، حسب المبادئ الإسلامية، دعمهن نفسيا وماديا، لكنهم على وجه العموم لا يظهرون إلا عندما يتعلق الأمر بإبراز ما يعتقدون أنه تفوق وعلو درجة ذكورية، لكن سرعان ما يتملصون من مسؤولياتهم بمجرد أن يتعلق الأمر بالمساعدة، والدعم والمساهمة في توفير متطلبات الأقارب.

وبعيدا عن التفكير النظري في مسألة الإرث الذي يعد ضروريا وإن كان غير كافي وحد و يجب علينا اتخاذ تدابير عاجلة حتى نبقى أوفياء المبادئ العدل في القرآن، وبعد أنفسنا عن اختلاق حالات خاصة أو نهج منحى التطبيق الحرفي للتوجيهات القرآنية والذي لن يؤدي في نهاية المطاف إلا التركية ظروف هذا الواقع المعيش القائم على الظلم وفقدان الأمل. كما يجب علينا التفكير في إيجاد آليات اجتماعية بواسطتها يمكن تعويض هؤلاء

---

<sup>1</sup> - لقد كان علماء المغرب من الرواد في هذا النوع من الاجتهاد التشريعي ويراجع بصدده كتاب حق الزوجة في الكد. والسعاية، دراسة في التراث الفقهي المالكي لميلود الكعواس، منشورات مركز الدراسات والأبحاث وإحياء التراث للرابطة المحمدية للعمال، 2008.

النساء من أجل سد عجزهن المالي، والتخفيف من المعاناة التي تعيشها الأمهات اللواتي يعلن أسرهن وقد تركزن لمواجهة قساوة الحياة وعسرها... نساء وجدن أنفسهن وحيدات أمام واقع غير إنساني أحياناً، وتحملن في صمت مسؤولية إعالة الأسرة والنفقة عليها.

إن التطبيق الأعمى لبعض المبادئ الإسلامية في سياقنا الاجتماعي الحالي الذي يفتقد العدل كما يفتقد البنية المنظمة للمجتمع، سيولد لا محالة أسوأ مظاهر التمييز وسيؤدي إلى نتائج معكوسة مخالفة لما كان تهدف له المبادئ الإسلامية الحقة.

إن المطالبة بالعدل - الذي يتضمن قوانين الإرث في الإسلام يجب أن يترجم إلى إجراءات تطبيقية ملموسة على أرض الواقع. وهنا يكمن التحدي الكبير المطروح أمام كل المشاريع الإصلاحية التي عليها من خلال التشبث بروح القرآن الكريم، إيجاد حلول تمكن المسلمين رجالاً ونساءً من أن يعيشوا إيمانهم وواقعهم اليومي في طمأنينة وسكينة.

### اضربوهن...؟

هل يوجد في القرآن ص يفترض أنه يبرر العنف ضد النساء بشكل من الأشكال؟ يمكن أن نجيب، شكل قطعي ب "لا" وذلك مهما كانت الحجج التي يقدمها أولئك الأشخاص المقتنعون بخلاف ما نراه. أما الآية موضع الحجاج والتي تعطي للزوج الحق في ضرب زوجته هي: "الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من

أموالهم فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله والتي تخافون نشوزهن فعظوهن واهجروهن في المضاجع واضربوهن"<sup>1</sup>.

تبدأ الآية بالتفصيل في مسؤولية الرجال وتحديدًا القوامة التي سبق وأن ذكرناها، لتتحدث فيما بعد عن حالة النشوز التي تترجم عادة بـ "عصيان الزوجة" وقد شرحها بعض العلماء بـ "الخيانة الزوجية"<sup>2</sup>. فبعيدًا عن التعاريف التي أعطاهها المفسرون لكلمة نشوز، فمن المؤكد أن الأمر في الواقع يتعلق بنزاع كبير بين الزوجين<sup>3</sup>.

وتستمر الآية في إعطاء التوجيهات المتعلقة بالطريقة التي يجب أن يتعامل بها الرجال مع هذه المشكلة الزوجية. ومن المفترض أن يحصل كل ذلك وفق ثلاث مراحل متتالية: أولها محاولة التصالح عن طريق الكلام والموعظة، وثانيها مرحلة الحجر في المضاجع حيث ينصح الزوج بأن يمتنع عن الدخول في أي علاقة جسدية مع زوجته، لإكراهها وجبرها على الرجوع عما هي عليه، أما الحالة الأخيرة فهي حالة الضرب واضربوهن.

---

<sup>1</sup> - سورة النساء، الآية 34.

<sup>2</sup> - ابن منظور، لسان العرب، مادة نشر

<sup>3</sup> - يمكن الرجوع إلى الدراسة المفصلة التي أنجزها :

وقبل الوقوف جيدا على المصطلحات المستعملة في هذه الآية، يجب أن نبحث أولا في السياق الذي نزلت فيه. لقد قررت أغلب التفاسير القرآنية أن هذه الآية جاءت في سياق مجيء مجموعة من النساء إلى الرسول صلى الله عليه وسلم تشكين سوء معاملة أزواجهن<sup>1</sup>. وأمام هذا الوضع، فإن الرسول صلى الله عليه وسلم المعروف باشمئزازه من كل أشكال العنف التي قد تمارس ضد المضطهدين والنساء على وجه الخصوص، رد بشدة وحزم وأعطى للزوجات المتضررات حق اللجوء إلى قانون القصاص. لقد أباح رسول الإسلام للنساء اللواتي يعاملن معاملة سيئة<sup>2</sup> أن يعاقبوا أزواجهن بمثل ما عوقين به. إن هذا الإجراء إجراء ثوري بالنسبة لذلك الوقت، ويبقى حتى بالنسبة لواقعنا الحاضر فوق أي تصور. فلماذا لا يمكن أن نقر من خلال موقف الرسول صلى الله عليه وسلم أن الإسلام قد شجع على المساواة بين الرجال والنساء ودفع بها إلى حدود قصوى لا يمكن تخيلها، في مجتمع ما زالت تطغى عليه القبليّة والبداءة؟

---

<sup>1</sup> - إن الرواية الشائعة بهذا الخصوص في رواية حبيبة زوجة سعد بن الربيع والتي جاءت عند الرسول تشكو زوجها الذي لطمها. ابن كثير، تفسير القرآن. (وجاء في تفسير القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، والمبين لما تضمن من السنة وأحكام الفرقان: "والآية نزلت في سعد بن الربيع نشرت عليه امرأته حبيبة بنت زيد بن خارجة بن أبي زهير فلطمها، فقال أبوها: يا رسول الله، أفرشته كريمتى فلطمها! فقال عليه السلام: (لنقتص من زوجها). فانصرفت مع أبيها لتقتص منه، فقال عليه السلام: (ارجعوا هذا جبريل أتاني (فأنزل الله هذه الآية، فقال عليه السلام: (أردنا أمرا وأراد الله غيره) وفي رواية أخرى: ( أردت شيئا وما أراد الله خيرا). ونقض الحكم الأول. ( تفسير سورة النساء الآية 34) المترجم.

<sup>2</sup> - يقول ابن كثير في تفسير القرآن "قال مقاتل والسدي والضحاك وقال الحسن البصري: جاءت امرأة إلى النبي صلى الله عليه وسلم تشكو أن زوجها لطمها فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم "القصاص" فأنزل الله عز وجل: الرجال قوامون على النساء" الآية. فرجعت بغير قصاص" المترجم.

ويكفي أن تتخيل درجة الاستياء والانزعاج التي عبر عنها الزوج في ذلك الزمان، كلما أرادت زوجته أن تقتص منه ردا عن ما صدر منه، إذ لم يكن يرى في هذا الصنيع إلا فقدا لسلطته وضياعا لمكانته داخل الأسرة.

وفعلا، انزعج الرجال كثيرا من هذا الحل، والتجأ عدد كبير منهم إلى الرسول صلى الله عليه وسلم، معبرين له صلى الله عليه وسلم عن استيائهم وخوفهم مما سيترتب عن ذلك، لقد كانوا يخشون من أن تنتفض النساء وتثرن ضد جميع الأزواج<sup>1</sup>.

وفي هذا الوقت، أوحى إلى الرسول صلى الله عليه وسلم بهذه الآية، التي تبدو أول وهلة في تعارض تام مع القرار الأولي الذي اتخذته الرسول صلى الله عليه وسلم، مانعا من خلاله كل معاملة سيئة قد تلحق النساء، غير أن الشريعة الربانية لم تنتظر للأمور من هذه الزاوية، إذ سرعان ما نزل الوحي بخلاف ذلك فقال الرسول صلى الله عليه وسلم "أردنا أمرا وأراد الله غيره" ونقض الحكم الأول<sup>2</sup>.

في الحقيقة، لم يرق الوحي سوى بتطبيق فلسفته القائمة على التدرج كما هو معتاد. فرغم أن القرآن احترم النظام الاجتماعي السائد والبدائي في رؤيته الاجتماعية للمرأة، فإنه لم يسمح بسوء معاملة النساء. لقد كان هذا الموقف انتقاليا يهيئ الظروف للتغيير التدريجي في

<sup>1</sup> - ابن كثير، تفسير القرآن، سورة النساء، الآية 34

<sup>2</sup> - جاء في تفسير القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، والمبين لما تضمن من السنة وأحكام الفرقان "وقد قيل: إن في هذا الحكم المردود نزل ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضي إليك وحيه سورة طه، الآية 114. ذكر إسماعيل بن إسحاق قال: حدثنا حجاج بن المنهال وعارم بن الفضل - واللفظ لحجاج - قال حدثنا جرير بن حازم قال: سمعت الحسن يقول: إن امرأة أتت النبي صلى الله عليه وسلم فقالت: إن زوجي العلم وجهي. فقال: (بينكما القصاص)، فأنزل الله تعالى: "ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضي إليك وحيه". وأمسك النبي صلى الله عليه وسلم حتى نزل: "الرجال قوامون على النساء". المترجم.

العقليات. في حين كانت مقارنة الرسول صلى الله عليه وسلم مقارنة جذرية كان من الممكن أن تتسبب في ردود فعل اجتماعية غير محسوبة العواقب، وفي مجتمع ما زال يحتاج أن يعيد النظر في كل شيء. إن حكمة الخالق وإن بدت مختلفة من حيث مسار التطبيق عن الحل الذي قدمه الرسول صلى الله عليه وسلم يبقى لها نفس الهدف والغاية.

فضلا عن هذا، يجب قراءة هذه الآية على ضوء الآيات الأخرى التي نزلت بخصوص الزواج والعلاقات الزوجية. إن رؤية القرآن الكريم للمؤسسة الزوجية رؤية تقوم على الطلب والرحمة والتعاون المتبادل. فهناك العديد من الآيات القرآنية التي تدعو إلى الاحترام المتبادل، والطيبوبة والحنان. ويصف القرآن العلاقة الزوجية بوصفها علاقة سكونية وصفاء ومحبة، علاقة بين طرفين يؤلف بينهما نوع من التواطؤ العميق والخاص. وقد وصف القرآن الكريم بالفعل ذلك حين حديثه عن تباهي وازدهاء أحدهما بالآخر، حيث يقول: "هن لباس لكم وأنتم لباس لهن"<sup>1</sup>.

كل واحد منهما يتخذ جلد الآخر جلده، أو يتخذ الآخر جلد ثانيا له، وكل منهما مثل الأنا الآخر بالنسبة للثاني...

أو كما تبين الآية الأخرى والتي تحير الأزواج بين العيش مع أزواجهن في سكونية وسعادة، أو الافتراق بالإحسان والمعروف<sup>2</sup>.

"قامسكوهن بمعروف أو سرحوهن بمعروف"<sup>1</sup>.

<sup>1</sup> - سورة البقرة، الآية 187.

<sup>2</sup> - يذكر الطبري أن المسلمين الأوائل كانوا يسجلون هذه الآية في عقد النكاح بغرضهم من ذلك نوع من الحماية الأخلاقية.

فمن المهم الإشارة أن هذه الآية القرآنية تقعد للحياة الزوجية تعتبر عند الكثير من العلماء مبدأً شرعياً من أصول الفقه الإسلامي والذي يحظر سوء المعاملة بين الزوجين فلا ضرر ولا ضرار<sup>2</sup>. فنجد في كتب التفسير الشرعية أن المسلمات الأوليات كن يشترطن كتابة هذه الآية في عقد نكاحهن، لما في ذلك من حماية أخلاقية بالنسبة لهن. إن هذا التذكير مسجل في العديد من مدونات الأحوال الشخصية في البلدان الإسلامية، ويمكن للمرأة المسلمة بالاعتماد على هذا التذكير أن تطالب بحقها ضد الزوج، بل يمكنها أن تطالب الطلاق منه في حالة ما إذا أساء معاملتها<sup>3</sup>.

إن رفض الرسول صلى الله عليه وسلم للعنف ضد النساء شيء يعرفه القاصي والداني. فهناك الكثير من الأحاديث التي تتدد بسوء معاملة النساء وتدين كل أشكال العنف التي يقوم بها الرجال. وفي هذا الإطار فإن الأحاديث التي تناول هذا الموضوع كثيرة جداً لدرجة لا يمكن أن نعرضها كلها، غير أن ما ذكر منها كاف لتقدير الأهمية القصوى التي كان يعطيها الرسول صلى الله عليه وسلم لهذا المشكل، والعمل الكبير الذي قام به من أجل تسليم المسلمين كيف يكتسبون سلوكاً يقوم على اللياقة والاحترام اتجاه زوجاتهم.

---

<sup>1</sup> - سورة البقرة الآية 231.

<sup>2</sup> - عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "لا ضرر ولا ضرار" حديث حسن رواد ابن ماجه، والدارقطني مسندا، ورواه مالك في الموطأ مرسلاً، عن عمرو بن يحيى، عن أبيه، عن النبي صلى الله عليه وسلم. إن الضرر هو إيصال الأذى للغير، بما فيه منفعة للموصل، والضرر إيصال الأذى للغير بما ليس وصل الذي تقع فيه يعني: أن الضرر على هذا القول، هو أن تضر بأحد لكي تنتفع، فإذا وصله ضرر: أذي معين، انتفعت أنت بذلك إما في الأمور المالية، أو غيرها. المترجم

<sup>3</sup> - يمكن الرجوع إلى هذه المسألة بتفصيل في:

خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي<sup>1</sup>.

هذا الحديث لوحده كان بالنسبة للمسلمين الذين يعملون على اتباع سنة الرسول

وسيروا على نهجه ويتخذونه مثلاً.

فبعد هذا الوقوف الطويل من أجل تكوين فكرة عامة عن مفهوم العلاقات الزوجية في

القرآن والسنة النبوية. كيف يمكننا الآن تأويل آية "اضربوهن"؟.

إن هذا التساؤل عندما يطرح يمكن أن يجرح أغلب العلماء سواء القدماء منهم أو

المحدثين، لدرجة لا يمكن أن نتصور معها مستوى المشاكل والمعضلات والصعوبات التي

واجهوها في كتاباتهم وهم بصدد شرح و تفسير هذا اللفظ الذي صار مصطلحاً اضربوهن،

وكذا تحديد شروطه وكيفية تطبيقه، لأنه حتى وإن تحدث معظم العلماء عن جواز تأديب

وضرب الزوجات، فإن تطبيق هذا النوع من التأديب أخذ نوعاً من الاختزال ليقصر على

أدنى مستويات الضرب بل يصل في نهاية المطاف إلى فعل لا معنى له سوى بعده الرمزي.

والمثال الشائع الذي أجمع عليه العلماء في هذا الإطار، يحصر عملية الضرب في

حركة مس خفيف أو الضرب برفق شديد بواسطة قضيب صغير ولين، من نحو السواك

الذي كان يستعمل عادة فرشاة لتنظيف الأسنان بشبه الجزيرة العربية<sup>2</sup>.

---

<sup>1</sup> - في هذا الحديث رواه الترمذي وابن ماجه عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي، وفي هذا الحديث دليل على أن الإحسان إلى الزوجة والعيال من أفضل الأعمال و القربات، وفاعله من خيرة الناس، قال صاحب تحفة الأحوذ في شرحه لهذا الحديث: قوله: خيركم خيركم لأهله: أي لعياله، وذوي رحمه، وقيل لأزواجه وأقاربه، وذلك لدلالته على حسن الخلق، "وأنا خيركم لأهلي" فأنا خيركم مطلقاً، وكان أحسن الناس عشرة لهم، المترجم

<sup>2</sup> - وكذا قال ابن عباس وغير واحد ضرباً غير مبرح قال الحسن البصري يعني غير مؤثر. المترجم.



وهناك شرح آخر تقدمه لنا الآية القرآنية التي تحكي قصة النبي أيوب عليه السلام، فهذا النبي ذي الخبرة الطويلة واجهته معضلة حقيقية... فقد ارتكبت زوجته فعلا خيب ظنه فيها مما جعله يتوعدها ويقسم بأن يعاقبها بالضرب على وجه التحديد. ومع ذلك، أدرك أن هذا الفعل لا يليق به، غير أنه وقع في حيرة من أمره، لأنه أقسم على ضربها ولا بد أن يبر بقسمه. إثر كل ذلك نزلت آية قرآنية لحل لهذه المعضلة تقول :

"وخذ بيدك ضعفا فاضرب به، ولا تحنث إنا وجدناه صابرا"<sup>1</sup>.

لقد كان الهدف من هذه الآية تمكين أيوب من أن يبر بقسمه دون أن يلحق الأذى بزوجه.

ويعتبر الفعل الرمزي المتعلق بالضغث<sup>2</sup> مؤكدا على مبدأ اللاعنف الذي دعا إليه القرآن، وهو تصرف يحمل إحياءات ومعاني دالة للغاية هدفها تربية المسلمين على نهج طريقة أخرى في التعامل والسلوك عندما تتحرك الدوافع الداخلية للعنف البشري الكامن دائما...

<sup>1</sup> - سورة ص، الآية 44.

<sup>2</sup> - في لسان العرب الضغث لغة القبضة تملأ الكف من قضبان مختلفة، يجمعها أصل واحد أي القبضة من دقاق العيدان والنبات، أو القضبان أو الحشيش فاختلف الرطب بالا بس، وقيل الضغث - من هذه العيدان - هو ما دون الحزم. وقد جاء في تفسير القرطبي أن الضغث قبضة حشيش مختلطة الرطب باليابس. وروي عن ابن عباس: إنه إنكال النخل الجامع بشماريخه. تضمنت هذه الآية جواز ضرب الرجل امرأته تأديبا. وذلك أن امرأة أيوب أخطأت فحلف ليضر بنها مائة فأمره الله تعالى أن يضر بما بعثكول من عتاكيل النخل، وهذا لا يجوز في الحدود، إنما أمره الله بذلك لئلا يضر امرأته فوق حد الأدب. وذلك أنه ليس للزوج أن يضر امرأته فوق حد الأدب، ولهذا قال عليه السلام: واضربوهن ضربا غير مبرح. المترجم .

وأمام كل هذه الإشارات وهذه المراحل الأولية والتدابير الزجرية اللببية، وكذا هذه التربية الإلهية للاعنف، قام العلماء أثناء استنباطهم للأحكام التشريعية بتقييد شديد لهذا الفعل حتى وصل هذا التقييد إلى درجة الإبطال.

وفيما يتعلق بلفظ "اضربوهن" في حد ذاته، وصل العلماء إلى ما يشبه الإجماع، حيث دعوا إلى منع كل أشكال العنف ضد النساء. كما خلصوا إلى أنه بالنظر إلى النموذج الأمثل للعلاقة الزوجية في النص القرآني، فإن أي امرأة تعرضت لسوء المعاملة والعنف الجسدي أو اللفظي تملك الحق في طلب الطلاق.

كما أن التفسيرات المعاصرة الحالية تميل هي كذلك، لاتجاه اللاعنف الذي دعا إليه القرآن.

فالجذر "ضرب" الذي اشتقت منه "اضربوهن"، كرر أكثر من عشرين مرة في القرآن معاني مختلفة ومتناقضة أحيانا مثل: الغطاء، العطاء، المشي، المصاحبة، الإعراض، الترك، التغيير، إعطاء المثل... ويمكن أن نتساءل في هذا الصدد ما الذي يجعل معنى هذه الكلمة في هذه الآية بالتحديد يحمل معنى "الضرب"<sup>1</sup>.

لماذا لا يكون معنى الضرب هنا هو "الهجر في المضجع" أو الابتعاد عن الزوجة عن طريق مغادرة بيت الزوجية؟ وبالفعل، يمكن أن نقرر بأن الخيط الرابط للخطاب في هذه

---

<sup>1</sup> - إن الاتجاه الحالي هو تفسير معنى الضرب بالابتعاد والترك وهو ما ينسجم مع تصرف الرسول صلى الله عليه وسلم حيث ذكر أنه عندما نشرت عليه زوجاته هجرهن إلى المشربة شهرا كاملا ولم يضربهن. وينكر بحث لغوي في معين الضرب أحمد عبد الحميد سليمان أن للضرب معان كثيرة واحد منها جاء معين العنف و من معاني الضرب الإعراض والهجر والعزل والمفارقة والإبعاد والترك. المترجم. عبد الحميد أحمد أبو سليمان، ضرب المرأة وسيلة لحل الخلافات الزوجية، منشورات دار السلام، القاهرة 2002.

الآية، يسير في هذا الاتجاه، لأنه إذا نظرنا في هذا الأمر بتمعن وعمق، سنلاحظ أن التفسير القديمة غير متماسكة نسبياً، من حيث المنطق الذي تبنته والذي يقول إن الضرب لا يأتي إلا في إطار التدرج من خلال احترام المراحل الثلاث برمتها، حيث تكون البداية من الأكثر سهولة إلى الأكثر صعوبة وهكذا إلى أن يصل الأمر إلى حل نهائي للنزاع القائم بين الزوجين، وفي الواقع، بعد العظة بالمصالحة في المرحلة الأولى، تأتي المرحلة الثانية المتعلقة بهجر فراش الزوجية. إن هذه المرحلة تعتبر أكثر قسوة من المرحلة الأخيرة التي تدعو إلى العقاب الجسدي وإن كان رمزياً، حسب تأويل الكتابات القديمة... فالزوجة تتألم إن جرحت كرامتها بهجر زوجها لها ورفضه أن يقاسمها الفراش أكثر من تألمها من المرحلة الثالثة التي تتبني على ضربها وإن كان ضرباً خفيفاً بزحف النخل.

من هنا يمكن أن تساءل عن ما إذا كان هناك تناقض في التأويل القائم على التدرج والشائع والمقبول على نطاق واسع. إذ يبدو لنا أن هجر بيت الزوجية أكثر انسجاماً مع المنطق، لأنه أشد أثراً على المرأة من الانفصال الجسدي رغم الاشتراك في فراش واحد.

وبالإضافة إلى ذلك يجب أن نظل واقعيين ونتقبل مسألة أنه حتى وإن كانت عملية الضرب رمزية حسب التفسير القرآنية القديمة، فهذا لن يمنع الذين يقفون عند المعنى الحرفي للنص ولا يعيرون اهتماماً لباقي المبادئ الأخرى، من اتخاذ هذا التأويل سبباً كافياً لتأييد أي شكل من أشكال الاضطهاد ضد زوجاتهم.

أوليس من المشروع التساؤل عن مدى ملاءمة هذا التفسير وانسجامه مع المعنى العام الثاوي وراء مجمل الرسالة القرائية؟ وكذا انسجامه مع أقوال وأفعال الرسول صلى الله عليه وسلم المنزهة عن أي شائبة من الشوائب. لقد عارض عليه السلام طوال حياته، كل أنواع الاضطهاد أو العنف الجسدي بل وحتى الشفهي ضد النساء.

وهذا دليل قاطع آخر، يقوم ضد أي تبرير للعنف الزوجي يريد أن يبنني على خلفية دينية. فلا يمكن السماح لأي مسلم من المسلمين يريد أن يجعل من الدين غطاء له كان يدعي أن له الحق في التأديب الجسدي لزوجته، فرسول الإسلام صلى الله عليه وسلم لم يضرب قط امرأة ولم يرفع يده على أحد أبدا... أولم يرسل أصلا من أجل استكمال القواعد البيئية الأخلاق الإنسانية؟

فهل سيحتفظ إذن التفسير القديم السائد لعبارة "اضربوهن" بكل اتساقه داخل نظام هذه القواعد النبيلة الأخلاق الإنسانية؟ أم أنه من الأولى أن نقبل و ننصاع لقول الله عز وجل، على حد ما فعل الرسول حين قال "أردنا أمرا وأراد الله غيره"، وأن تسند لهذا المصطلح (الضرب) معنى آخر أكثر عمقا مازال يتمنع علينا، والله وحده هو المالك المفاتيح سره، وإن كان الأمر بأي حال من الأحوال، لا يمكن أن يؤدي إلى تبرير العنف كيفما كانت درجة رمزيته؟.

## خلاصة : الإسلام وقمة إجهاض الثورة النسائية

مع مجيء الإسلام، وظهر حركة نشيطة تدعو لتحرير النساء من ظلم الجاهلية، عرف النظام الاجتماعي العربي آنذاك هزة كبيرة جدا سبب قيامه على نظام أبوي قاس.

وانطلاقا من التشجيعات التي وجدتتها النساء في التوجيهات القرآنية الكريمة وتعاليم النبي صلى الله عليه وسلم الذي حثهن على أن "تتحدثن عن أنفسهن"، دخلت المرأة المجال الاجتماعي وخرقت القوانين القبلية وحاولت التحرر من العادات التقليدية المهينة. لقد دخلت الإسلام دون أن تنتظر موافقة الأسرة أو السلطة القبلية والسياسية في تلك الحقبة. وساهمت مساهمة فعالة في نشر الرسالة من خلال تضحياتها الجسام ومقاومتها لكل ما تعرضت له في السابق من سوء جسدي ونفسي جراء التزامها الديني وإيمانها بالدعوة الجديدة، كما أنها نفيت باسم الإيمان... وتحالفت سياسيا وروحيا مع الرسول صلى الله عليه وسلم.

وبفضل العمل المشترك جنبا إلى جنب مع الطائفة الجديدة للرجال، أصبحت النساء المسلمات تطالبن بحقوقهن وتشاركن في كل الأنشطة السياسية في تلك الفترة، كما وضحن كل طاقتهن المادية والمعنوية والنفسية رهن إشارة قضية الإسلام. إنها في الواقع ثورة نسائية انبجست في وسط حر الصحراء العربية حيث الوحي القرآني وتعاليم النبي صلى الله عليه وسلم يدعو الرجال والنساء معا للتعاون على البر والتقوى. وهكذا أخذت النساء مكانهن إلى جانب الرجال وسط المسجد من أجل التعلم والتباحث في شأن القرارات المتخذة من طرف جماعة المسلمين والعمل على تطبيقها. غير أنه بعد مرور قرون، أصبحت مساجدنا

فضاءات مغلقة مخصصة للرجال لا غير، حيث وضعت المرأة في ساحات ضيقة معزولة بواسطة جدران وستائر حاجبة. وهكذا حكم عليها هذه المرة باللجوء إلى الأماكن التتمية في مراكز المعرفة والسلطة، تسام كل أنواع الخضوع والخنوع، والأسوأ من أنها تنقل تنازلها وجهلها هذا، إلى ذريتنا...

كشفت الإحصاء التاريخي انه بعد وفاة النبي كانت هناك نخبة من العلماء تتكون من 8000 شخصا من بينهم 1000 امرأة. وهكذا يتبين أن الانعتاق والتحرر الذي حصل سبب الدعوة الإسلامية أعطى في خضم ربع قرن فقط، نتيجة مفادها أنه يوجد. ضمن كل ثمانية أشخاص من نخبة العلماء امرأة واحدة<sup>1</sup>.

فكيف تمكنت أولى النساء المسلمات باسم الإسلام من أن تصل إلى هذه المساحات من الحرية والمعرفة والسلطة وذلك منذ 14 قرنا في حين تقيد حريتها اليوم من الوصول إلى تلك الأماكن وباسم الإسلام نفسه؟! !

ماذا حصل منذ ذلك الوقت، حتى نسمح باسم الإسلام نفسه كل ما سبق رفضه بل وتحريمه بالنص القرآني وسنة الرسول عليه السلام؟

كيف يمكن أن نوافق على استبدال النصوص القرآنية بالتقاليد الأبوية وتوهم الناس بعد ذلك أن القرآن الكريم هو في حد ذاته يقوم على النظام الأبوي! لا شيء أكثر خطأ من هذا الادعاء الكاذب، بل إن العكس هو الصحيح تماما، فمنذ نزول الوحشي حارب الإسلام كل التقاليد والأعراف الأبوية القاسية المتجذرة بشكل قوي في هذه المنطقة العربية.

---

<sup>1</sup> - ابن الأثير أسد الغابة نقلا عن كتاب أم عمارة السابق الذكر.

ويمكن القول إن القرآن الكريم جاء ضد النظام الأبوي، والدليل على ذلك أن هناك مجموعة من الآيات القرآنية تتضمن نقدا بل ورفضاً قاطعاً للأمم أشكال الثقافة الأموية في مجتمع شبه الجزيرة العربية آنذاك.

وفعلاً نجد القرآن يرفض جذرياً إحدى الدعائم الأساسية التي يقوم عليها النظام الأبوي، ألا وهي الإله الأب الذكر الذي دائم استمرارية حقيقية بين الأب الإله والأب الذكر، وتمتد سلطته إلى سلطة الزوج الذي تمارس بدوره وبواسطة هذا الحق اللاهوتي سلطته على الزوجة<sup>1</sup>. ومعلوم أن مفهوم الأب الإله يتناقض كنياً مع مفهوم التوحيد الإسلام.

كما بدين القرآن أيضاً قدسية الأنبياء بوصفهم آباء للجماعات التي كانوا بين ظهرانيها، وينتقد بشدة في جملة من الآيات أولئك الذين يتبعون طريق آبائهم<sup>2</sup> "وإذا قيل لهم أتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون"<sup>3</sup>.

لقد انتقد القرآن جلياً هذه السلطة الأبوية الممثلة في الإعلاء من مكانة الذكر ومنحه السلطة المطلقة.

إنه لمن الغريب والمثير أن نرى هذا الزخم الذي عبرت عنه الإسلام خاتم الديانات والرسالات، قد تم التصدي له وهو في الطريق. لقد كان الخطاب بشأن المرأة كما صين في

---

<sup>1</sup> – Asma Barlas, *Believing women in Islam, unreading patriarchal interpretations of the Qu'ran*, University of Texas, Press, 2002.

<sup>2</sup> – هناك آيات أخرى في نفس السياق.

<sup>3</sup> – سورة البقرة، الآية 170.

القرآن والسنة منذ أكثر من 1400 عاما، أكثر تحريرية بل ومخالفا في بعض الأحيان لما يقدم ويقترح حاليا.

في حين ينقل القرآن رسالة المساواة بين الجميع إن على مستوى الحقوق أو الواجبات. لقد تحدث مع النساء وأعطنا من القيمة المستحقة، أستجاب لمطالبهن، وحاوّر من... سواء تسلق الأمر بالمشاركة السياسية (البيعة) أو اللجوء السياسي أو المشاركة الاجتماعية أو المطالبة بالحقوق أو حرية التعبير... أما اليوم فيرتكز الحديث بشأن المرأة في الخطاب الإسلامي حول مفاهيم أخلاقية مجردة وسيطة للغاية. !

تعتبر المرأة فتنة وعورة عند النظر. وتجادل بشأن عودتها الإجبارية إلى المنزل، وتشد يد بصورة كبيرة فيما يخص جسدها وطرق لباسها.

ويركز الخطاب الإسلامي الحالي في غالبية على جسد المرأة والطريقة الأنسب لستره وإخفائه، والحديث عن كل ما هو مباح وغير مباح فيما يخص اللباس، وتحريم التعطر ورفع الصوت عند الحديث لأن صوتها عورة، و حظر الضحك! أفهذا هو جوهر رسالة الإسلام بخصوص المرأة؟ أين ذهبت روح القرآن المحررة، وأين نحن من كل المبادرات التي عرضها النص القرآني بغية الشروع في خلق نظام أساسي حقيقي لاستقلالية المرأة؟

حقيقة، نجد في الإسلام كما في الديانات الموحدة الأخرى أخلاقيات تحض على حسن السلوك، وقيم أساسية تتعلق بلياقة الجسم تبع وتطبق. غير أنه غالبا ما ننسى أن الرجال كما النساء معنيون أيضا بهذه اللياقة الجسدية. ثم إنه لا يمكننا حصر أساس الرسالة



الروحية في قواعد اللباس، على حد ما نراه فيما يخص موضوع الحجاب الذي يتكرر دائماً في كل وقت وحين، وكذلك الخطابات المتواصلة بشأن فتنة جسد المرأة وخطورة ذلك، وكل تلك المواضيع التي تبالغ في الاهتمام بجسد المرأة. لقد أصبح الحجاب أولوية إن لم نقل الأولوية المطلقة لكل امرأة مسلمة تحترم نفسها. وبالتالي فالمسلمات بارتدائهن للحجاب يختزلن أهم مطالبهن في هذا الرمز الذي مع الأسف يفقد مصداقيته لكثرة تكراره، و يصبح علامة دون معنى و تافها بالمقارنة مع مطالب أخرى أكثر أهمية. وبعيدا عن الوصف القرآني للحجاب القرآن يتحدث عن الحمار الذي لا يمكن لا فرضه أو منعه بما أنه يستجيب للمنطق الشمولي، فإن للمرأة وحدها الحق في أن تقرر ارتداء الحجاب أو لا. إن هذا الحجاب الذي يعتبره البعض رمزا لقمع المرأة، أصبح جراء الضجة الإعلامية والبناء الإيديولوجي المحبوك رمزا إحباط حقيقي يولد ردود فعل عاطفية سواء في الغرب أو في البلدان المسلمة.

إننا في نهاية المطاف نجد الخطاب نفسه عند الفريقين معا. فمن جهة، هناك خطاب يريد تحرير النساء من هذا الإسلام الذي يقمعهن ويبالغ في تغطيتهن وسترهن. ويبقى هذا الاتجاه مهووسا بجسد المرأة يسعى بشتى الوسائل لتعريتها وكشف مستورها. أما الفريق الآخر فعلى عكس الأول يجعل الجزء الأهم في الرسالة الروحية للإسلام يرتكز على جسد المرأة الذي يجب ستره وإخفاؤه بوصفه يمثل رؤية الإسلام للهوية التي يجب احترامها، وبالتالي فإن الحجاب يختزل عنده كل أخلاقيات الإسلام...

وفي كلتا الحالتين ومع بعض الاختلاف نجد أننا أمام إيديولوجية جنسية تجاهل ذكاء المرأة وتدوس على كينونتها البشرية وقدرتها الذاتية على اتخاذ قراراتها من منطلق قناعاتها لا غير .

إن روح هذه الدينامية التحررية التي تعتمد على الوحي القرآني جرى التحايل عليها وتغيير مسارها الحقيقي، وهكذا قلص مجال التحرك عند النساء المسلمات تدريجياً على حساب قوانين عملت على إغلاق كل المنافذ المفتوحة، سواء باسم التوجيهات القرآنية الكريمة أو باسم السنة النبوية.

إن فلسفة التدرج التي دعا إليها القرآن والتي تهدف إلى تحرير وتحرر تدريجياً تم تجاهلها تماماً، مما أدى إلى تراجع وضع المرأة.

وهكذا تم سريعاً إحباط الثورة النسائية لتعلو عليها التقاليد الأموية التمييزية، وأصبح هم الخطاب الديني هو تقييد الحريات المكتسبة تحت شعار أخلاقيات دينية لكنها أخلاقيات مجردة من الجوهر.

إن تراجع العالم الإسلامي تزامن مع تراجع ملموس لوضع المرأة وذلك بسبب أمرين مأساويين كبيرين.

أولهما النزاعات والصراعات السياسية المرتبطة بالحكم الاستبدادي وما ترتب عن ذلك من استمرار العبودية. في حين أن القرآن الكريم يذكر مراراً أحكاماً ومقتضيات القضاء على العبودية تدريجياً لأن كل فعل تحريري في نظره خليق بذلك العمل والجهد. غير أن المسلمين

ساروا على خلاف ذلك، واستمروا طيلة قرون في هذه الممارسة خصوصا فيما يتعلق بالنساء وهو ما أدى إلى حجب النساء وإغلاق أبواب المنازل عليها ضمن الحريم.

ومنذ قرون، قفل باب الإجهاد - بوصفه أداة أساسية لتطور الفكر الإسلام - وفتح باب المضاربة القانونية على نحو ما يطلق عليه سد الذرائع، الرادع القانوني الحقيقي الذي ساهم في ترسيخ ثقافة رسمية التبعية المرأة. إن سد الذرائع بمثابة مدونة محافظة أو بصيغة أخرى مدونة الخوف، لما تتضمنه من محتوى قمعي فيما يتعلق بوضع المرأة، وإن كان بعض العلماء قاموا بذلك تحت ذريعة الحفاظ على مجتمعاتهم من فساد الأخلاق. ومن هذا المنطلق تعددت التجاوزات والقوانين المقيدة لما يحتويه الإسلام في مجال حقوق وحرريات المرأة، كحق التعلم والمعرفة التي كانت منذ وقت طويل ممنوعة على النساء لجنة المحافظة على أخلاق المجتمع والقواعد الأخلاقية. غير أنه عند ما يمنع المرأة من حق المعرفة نخرمها من حق العدل وفي كلتا الحالتين نجد أنفسنا أمام تناقض كبير وفي تعارض تام مع الأسس التي يقوم عليها الإسلام.

إن وضع هذا النوع من القوانين التي تدعو إلى المنع<sup>1</sup> في كل الميادين للوقاية من مخاطر فساد الأخلاق المحتمل، دليل على أن فكرنا منحصر ومنطق بشكل كبير. زيادة على أن سن مثل هذه القوانين تبقى حلا سهلا ونهجا يعكس الانحسار الفكري لمنظومة الفكر الإسلامي لدينا، وعجزنا على مواجهة المشاكل الحقيقية لمجتمعنا. فمواجهة المشاكل

---

<sup>1</sup> - يمكن الرجوع إلى اللائحة التي تضم كل أنواع المصنوعات باسم الإسلام في كتاب أبو شوكة تحرير المرأة في عهد الرسالة : دار القلم القبة الرابعة 1995 القاهرة.

لا يمكن أن تحل التحرير الاستباقي بل عن طريق التثقيف من أجل تحفيز البحث عن الدلالات والمقاصد لأنها وحدها القادرة على حمايتنا من كل أنواع الميوعة والفجور. إن هذا الأمر يمكن أن يتحقق عن طريق إعداد علم أخلاقي حقيقي من أجل تدبير الحريات عن طريق تربية روحية مناسبة تراعي الواقع والسياقات التي يتحقق فيها.

لقد كان من بين العلماء الذين استخدموا بصرامة هذا المفهوم الحافظ الذي يتمثل في سد الذرائع، من حاول بحسن نية أن يعمل من خلال هذا المفهوم على تهيئ الظروف لمجتمع إسلامي من أجل الوصول فيما بعد ان تحقيق المدينة الإسلامية الفاصلة. لكن هذا محض خيال لأنه حتى في زمن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يكن هناك مجتمع إسلامي مثالي !.

فمن خلال الواقع الإنساني فإن هذا المبتغى يبقى من المستحيلات لأن الله عز وجل شاء أن يكون التنوع البشري مبدءاً أساساً لهذه الحياة، وامتحاناً حقيقياً لخلقه. لقد أراد الحق سبحانه أن يكون المجتمع الإنساني مجتمعاً يتعايش فيه الطيب والخبِيث، ويوجد فيه الخير والشر، ويتنافس فيه العمل الصالح والسيء أو الأسوأ.

إن حياتنا في الأرض ليس حياة الملائكة، تلك المخلوقات الكاملة التي تعيش في عالم خاص خلقه سبحانه وتعالى على الوجه الأمثل. إن حياتنا هي حياة تموج بكل التجارب الإنسانية... وتحتوي على الإكراهات والنجاحات، الإخفاقات والعذابات، الحزن والفرح،

السعادة والأسى، وكل ذلك من أجل اختبار درجة قدرة تحملنا، وقدرة مقاومتنا، وقدرة إيماننا، وقدرة خضوعنا.

كيف يمكننا التعامل مع هذا الواقع بوجود عقائد متحجرة وجامدة بعيدة كل البعد عن مشاغلنا اليومية؟

كيف يمكننا مواجهة تعقيدات الواقع الاجتماعي عندما نجد أنفسنا مقيدين بأحكام، علاوة على كونها شرعت في ظروف مختلفة تماما عن ما نعيشه اليوم، نجدها في بعض الأحيان تتعارض مع مبادئ الرسالة القرآنية؟

كيف يمكننا إذن أن نعيش مرة أخرى تلك القفزة التحريرية التي دعا إليها إسلام الوحي الكريم، والذي مع الأسف، سرعان ما اختنق داخل التاريخ الإسلامي الذي ظل واجما في صمت رهيب.

كيف يمكننا أن نعيش مرة أخرى ذاك التحول الذي جاءت به الدعوة الإسلامية وترسيخه في قلوب المسلمين وخصوصا المسلمات اللاتي عانين الأمرين جراء حرمانهن من الحرية؟

كيف يمكننا إقناع أولئك الذين يقاومون بشدة كل دينامية إصلاحية خوفا من أن يفقدوا أنفسهم؟

كيف يمكن أن نفسر لهم أنه لا يمكننا البقاء أوفياء للإسلام دون أن نجدد أمور ديننا ودون أن يكون لنا فكر نقدي ورؤية عميقة أودون حديث بناء؟

إن الإجابة على كل هذه الأسئلة المتتالية ليس غاية هذا الكتاب، بل الغرض والقصد هي المساهمة بالكثير أو بالقليل في مناقشة الأفكار التي تتعلق بتجديد الفكر الإسلامي.

إن اقتراح قراءة جديدة للمصادر وإعادة قراءتها من منظور نسائي قد لا تكون هي الحل الوحيد للمشاكل التي تعيشها النساء في مجتمعاتنا المسلمة.

أفلا نقول، إن أخذ الكلمة، هو في حد ذاته مبادرة؟ هذا ما كنت أتطلع إليه في هذا الكتاب... ويتوضع شديد.

والله شاهد على ما أقول

## المصادر والمراجع

### القرآن والتفسير

- ✓ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، دار الكتب العلمية، لبنان 2007.
- ✓ الفخر الرازي، التفسير الكبير مفاتيح الغيب.
- ✓ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن.
- ✓ ابن عباس، تفسير ابن عباس، دار الكتاب العلمية، بيروت 2000.
- ✓ الزمخشري، الكشاف.
- ✓ سيد قطب، في ظلال القرآن
- ✓ القشيري، التفسير.
- ✓ سهل التستري، تفسير القرآن العظيم.
- ✓ رشيد رضا، تفسير المنار.
- ✓ البيضاوي، التفسير.
- ✓ الترجمة الفرنسية لمعاني آيات القرآن لمحمد الشياظمي منشورات التوحيد 2004.
- ✓ كتب باللغة العربية
- ✓ محمد رشيد رضا، تفسير المنار، دار الكتاب العلمية، لبنان 1999.
- ✓ راشد الغنوشي، المرأة بين القرآن واقع المسلمين، مركز البحوث المغاربية، لندن 2000.

✓ أسماء أحمد زيادة، دور المرأة السياسي في عهد النبي والخلفاء الراشدين، منشورات دار السلام 2001.

✓ الهيثمي، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد.

✓ الطبري، تاريخ الأمم والملوك، دار صادر، بيروت 2003.

✓ أبو شوكة، تحرير المرأة في عصر الرسالة، منشورات دار القلم الكويت الطبعة الرابعة 1995.

✓ أمينة أمزيان الحسني، أم سلمة أم المؤمنين، منشورات وزارة الأحباس والشؤون الدينية، المغرب.

✓ محمد سعيد مبيض، موسوعة الصحابييات، منشورات الغزالي، سوريا 2000.

✓ ابن حجر، الإصابة في تمييز الصحابة.

✓ شيماء أصراف، أحكام المرأة بين التجديد والتقليد، دراسة مقارنة بين قانون الأحوال الشخصية والفقهاء والعلوم الاجتماعية، منشورات دار القلم باريس 2001.

✓ يوسف القرضاوي، كيف نتعامل مع القرآن العظيم، دار الشروق القاهرة الطبعة الثانية 2000.

✓ ابن سعيد، الطبقات الكبرى.

✓ علال الفاسي، النقد الذاتي، مطبعة الرسالة، المغرب 1979.

✓ محمد عمارة التحرير الإسلامي للمرأة، مطبعة دار الشروق القاهرة، 2002.



✓ صلاح الدين سلطان، ميراث المرأة وقضية المساواة، مطبعة دار النهضة، مصر  
1999.

✓ عبد الحميد أحمد أبو سليمان، ضرب المرأة وسيلة لحال الخلافة الزوجية، مطبعة دار  
السلام القاهرة، 2002.

✓ أبو شوكة، تحرير المرأة في عهد الرسالة، دار القلم الطبعة الرابعة، القاهرة 1995.

✓ ابن منظور، لسان العرب.

### **Autres langues**

✓ André-Marie Gerard, Dictionnaire de la bible, coll Bouquins  
1989.

✓ Ali Shariati Man's creation from the islamic viewpoint voir sur  
Internet: [www.shanati.net](http://www.shanati.net).

✓ Régime Saint-Criquet Nathalie Prévost, voir au-dessus d'un  
nid de machos Albin Michel 1993. Paris.

✓ Lamrabet Asma Aicha epouse du Prophète pour l'islam au  
féminin, éditions Tawhid.

✓ Haba Raouf Izaaf, Women and the interpretation of islam  
sources, voir sur Internet: [www.crescente.com](http://www.crescente.com).

- ✓ Anne–Marie Schimmel. La femme dans la spiritualité musulmane. Albin Michal, 1995.
- ✓ NAsri Salhab. L’islam tel que je l’ai connu, religion de la clémence et de la paix. Publication de l’ISESCO.
- ✓ Michel Dousse Marie le musulmane. Albin Michel, 2005.
- ✓ Pierre Lory Marie mère de Jésus dans l’exégèse mystique, musulmane, Mai 2006 Freud–Lacan.com.
- ✓ Agnès Callamard, le sexisme à fleur de mots, Mars 1998, le Monde Diplomatique.
- ✓ Abd al–Halim Abû Shûkka, Encyclopédie de la femme en islam, éditions al–Qalam, 2000.
- ✓ Taha Jaber Al–Alwani, The testimony of Women in islamic law, voir sur Internet: [www.alhewar.com](http://www.alhewar.com).
- ✓ Aziza al–Hibri, Droit des femmes musulmanes dans le village mondial: Défis et opportunités.

فهرس الموضوعات

مقدمة

## المؤلفة

## توطئة

## لقاء مع مسلمات لا كالأخريات

## كلمة شكر

- 1 ..... التقديم
- 2 ..... عن أي تحرر تتحدث
- 16 ..... بادئ ذي بدء
- 33 ..... الجزء الأول : عندما يتكلم القرآن عن النساء
- 34 ..... قصة كل النساء
- 40 ..... بلقيس، ملكة سبأ ملكة ديمقراطية
- 56 ..... سارة وهاجر : رمزان للتوحيد
- 67 ..... زليخة أو الحب المحظور
- 85 ..... أم موسى وآسية: امرأتان متحررتان
- 95 ..... قصة لقاء بنت شعيب بموسى
- 102 ..... مريم، المفضلة
- 103 ..... مريم، صلة وصل بين المسيحيين والمسلمين
- 105 ..... ولادة مريم
- 111 ..... اعتكاف مريم الروحاني
- 114 ..... التبليغ والبشارة

120	ولادة عيسى وبداية الاختبار .....
123	مريم وابنها آية للناس .....
127	الجزء الثاني : عندما يتكلم القرآن مع النساء .....
128	هل لغة القرآن لغة ذكورية؟ .....
130	عندما يستجيب القرآن لمطالب النساء .....
142	المباهلة أو عندما يحث القرآن النساء على المشاركة الاجتماعية .....
148	المهاجرات أو اللاجئات السياسيات .....
163	المبايعات أو الالتزام السياسي للنساء .....
185	المجادلة، عندما يسمع الله لشكوى امرأة .....
198	وماذا عن الآيات الأخرى؟ .....
202	تعدد الزوجات .....
206	الشهادة .....
210	الإرث .....
218	اضربوهن...؟ .....
229	خلاصة : الإسلام وقمة إجهاض الثورة النسائية .....
239	المصادر والمراجع .....